

دكتور محمد عمارة

جمال الدين الأفغانى

المفتى اعلى



دار الشروق

جمال الدين الأفغانى
المؤثر على به

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

القاهرة: شارع محمد علي - هاتف: ٧٧٤٨٨ - ٧٧٤٨٩ - برقية: شروق - تلبرق: ٥٥٥١
PHOENIX BOOKS LTD. - روكا، بالشرقية - ج.م.ع. - ٨١٧٧٦ - ٨١٧٧٧ - ٨١٧٧٨
SHOROUK INTERNATIONAL: 1761318 RESIST STREET, LONDON W1, UK. TEL: 537 7443/A. TELEX: SHOROK251790

اختصاص الدكتور لويس ، فلقد نشأ بيننا ما أسميه « التعايش السلمى » ،
المرتكز إلى « حسن الجوار » .. نلتقى قليلا ، ولكن فى ود واحترام .. أقرأ له
ما يعرض علينا من نقد وتقويم للآداب الأوربية ، قراءة متذوق غير
متخصص .. وأبدى إعجابى فى كثير من الأحيان .. ويقرأ الرجل بعض
أعمالى ، ويثنى عليها ثناء أشكره عليه ..

لكن « الظاهرة » التى أقلقتنى - وربما أقلقتم غيرى - هى خروج الدكتور
لويس عن إطار تخصصه واختصاصه ، لا إلى دائرة فنية أو فكرية أوسع -
فهذا حقه المشروع شريطة أن يتأهل له - وإنما إلى دائرة فكرية ليست بينه
وبينها أية علاقة على الإطلاق ! .. ثم إصداره العديد من الأحكام الخطيرة
والخطرة فى قضايا فكرية لها حساسيات شديدة ، بحكم صلتها العضوية
بالمعتقدات المقدسة لجمهور الأمة .. ومجىء نشاطه الجديد هذا وأحكامه
تلك فى إطار الجهود التى تنظمها وتوجهها دوائر استشرافية غربية - أوربية
وأمركية - تصدىا لتيارات فكرية محلية ، بعضها قومى وأغلبها إسلامى ..
ثم .. - وهذا هو المصدر الأساسى للقلق من هذه « الظاهرة » - أن تصدى
الدكتور لويس لهذه القضايا قد جاء دون « مؤهلات » ، ليس بالمعنى
الأكاديمى ، ولا لأنه مسيحى يقتحم ميدان الكتابة فى التاريخ لحركات
الإصلاح الإسلامية ، وإنما بالمعنى « الفنى » الذى يتطلب من أى إنسان
أن يتأهل ولو بالحد الأدنى من أسلحة الميدان الذى يريد أن يحارب فيه ! ..
لقد أقلقتنى هذه « الظاهرة » ، لأحكامها الخطيرة ، واستنتاجاتها
الغريبة ، ولما مثلته وتمثله من استفزاز للضمير القومى والإسلامى .. وفوق
ذلك نجيتها فى إطار مخطط لا تحسب أن معالمة ومراميه قد غابت عن فطنة
الدكتور لويس ؟ ! ..

● ففيما بين حرب السويس سنة ١٩٥٦ م وعدوان سنة ١٩٦٧ م استقطب المشروع القومي العربي ، الذي قاده جمال عبد الناصر ، جمهور الأمة العربية . وبرزت لهذه الأمة ذاتيتها الخاصة تجاه الغرب الاستعماري وحضارته الغازية . وأخذ عقل الأمة يبحث عن ذاتها وقسماتها التي تميزها عن أعدائها وغزاتها التاريخيين . فإذا الإسلام السياسي والحضاري يبرز كالمصدر الأعظم والصيغة الأفعلى فى تكوين الملامح القومية لهذه الأمة . الأمر الذى دفع إلى المقدمة ظاهرة « الإحياء الإسلامى » و « الصحوة الإسلامية » الحالية .. حتى لنستطيع أن نقول : إن التيار الإسلامى المعاصر ، قد انطلق ، مواصلا ومطورا ، المشروع القومى العربى الناصرى ، رغم ما حدث بين القوميين والإسلاميين من صراع سلمى أو عنيف ؟ ! .. وفى خلال تلك الحقبة - حقبة بزوغ شمس المشروع الحضارى الخاص للأمة العربية - تعلق آمال شعوب الشرق الإسلامية ، بل وغير الإسلامية ، بالأمة العربية ، آملة أن تقود نضالها فى سبيل الاستقلال السياسى والاقتصادى والحضارى ، كما صنعت ذلك ، من قبل ، بالفتوحات التى أعقبت ظهور الإسلام ! ..

وهكذا تلاحمت الدائرة العربية بالدائرة الإسلامية . وبرز للعقل الواعى : إفضاء « المشروع القومى العربى » إلى « الدائرة الإسلامية » . وارتباط « الدائرة الإسلامية » بالمشروع « القومى العربى » . والعلاقة الوثيقة بين « العروبة » و « الإسلام » ! ..

● ولقد كان طبيعيا أن يتصدى الغرب الاستعماري - وحضارته العدوانية

الاستعمارية للمشروع الحضارى « العربى - الإسلامى » . الذى يريد أن يفسد مقولة الغرب الاستغزائية التى ترغم أن حضارته هى الحضارة « الإنسانية » . وأن على كل الأمم أن تتخلى عن موارثها الحضارية وخصائصها القومية . وتتحول إلى كيانات حضارية تابعة للغرب . وإلى « هوامش » للحضارة الغربية ... لقد نهضت دوائر الفكر الاستعماري في الغرب . لتشن حملتها الضارية ضد بؤادر مشروعنا الحضارى الخاص . مدافعة عن ما يمكن أن نسميه « الاستعمار الاستيطاني الحضارى » . كما تدافع جيوش الغرب وشركاته عن « الاستعمار الاستيطاني » المتمثل في الكيانات العنصرية . والقواعد العسكرية . والنهب الاقتصادي لثروات البلاد التابعة للمركز الغربى ! ..

وفي خضم هذا الصراع الحضارى .. بدأت وبرزت « الظاهرة المقلقة » للدكتور لويس عوض ! .. ففي تلك الحقبة . على وجه التحديد . بدأ الرجل يتخطى نطاق اختصاصه وتخصصه - النقد الأدبى - ويتقدم إلى قرائه « مفكرا » بوجه سهامه إلى لب المشروع الحضارى الخاص للأمة .. إلى « العروبة » و « الإسلام » ؟ ! ..

● فبينما الأمة تسعى إلى بلورة ملامح مشروعها الحضارى « المتميز » - ولا نقول المعادى ولا المنغلق - عن الحضارة الغربية - وخاصة في جوانبها الاستعمارية وروحها المادية - بينما الأمة تسعى على هذا الدرب . برزت أهمية تجديد الصلات بين « الحاضر » وبين « التراث » . وضرورة تأسيس المشروع الحضارى الجديد على « الثوابت » و « القيم » و « القسائم الحضارية » التى هى بمثابة « البصمة » المميزة لأمتنا عبر تاريخها الطويل . والتى لا تزال صالحة للعطاء الذى يمثل طاقة خلاقة في التقدم والنهوض ...

وهنا .. تقدم الدكتور لويس . في صورة « مؤرخ الفكر » ليقول في كتابه [تاريخ الفكر المصري الحديث] : إنه لا علاقة بين مصر الحديثة وبين التراث العربي الإسلامي . فكل ما في مصر الحديثة من إيجابيات . وجميع ما عرفته من مظاهر الحرية والديمقراطية . إن في « الفكر » أو في « التنظيم » . إنما هو أثر من آثار الحملة الفرنسية عليها سنة ١٧٩٨ م .. حتى يمكن تلخيص كتابه هذا في كلمات تقول : « إن مصر الحديثة هي هبة بونابرت » ؟ ! ..

وبالطبع . فليس المقام الآن خاصا بتنفيذ دعوى الدكتور لويس . التي ترمى إلى عزل حاضر الأمة عن تراثها « العربي - الإسلامي » .. فقط نريد أن نسأله - وهو الذي قرأ « الجبرتي » - : ألم تقرأ ذلك الحوار الذي دار بين عمر مكرم [١١٦٨ - ١٢٣٧ هـ - ١٧٥٥ - ١٨٢٢ م] وبين الضابط الأرثوذكسي « عمر بك » . أثناء حصار الشعب المصري . بزعامة عمر مكرم . للوالي العثماني خورشيد باشا . في القلعة . في سنة ١٩٠٥ م ؟ ..

لقد دار هذا الحوار . الذي بدأه الضابط الأرثوذكسي . على النحو التالي :

عمر بك : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم . وقد قال الله تعالى : [أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم] ^(١) .

السيد عمر مكرم : أولو الأمر : العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . وهذا - [خورشيد باشا] - رجل ظالم . وجرت العادة ، من قديم الزمان ، أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان ، إذا سار فيها بالجور ، فإنهم يعزلونه ويخلعونهم ! .

(١) النساء : ٥٩ .

عمر بك : وكيف نحصروننا . وتمنعون عنا الماء والأكل ،
وتقاتلوننا ؟ ! .. نحن كفرة ، حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ ! ..

السيد عمر مكرم : نعم ! .. لقد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم
ومحاربتكم ، لأنكم عصاة ^(٢) » ! ..

نسأل الدكتور لويس عن دلالة هذا الحوار ، الذى هو جزء من فكرية
أولى الثورات الدستورية فى حياة مصر الحديثة .. أكانت حملة بونايرت هى
مصدره ؟ .. أم أن تراث الأمة وشريعتها الإسلامية كانت الخلفية الفكرية
التي تعلم منها عمر مكرم حق الأمة - « أهل البلد » - فى عزل الولاة ، بل
والخليفة والسلطان ، لأن الأمة هى مصدر السلطات ، والظالمون الجاثرون
من هؤلاء هم « عصاة » للأمة ، عليها أن تقاتلهم ، لأنهم كفروا بشرعية
العدل والإنصاف ! ...

هل كانت مصر الحديثة هنا منبئة الصلة بتراتها الإسلامى ؟ .. تبدأ من
حيث انتهت الثورة الفرنسية ، ورسوها نابليون ؟ ! ..

● وفى ذات كتاب الدكتور لويس - [تاريخ الفكر المصرى الحديث] -
يريد أن يعلم قراءه أن « استقلال مصر » ليس هو « استقلالها عن الغرب
الاستعمارى » ، بل هو « استقلالها عن ماضيها وتراثها » ، وفك الارتباط بينها
وبين المحيط الإسلامى الأوسع « حتى ولو كان فى ذلك » تبعيتها للغرب
الاستعمارى » ، فى السياسة والحضارة والاقتصاد !! ..

فعنده أن أول مشروع لاستقلال مصر هو ذلك الذى وضعه « المعلم

(٢) الجيرقى [عجائب الآثار] ج ٦ ص ٢٢٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

يعقوب « [١٧٤٥ - ١٨٠١ م] .. والمعلم يعقوب هذا أفاق ، خرج على إجماع الأمة ، إبان الحملة الفرنسية على مصر ، وخان الشعب ، أقباطا ومسلمين ، وكون فرقة من أراذل الأقباط . الذين نبذتهم حتى طائفهم . وأصبحوا سوط القمع الفرنسي والنهب اليوناني لمصر الثائرة على الاحتلال .. حتى لقد منح الفرنسيون ليعقوب هذا لقب « جنرال » . وعينوه « قائمقام سارى عسكر الفرنسيين » ! .. وهو الذى يسميه « الجبرتي » . فى كتابه [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين] - « يعقوب اللعين » ! .

« يعقوب اللعين » هذا ، هو - عند الدكتور لويس - صاحب المشروع الاستقلالى الأول لمصر .. فإذا بحثنا عن ملامح هذا المشروع - كما أوردها الدكتور لويس ، من خلال « هذيان » يعقوب اللعين ، أثناء احتضاره على ظهر السفينة الانجليزية - « الفرقاطة بالاس » - التى أفلته مع الخونة الذين جلوا عن مصر فى ركاب جنود الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١ م .. وهو « الهذيان » الذى ترجمه رجل « مصاب - [باعتراف الدكتور لويس] - بنوع من الهوس » يدعى « لاسكاريس » .. ودونه قبطان السفينة « جوزيف آدموندز » ... إذا بحثنا عن ملامح « مشروع الاستقلال الأول » هذا ، من خلال هذا « الهذيان » - الذى وصفه الدكتور لويس بـ « الوثائق » ؟ ! - فسنجد هذا « الاستقلال » :

- ١ - استقلال مصر عن الدائرة الإسلامية .. التى كانت تمثل ، يومئذ ، فى الدولة العثمانية ..
- ٢ - وخضوع مصر « المستقلة » هذه « لتأثير إنجلترا ، التى تملك ناصية البحار

المحيطة بمصر .. إذ « من المستحيل على إنجلترا أن تمتلك مصر امتلاكها
لمستعمرة » ..

٣ - حماية استقلال مصر عن الدائرة الإسلامية . وتأمين إخضاعها « لتأثير
إنجلترا » « بوجود قوة أجنبية مرتزقة في مصر قوامها بين ١٢ ألفا و ١٥
ألف جندي .. » تتحمل مصر نفقاتها ! .. فصر في حاجة إلى « قوة
قاهرة تحكم حياة قوم وادعين جهلاء » ؟ ! ..

ثم يمضى « يعقوب اللعين » . في مشروعه . ممعنا في إغراء إنجلترا
بالسيطرة على مصر . فيقول : « إن الامبراطورية العثمانية توشك أن تتداعى
من كل جانب . ولذا فن المهم للإنجليز أن يلتصقوا الوسائل المضمونة
للاستفادة من عهد تمزقها التاريخي بأنسب طريقة تحقق مصالحهم السياسية
المستقبلية .. إن بريطانيا العظمى ليست بحاجة إلى امتلاك مصر كمستعمرة .
لأنها مستأثر دائما بالتجارة معها . نتيجة طبيعية لتفوقها البحرى . فهي
سنؤثر إذن في مصر باختيارها » ؟ ! ..

إنه « استقلال » عن الدائرة الإسلامية .. وخضوع « اختياري » -
[ومع ذلك فهو بقوة أجنبية . مرتزقة . قاهرة] - للغرب الاستعماري .
التمثل . يومئذ . في بريطانيا العظمى ؟ ! ..

ذلك هو مشروع « الاستقلال الأول » لمصر . الذى وضعه « المعلم
يعقوب » . والذى لأجله وضع الدكتور لويس « معلمه » يعقوب هذا في
مصاف الأبطال . أبطال الاستقلال الوطنى . فكتب يقول (٣) : « إن

(٣) د . لويس عوض [تاريخ الفكر المصرى الحديث] ج ١ ص ١٨٣ . ١٨٤ . ١٨٦ .

١٩٤ . ١٩٧ . ٢٠٩ . طبعة دار الهلال . القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

الحكم التاريخي الموضوعي يقول : إن الجبرال يعقوب . ومحمد علي . وكل قائد أو زعيم شارك بجهد في الكفاح من أجل استقلال البلاد . من علي بك الكبير إلى جمال عبد الناصر . كانوا مجرد أدوات في يد هذا الشعب العظيم . ونعبروا عن إرادته لتحقيق استقلال مصر . ولتثبيت هذا الاستقلال « ١١٤ » .

هنا يريد الدكتور لويس خلط الأمور والأوراق على القراء . . فعلى بك الكبير ومحمد علي كانوا قادة - كل في وقته وملابساته - لتسرع استقلال المنطقة بأسرها - وليس « استقلال » مصر . الذي يعنى عزلها عن المحيط الأوسع من إقليمها - والعدو الرئيسي كان الغرب الاستعماري . . وما التناقض بينهم وبين السلطان العثماني إلا لما رأوه من ضعفه الذي أفضى ويفضى إلى ازدياد خطر الاستعمار الغربي . فصراعهم مع العثمانيين يأتي في إطار محاولات إصلاح وتجديد الرباط الذي ينظم أقاليم العروبة والإسلام في الشكل الذي يحقق فاعليتها تجاه التحدي الاستعماري . إنه « صراع » في إطار « الوحدة » - لمواجهة الخطر الرئيسي . وهو الغرب الاستعماري . .

كذلك لم يكن عبد الناصر داعية للاستقلال الذي يعزل مصر عن محيطها العربي وعالمها الإسلامي . . فشروعه القومي غنى عن تفصيل الحديث ! . . فكيف . إذن . يتسنى للدكتور لويس عوض أن يصنف الدعوة لعزل مصر عن محيطها الإسلامي . وإخضاعها لالجلترا . بين مشاريع « الاستقلال » . . بل ويقول عنه : إنه « مشروع الاستقلال الأول » « ١١٥ » . وكيف يتسنى للرجل أن يضع الخائن « يعقوب اللعين » في زمرة القادة والزعماء الذين كانوا « أداة هذا الشعب العظيم . المعبرين عن إرادته » . من مثل علي بك الكبير . ومحمد علي . وجمال عبد الناصر « ١١٦ » .

كيف يتسنى للدكتور لويس « قبيض » الصفحة « السوداء » للمعلم يعقوب ؟ ! .. اللهم إلا إذا كان يريد أن يوهم قراءه أنه . مع دعوته لعزل مصر عن محيطها العربي - من الناحية القومية - وماتطرحه من خيارات وحدوية - .. ومع دعوته لفك الارتباط بين مستقبل مصر وبين تراثها الإسلامي . وشعوب أمتها الإسلامية . واستبدال الحضارة الغربية بالتمدن الإسلامي . أي عزل مصر عن محيطها وعن تراثها . مع إخضاعها للغرب - خصوصاً حضارياً اختياريًا - .. يريد الدكتور لويس أن يوهم قراءه أنه - كمعلمه يعقوب - رغم هذه الدعوة - بل وبسببها - واحد من دعاة « استقلال » ؟ ! .. وليس كما يقول خصومه واحداً من رموز « التبعية الحضارية » . كما كان المعلم يعقوب رائداً « للتبعية السياسية والاقتصادية » للغرب . المتمثل في إنجلترا في ذلك التاريخ ؟ ! .. إنها محاولة « لتأصيل » دعوة الدكتور لويس . فيها الكثير من الإسقاط على الذات !

● وفي إطار السعي لعزل الأمة عن تراثها الحضاري . تأفى الجهود التي بذلتها وتبذلها حركة الاستشراق - وخاصة قطاعاتها التي تشكلت في « إيداع » العرب الحضاري - .. لأن الهدف هنا هو تجريد « الفريسة » من « الخلد التاريخي » . كي تستسلم « للتغريب » . إذ يصبح التغريب . بالنسبة للحاضر والمستقبل . هو « الخيار الوحيد » . طالما أن تراثنا لا يشير علينا بخيار بديل « ١ » ..

وعلى هذا الدرب كانت دراسة الدكتور لويس عوض [على هامش الغفران] .. تلك التي كتبها سنة ١٩٦٤ م . لتكون حلقة في سلسلة التشكيك بأصالة التراث العربي . من خلال التشكيك بأصالة فكر أبي العلاء المعري [٣٦٣ - ٤٤٩ هـ ٩٧٣ - ١٠٥٧ م] وفلسفته .. وذلك عن

طريق إيهام القراء أن المعري - وهو الصفحة البارزة في تراثنا الأدبي والفكري - لم يكن إلا صدى لرهبان بيزنطة ، وتلميذا لأدبرتهم - وطبعة لتراث الغرب الحضارى ، الذى أبدعه اليونان ١٩ .

فهى ، إذن ، جهد موظف « لترغ سلاح الأمة » ، إبان سعيها - في ستينات هذا القرن - خلف قيادة عبد الناصر ، لبلورة مشروعها الحضارى الخاص والمستقل عن التبعية الحضارية للغرب الاستعمارى ١٩ !

● ولقد كان الدكتور لويس عوض فى مطلع حياته الفكرية أكثر « جرأة » وأقل « دبلوماسية » مما هو عليه الآن ! ..

فى الغرب تعلم ، مع الأدب الانجليزى ، الكراهية والعداء للغة العربية ، تلك التى تربط مصر بمحيطها العربى وتراثها الإسلامى ، والتى تمثل رابطة قومية أضفى عليها القرآن طابع القداسة والخلود ... فقرر الدكتور لويس أن يسير على الدرب الذى ارتاده ، فى القرن التاسع عشر ، المستشرق الانجليزى الاستعمارى السير « وليم ويلكوكس » ، ذلك الذى تزعم الدعوة للمتحلى عن العربية .. وكتب : « إن دراسة العربية الفصحى مضیعة للوقت ، وموتها محقق كما ماتت اللاتينية » ! ..

لكن الدكتور لويس تعلم ، أيضا ، أن استبدال الحرف اللاتينى بالحرف العربى - على النحو الذى دعا إليه عبد العزيز فهمى باشا [١٢٨٧ - ١٣٧٠ هـ ١٨٧٠ - ١٩٤٨ م] لم يكن أكثر من صیحة تبدد صداها فى المحيط العربى والانتماء الإسلامى لمصر .. بل ربما كانت هذه الصیحة عاملا من العوامل التى استغزت الحس العربى واستنفرت الضمیر الإسلامى ، فى مصر ، كى يعى هول ما يديره له الأعداء ١٩ ! .. فلم يدع الدكتور لويس

إلى كتابة العربية بالحرف اللاتيني . وإنما دعا إلى تحطيمها كلية . ولكن عن طريق مألوف للناس أكثر من اللاتينية . عن طريق استخدام « العامية » بدلاً من « الفصحى » . ولما كان لكل إقليم عربي « عاميته » . فإن « العامية » ستصبح الطريق لعزل مصر عن محيطها العربي . وعزها كذلك عن تراثها واتصالها الإسلامي ! . فكتب الدكتور لويس في مقدمة كتابه [بلوتولاند] - الذي ضمنه ما أسماه شعراً نظمته بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٠ م - كتب يقول : « إنه قد غاهد الثلوج الغريبة . في خلوة مشهودة . بين أشجار الدردار . عند الشلال . بكامبريدج . ألا يخط كلمة واحدة إلا باللغة المصرية » (العامية) ؟ ! .

ورغم أن الدكتور لويس قد عجز عن الوفاء بعهده هذا . ولم يستطع النهوض بتبعات « المهمة » التي عاهد بها من الغرب . فاضطر - في المحيط العربي الإسلامي . الذي حكم عليه القدر بالنشأة والحياة فيه - إلى الكتابة بالعربية الفصحى . إلا أنه لم يتخل عن عداوته للعربية . فكتب في كتابه [مذكرات طالب بعثة] سنة ١٩٤٢ م . يصف العربية بأنها « أغلال » يجب تحطيمها ؟ ! . كتب يقول : « إنه مامن بلد حي إلا وشبت فيه ثورة أدبية هدفها تحطيم لغة السادة المقدسة . وإقرار لغة الشعب العامية . أو الدارجة . أو المنحطة . . أما في مصر . فقد ناز كثيرون على اللغة المقدسة . بعضهم داخل النطاق النظري كلطفي السيد . وبعضهم بصورة عملية . كبيرم التونسي . شاعر مصر الأول ؟ ! . ولكن ثورتهم لم تكن بالثورة الفعالة . لأن العبيد لم ينضجوا بعد لتحطيم أغلالهم . ورغم ذلك فتحى نحنى لهم . ولسوف ينجيئون العالق في مستقبل الأيام ؟ ! .

فلما جاءت الستينات . حقبة المد القومي العربي . الذي فتح الطريق

أمام الخيار الإسلامي . أدرك الدكتور لويس - ومن يتفق معهم في التوجه
الفكري - أن جذبة المخاطر على « الخيار التغريبي » . تحتاج إلى « الثورة
الفعالة » التي يقوم بها « العاقلة » . لتحطيم اللغة العربية . فإذا بالرجل .
رغم قلة بضاعته في العربية وعلومها - يكتب في حقبة السنين كتابه
[مقدمة في فقه اللغة العربية] - الذي لم ير النور إلا في سنة ١٩٨٠ م !

وكما أراد بدراسته [على هامش الغفران] أن ينزع من الأمة « سلاح
الثقة بالتراث » فلقد أراد بكتابه [مقدمة في فقه اللغة العربية] أن ينزع من
الأمة « سلاح الثقة في اللغة التي كتب بها هذا التراث » ! . فتراثها غير
أصيل . وكذلك لغتها . فقيم . إذن . الحديث عن المشروع الحضاري
الخاص . إذا كان مالدركم . إن في الشكل أو المضمون . هو أثر من آثار
الغرب ؟ ! ... ولماذا - إذن . مقاومة « الخيار التغريبي » - وهو - كما نرون -
« الخيار الوحيد » - فليس لديكم - في الحقيقة - بديل ؟ ! ...

● فلما انتقل عبد الناصر - قائد المشروع القومي العربي - ورمزه - إلى
رحاب ربه سنة ١٩٧٠ م . ظن أعداء هذا المشروع أن الفرصة قد سحبت
- خصوصا في ظلال آثار هزيمة سنة ١٩٦٧ م - للأجهاز على « بقايا » هذا
المشروع . وهنا . كان للدكتور لويس عوض دور يؤديه ؟ !

فالرجل قد أسهم في إهالة التراث على « الناصرية » بكتابه [أفعمة
الناصرية] - الذي استهل به نشاطه الموصول - على هذا الدرب . في حقبة
السبعينات . . .

فلما كانت زيارة الرئيس السادات للقدس سنة ١٩٧٧ م . وخرجت من
جحورها تلك الأصوات التي دعت إلى عزلة مصر عن محيطها العربي وعلمها

الإسلامي ، وإلى استبدال « التطبيع » مع الكيان الصهيوني -
 « المنحصر » ، لأنه غربي ؟ ! - استبدال « التطبيع » معه بالرباط الذي يشد
 مصر إلى العروبة والإسلام . لأنه - كما كتب أحدهم يومئذ - : « غدو عاقل
 خير من صديق جاهل » ؟ ! - لما كان ذلك « المتعطف » . الذي دفع
 المنطقة بأسرها إلى « منحدر » . نشهد اليوم مخاطر وآثاره . تقدم الدكتور
 لويس عوض لينفض بنصيبه في الإجهاز على « بقايا » المشروع القومي
 العربي . فكان إسهامه في الهجوم على « عروبة مصر » . بمقالاته في
 [الأهرام] - ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ سنة ١٩٧٨ م وفي [السياسة
 الدولية] - أكتوبر سنة ١٩٧٨ م - تلك المقالات التي رمت فيها العروبة
 والقومية العربية بكل نقیصة . من مثل أنها « عرقية » و « عنصرية »
 و « فاشية » ولا تعدو أن تكون « أسطورة من الأساطير » ؟ ! ..

● لكن بال الدكتور لويس عوض ثم يهنا بما لاح يومئذ من هزيمة
 للمشروع القومي العربي - ذلك أن مظاهر هذه الهزيمة . والاستفزاز الذي
 جسده دعوات الدكتور لويس ومن يتفق معهم في التوجه . قد استفرت
 الحس الإسلامي إلى درجة « الغضب » ! .. فانتشرت مظاهر « الصحوة
 الإسلامية » - رغم شوائب تشوب بعض فصائلها - وغدت الدعوة إلى
 الإحياء الإسلامي . وتأسيس المشروع الحضاري الخاص على أسس
 « التمدن الإسلامي » . غدت هذه الدعوة أبرز ظواهر العصر وأخطرها .
 فهي - موضوعيا - وعند الذين يعون حقيقتها - تختص كل إيجابيات المشروع
 القومي العربي . ثم تمتد نطاقه إلى كل بلاد الإسلام وشعوبه . فتشمل الشرق
 المستضعف بأسره . وتسمى جاهدة للتمايز الحضاري عن حضارة الغرب
 المادية العدوانية ..

لم يهتأ بال أعداء هذه الأمة . بما حسبه تراجعاً . فلخطر الناصري .
لأن عدوهم الأول . والأساسي - وهو . الخطر الإسلامي - قد استقطب
الشارع الإسلامي . . ثم بدت نذره الأولى في ثورة إيران سنة ١٩٧٩ م .
وبينا كانت دوائر الاستشراق ومراكز البحث . التي « تشير » على صانع
القرار في بلاد الحضارة الغربية . تسعى . محمومة . لجمع المعلومات عن المد
الإسلامي . وفصائله . وعن موقفه من الغرب ومصالحه . وعن الآفاق
المستقبلية التي يمد إليها البصر والبصيرة . . انطلقت من هذه الدوائر حملة
منظمة . ومدرسة . ومناصلة الجهود . ومتعددة الصور . لتثويه هذا
المد الإسلامي . من الخارج ومن الداخل . بواسطة السهام التي توجه إليه .
وعن طريق الشراك التي تصيد بعض رموزه ١١ .

لقد عقدت لهذه « المهمة التاريخية » ندوات ومؤتمرات وحلقات
بحث . وكتبت الكثير من التقارير . ونشرت كتب عديدة . . ولا زال العمل
قائماً على قدم وساق في هذا المضمار . . ولقد كان للدكتور لويس عوض
نصيبه الذي أعد له في هذا النشاط ! . . « قصة الإحياء الإسلامي » .
و « الجامعة الإسلامية » . و « المشروع الحضاري الخاص » . المؤسس على
التمدد الإسلامي . . هذه القصة . التي تقص أحداثها الراهنة مضاجع
الغرب الاستعماري هذه الأيام . قد بدأها منذ قرابة القرن والنصف رجل
اسمه جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] . .
فليكن نصيب الدكتور لويس عوض في الحرب ضد هذه « الظاهرة » تشويه
سيرة الرجل الذي بدأ هذه المسيرة . التي تهدد حلم الغرب بالسيادة الأبدية -
عن طريق الفكر - على وطن العروبة وعالم الإسلام ؟ !

أما كيف تم ذلك ؟ . فلقد جمعت جامعة « لوس أنجلوس » الأمريكية

للدكتور لويس عوض أوراقا - سماها « وثائق » - أغلبها « تقارير » جواسيس
ومخبرين رسميين كانوا يعملون لحساب الاستعماريين الانجليزى والفرنسى !
وبعضها « ملفات » أنشأتها أجهزة المباحث فى إنجلترا وفرنسا . لتجمع فيها
المعلومات عن عدو الاستعمار جمال الدين الأفغانى ! .. وبعضها كتب
استندت إلى هذه « التقارير » و « الملفات » . كتبها صهاينة . ومستشرقون
من أشباه الصهاينة . ممن تجمعهم مشاعر ومصالح العداء للحد الإسلامى
و « الخيار الإسلامى » . ثم نشروها ما بين لندن وباريس وتل أبيب ... لقد
للممت جامعة « لوس انجليس » هذه « التقارير » و « الملفات » المباحثية .
وكذلك الكتب التى استندت إليها . لكتاب من أمثال : « جاكوب -
[يعقوب] - لاندو » . و « إيلي كدورى » . و « هوما باكدامان »
و « نيكى كيدى » . و « البرت قدسى زاده » . الخ . ثم دعت هذه
الجامعة الدكتور لويس عوض . ووضعت بين يديه هذه الأوراق . فلما فتح
الرجل هذه « الملفات » خيل إليه أنه « فاتح » حقا ؟ ! فكتب لنا عن جمال
الدين الأفغانى « دراسة » بلغت صفحاتها - على الآلة الكاتبة - مائتين
وثلاثين صفحة . فرغ منها - كما أخبرنا فى ختامها - « بلوس انجليس » فى « ٦
يناير سنة ١٩٧٥ م » . ٤ !

وعندما نعد نشر هذه « الدراسة » بمصر . نشرها الدكتور لويس فى
لندن ؟ ! . وجعل عنوانها : « الأبرار الغامض فى مصر » ؟ ! . - نشرها
مجلة [التضامن] فى سبعة عشر عددا .

لقد قال الدكتور لويس عوض فى « دراسته » هذه . إنه - ومعه
الجواسيس وكتاب الاستشراق . الصهاينة وأشباه الصهاينة . الذين استند
إلى أوراقهم - إنما يفتحون « ملف » جمال الدين الأفغانى . من جديد ! ..

ولم يدرك الرجل أن « فتحة » و « فتوحات » الذين عمل معهم ولهم - لم يكن
إلا « فتحة » الملفات « المباحث » و « دوائر الأمن والاستخبارات » في أجهزة
الحكومات الاستعمارية !! ..

أما كيف كان ذلك ؟ .. ولماذا كان ؟ .. فهو موضوع الحديث بعد هذا
« التمهيد » ؟ ! .. نعم إنه مجرد « تمهيد » عن [قصة المخطوط .. وأبعاده ..
ومراميه] !

الدوافع . . والمنطلقات

لكن . . لماذا اختار الدكتور لويس عوض معسكر الماثوليين المعروفة القومية والسياسية . وللإحياء الإسلامى . وصيغ المشروع الحضارى المأمول بالصيغة الإسلامية . وتأسيسه على قواعد القنن الإسلامى ؟

إن البعض يقطع بأن مرجع ذلك هو « تعصبه للمسيحية » ضد « الإسلام » ! لكنى لست مع هذا البعض فى هذا التفسير !!

إنه تفسير سهل ميسور . وقد نكون عليه بعض الشواهد والقرائن . بل والحيثيات . ثم إنه نهائى وقاطع . يريج الذين يجتارونه من عناء الحوار مع الأفكار التى يطرحها الدكتور لويس . وليس هذا فى رأى هو المطلوب !

إن المطلوب ليس هو « إدانة » من تختلف معهم فى الرأى . ولا تصنيفهم بوضعهم فى « الخانات » الجاهزة التقليدية . وإنما المطلوب هو إقامة أوسع دائرة من الحوار مع الأفكار التى يطرحونها . حتى ولو كان إقناعهم أمرا بعيد الحدوث . أو مستحيلة . كما يرى البعض فى « حالة » الدكتور لويس ! فالحوار المطلوب . أساسا . من أجل القراء الذين يفتنع فريق منهم بما يطرح الدكتور لويس من آراء !

ثم إن الدكتور لويس ليس أول من شهر حرباً ظالمة ضد جمال الدين الأفغاني . فقد تعرض الأفغاني لسهام الخصوم منذ بدأ الدعوة إلى إيقاظ الشرق وتجديد « دنياه » بواسطة تجديد « الدين » . ولقد ضم موكب الخصوم هذا أغلبية من المسلمين وقليلاً من غير المسلمين !^{١٩} . بل لقد يدهش البعض إذا علم أن التيار « السلفي - النصوصي » وجميع أسرى الشعوذة والحرافة . وخصوم « العقلانية » . في صفوف الإسلاميين . يناصبون جمال الدين ودعوته عداً لا يقل عن عداً الدكتور لويس . رغم اختلاف المنطلقات . وتباين الغايات !... وفي حدود علمي فإن هناك رسالة جامعية أجهزت في الستينات من هذا القرن تدين الأفغاني بالعمالة للاستعمار . ليس « الاستعمار العثماني » . كما هو اتهام الدكتور لويس للأفغاني . وإنما الاستعمار الغربي . الذي ينهم صاحب الرسالة الأفغاني بالعمالة له . لأنه - في رأيه - هو الذي قوض دعائم الدولة العثمانية بدعوته إلى التجديد !^{٢٠}

ثم إن كل « العلمانيين » - ومنهم مسلمون يؤدون شعائر الإسلام بإخلاص وفي خشوع - ينفون من دعوة الأفغاني إلى تأسيس اتحادين الحديث على أسس إسلامية موقف الرفض أو العدا . وكذلك يفعل « الأتقيميون » . الذين يريدون لمصر أن تقف بهمومها واهتماماتها عند حدودها الجغرافية الوطنية . كإقليم !

فليس الدكتور لويس عوض بدعاً في عدايته لما دعا إليه الأفغاني من آراء . ومن ثم فالحوار ضروري ومطلوب حتى ولو كان إقناع الدكتور لويس هو ضرب من ضروب المستحيل !

وحتى نتبين ونحدد القضايا التي يجب أن يدور حولها الحوار . لا بد من الوعي بحقيقة الدوافع والمنطلقات التي حركت الآخرين إلى تبني الآراء

والأفكار التي ترفضها . وتتناولها بالتوضيح والتقد والتشديد . ومن هنا تأتي أهمية استكشاف دوافع الدكتور لويس للهجوم على استقلالية الأمة العربية بشروع حضارى متميز عن الحضارة الغربية . وعندائه لصيغ هذا المشروع الحضارى المستقل بصيغة الإسلام .

وكما سبقت الإشارة . فأنا لست مع الذين يجعلون ندب الدكتور لويس بالمسيحية السبب الأول في خياره الفكرى هذا . فالرجل - كما يعرف القريبون منه - والمتابعون لأحاديثه وكتابات - ليس - من الناحية الروحية - الاى البار للمسيحية ولا للكنيسة القبطية - بل إن آراءه في المسيح والمسيحية جعلته موضع غضب المسيحيين المتدينين ! - وفي صحيفة (الأخبار) - بتاريخ ١٩٨٣، ٩، ٢١ م - كتب كاتب فاضل من الأصدقاء المسيحيين - بل ومن يتعاطفون مع كثير من آراء الدكتور لويس - كتب عن رأى الدكتور لويس في المسيح . عليه السلام . فإذا هو رأى أدخل في نطاقه الهرطقة واليهاب . وأبعد ما يكون عن التدبيل بالمسيحية كما يعرفها المسيحيون المتدينون !

تم من من المسيحيين بظمان قلبه لما كتبه الدكتور لويس . في « دراسته » عن جمال الدين الأفغانى . عن المسيحية . وقوله : « إن الشيوعية هي أقرب التخرجات إلى روح المسيحية »^{١١} !

بل كيف يكون « التدبيل » بالمسيحية هو دافع الدكتور لويس ومطلقته . ونحن نراه يفضل « الاسلام » على « المسيحية » . فيقول - عند حديثه عن أن « أديان التوحيد الثلاثة . اليهودية والمسيحية والاسلام . تنمى . في كل

(١) ص ١٨٣ من أصل « الدراسة » . ولقد رجعنا إلى أصل الدراسة . كما رجعنا إلى حلقته الشورة في مجلة (التماس) .

تحليل نهائي . إلى يلبوع ميتافيزيقي واحد ينبثق من مبدأ ازدواج الفكر والمادة وأسبغية الفكر على المادة في الزمان والمكان . وكلية الفكر وجزئية المادة في سائر الصفات والأسماء والأفعال . « يقول الدكتور لويس . « الاسلام » على « المسيحية » : « ولا شك أن روح الاسلام أقرب إلى الهيومانزم - [الانسانية] - والعقلانية من روح المسيحية ذات الازدواج التام والأسرار الكثيرة . لأن الله في الاسلام لا يحور تماما على مكان الانسان . ولأن الروح في الاسلام لا تسحق المادة سحقا فريعا . ولأن الآخرة في الاسلام - رغم أنها خير من الأولى - لا تلغيها تماما من الوجود . كما هو الحال في المسيحية . » (٢) !

والأمر الذي لا شك فيه هو أن هذا النص الهام يرضى المتدينين بالاسلام بالتقدير الذي يغضب المتدينين بالمسيحية ١٤ . الأمر الذي يؤكد أن الدكتور لويس . من الناحية الروحية . ليس الابن البار للمسيحية وكنيستها ١٥ . كذلك . ليس التعصب « القبطية » المسيحية . بالمعنى الروحي هو دافع الدكتور لويس إلى العداء لأسلمة المشروع الحضاري للأمة . « القبطية » عند الرجل . « عنصر » أكثر منها « دين » . وهي عنده تساوي « المصرية » إذا جردت من العروبة القومية والسياسية - بل والثقافية إذا أمكن ذلك ١٦ - وإذا هي جردت كذلك من الاسلام السياسي والحضاري . إن الدكتور لويس ليس ضد أن تتدين أغلبية الشعب في مصر بديانة الإسلام . ولكنه ضد صبغ الحضارة في مصر بصبغة الاسلام . ومن هنا فإن عداءه ليس موجها إلى « الدين التقليدي » . القابع في المساجد والزوايا والتكايا . ولكنه موجه ضد « التجديد الديني » . الذي يجعل

(٢) ص ١٨٣ من أصل « الدراسة » .

الاسلام ديناً وحضارة . عقيدة وقانوناً . ومن هنا كانت سهامه موجهة إلى رائد التجديد الديني في عصرنا الحديث . جمال الدين الأفغاني . وليست موجهة إلى رموز الجمود في الدولة العثمانية . بل لقد اتفق الرجل مع مشيخة الاسلام العثمانية - وهي القمة في الجمود والتخلف - وتبنى دعاواها واتهاماتها لجمال الدين الأفغاني ١٢ .

وإلى الذين يتطلعون إلى مزيد من « الوقائع » الشاهدة على صدق هذه الحقيقة أقول :

● لقد تحدث إليّ الدكتور لويس - منذ سنوات - بمكتبه بـ [الأزهر] . في معرض التفويم لما قدمته للمكتبة العربية والاسلامية من أعمال فكرية في إطار : « تجديد ديناً المسلمين بتجديد فكرهم الديني » . تحدث إليّ حديثاً فيه الكثير من الثناء والتقدير . لكن عبارات من حديثه أثارت فيّ من الانتباه ما لم تثر عبارات الثناء والتقدير . لقد قال لي : « إن جهودك عظيمة . لكنها خطيرة . وضارة !! »

فلما أبديت تعجبي ودهشتي . وطلبت المزيد من الإيضاح . قال الرجل : « إن تجديد الدين بحية . ويطيل عمره . أما تركه في صورته التقليدية التي هو عليها عند المؤسسات المحافظة . فهو الذي سيجعل نموته وهذا هو المطلوب . » ١٣ .

فعداء الرجل هو « للتجديد الديني » - [وليت أهل الجمود يمتنعون ويعون !] - ومن هنا كان تعاطفه - في « دراسته » عن الأفغاني - مع رموز الرجعية العثمانية ضد جمال الدين . رائد التجديد ! .

● وإذا كان « الأزهر » قد غلبت على بعض من قياداته « الفكرية المحافظة » . وإذا كانت « السلطة العثمانية » قد استأنتت بعضاً من قياداته . بالترعيب أو التهيب . فهناك مهمة الحفاظ على الشريعة والعربية

وعنومها . دون أن يتقود الحركة التجديدية التي تمتد بالاسلام إلى صيغ الدولة والتمدين بالصيغة الاسلامية . . . إذا كان الأزهر في بحمله « محافظ » . فإنه - لذلك - ليس موضع سخط الدكتور لويس . أما موضع سخطه فهو « دار العلوم » . تلك التي علق عليها محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩١٥ م] آمالا في لحظات يأسه من تجديد الأزهر فهي - بما استهدف منشؤها من ورائها - الجامعة بين « الأصالة الاسلامية » وبين « المعاصرة » . والمؤسسة « للمعاصرة » على قواعد الاسلام . أو هكذا كان الهدف من وراء إنشائها . وفي ذهن كوكبة من الأعلام الذين خرجوا منها يتقودون حركة تجديد دنيا المسلمين بتجديد دينهم ! .

وعن « دار العلوم » هذه بعد الدكتور لويس دراسة يوحد فيها إليها السهام كما صنع مع جمال الدين الأفغاني ! .

● ورغم ما كتبه الدكتور لويس عن الإمام محمد عبده من إشارات تحمل له التقدير . من مثل قوله في إحدى دراساته ب [الأهرام] منذ سنوات : « إنه أعظم من تكونت من حوله مدرسة في الفكر المصري الحديث » - [لاحظ كلمة المصري . وليس العربي . ولا الاسلامي !] - رغم هذا التقدير المعلن من الدكتور لويس محمد عبده - وهو من أبرز رموز التجديد الديني الحديث . إلا أن عداء الدكتور لويس لتجديد محمد عبده هو أمر كامن ومكنون ! . في لحظة من اللحظات التي تلت فيها « عقد الألسنة » . دفعت « النشوة » الدكتور لويس ليصف محمد عبده بأنه « راسيوني » ! . سمعت ذلك منه . وسمعه معي إخوة وأصدقاء - كان منهم الأستاذ سيد حسن - في فلورنسا . بإيطاليا . وكنا نشارك في ندوة فكرية في السنوات الأولى من عقد السبعينات ! . وفي ذات

الجلسة وصف الدكتور لويس الأفغانى بأنه « جاسوس » . وتساءل : ما الذى جاء به إلى « بلادنا » ١٩ ..

فعداء الرجل ليس للإسلام . كدين . وسهامه ليست موجهة إلى الدوائر أو المؤسسات الإسلامية المحافظة .. لأن وجود الاسلام الشعائرى والمؤسسات الاسلامية التى تدع ما لقيصر لقيصر ومالله لله ، لا يقض مضاجع الدكتور لويس .. أما تيار التجديد الدينى - الذى يحى فعاليات الاسلام . والذى يمتد بصيغته إلى شؤون الدنيا وقضايا العمران والحضارة .. فهو العدو اللدود للدكتور لويس !

ذلك أن الدكتور لويس عوض . وإن لم يكن الابن البار - روحيا - للمسيحية وكنيستها القبطية .. إلا أنه الابن البار للحضارة الغربية وعلمانياتها . والاسلام السياسى والحضارى هو النقيض الذى يسمى . بالتجديد . ليكون البديل - فى بلاد الاسلام - للحضارة الغربية التى جاءت إلى هذه البلاد فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة .. والرجل الذى بدأ التصدى لحركة التغريب . ودافع عن الهوية الحضارية المتميزة للأمة . ودعا إلى تأسيس التمدن الحديث على أسس إسلامية . وقاد تيار اليقظة الاسلامية فى مواجهة الغزوة الاستعمارية وفكرينها .. هذا الرجل هو جمال الدين الافغانى .. ومن هنا كانت سهام التغريب موجهة إليه وإلى ما بشر به من آراء وأفكار .

فالتناقض ليس بين « لويس - المسيحى » وبين « الاسلام - التقليدى » .. وإنما هو بين « لويس - الاقليمى - العلمانى » وبين « المشروع الحضارى الخاص » لهذه الأمة . ذلك المشروع الذى ينهض فيه الاسلام السياسى والحضارى بدور المحور .. والذى تمتد آفاقه - عبر العروبة - إلى كل عالم الاسلام . والدكتور لويس لم يكتب « دراسته » الظالمة لجمال الدين

الأفغانى ليواجه بها ويجرح الثورة الإيرانية - كما حسب بعض الفضلاء الذين انتقدوا « دراسته » - لأن هذه « الدراسة » قد كتبت لمواجهة « الصحوة الإسلامية » . بتشويه رائدها وأبرز رموزها في عصرنا الحديث - وهى قد كتبت قبل قيام الثورة الإيرانية بخمس سنوات - أما توقيت النشر لها - وتوظيفه في الاساءة إلى الثورة الإيرانية - فذلك أمر آخر !



عندما رجع الاستعمار الغربى على وطن العربى وعالم الإسلام . فى القرن التاسع عشر . كانت غزوته الحديثة هذه أكثر من جيوش تحل الأرض . وشركات تهب الثروة . ذلك أن « فكرية التغريب » قد جاءت إلى بلادنا فى ركاب هذه الغزوة الاستعمارية

وكان المتخلف المملوكى - العثمانى - الذى ساد بلادنا لعدة قرون . قد حجب فعالية الإسلام الحصارى ونألق الحضارة الإسلامية عن الأنظار . فكان الطغافى على السطح من موارثنا مثقلا بالشعوذة والخرافة والحمود وهذا هو الذى أفقد هذا الموروث المتخلف « حدة المقارنة والمقارعة والمنافسة لفكرية « التغريب » . التى مثلت رهوة الانحصار للحضارة الأوروبية الحديثة فكان ذلك هو المانع والسبب فى اختيار « الصفة والنخبة » إلى فكرية « التغريب » . واختيارها « الخيار الغربى الحصارى » سبيلا لنهضة الأمة . بل وسلاحا تتصدى به للاستعمار الغربى

أما مؤسسات التعليم التقليدية فلقد جمدها جمهورها عند هذا الموروث المتخلف . وراد من جمودهم الاحساس باغاطر التى يمثلها « الوافد الغربى » على ذاتية الأمة وهويتها الحضارية

هكذا حدث الاستقطاب بين الذين سدكوا للتقدم سبيل الغرب . وبين الذين جمدوا عند فكرية موروث عصر المماليك والعثمانيين

ولقد تمثلت عبقرية جمال الدين الأفغانى : أول ما تمثلت فى رفضه لكلا الخيارين اللذين استقطبا مثقلى الأمة وجمهورها . وفى ارتياده واختياره الطريق الثالث والموقف الثالث . المثل لوسطية الاسلام . والساعى لمحو البديل الحضارى الاسلامى . القادر على منافسة فكرية « التغريب » . والمتجاوز - فى ذات الوقت - للتخلف الموروث ..

لقد كان الجمود عقبة فى طريق « التغريب » . وكانت تلك إيجابيته العظمى ١٤ . لكن عجز الجمود وأهله عن تقديم البديل الحضارى . الذى يستجيب لروح العصر . وينهض لمواجهة تحدياته - كان بمثابة الثغرة التى تفتح السيل . بل والسيل . فى جدار الأمة . لينفذ منها « التغريب » . فى بطاء . ولكن باستمرار ١٥ . فلما جاء تيار التجديد الدينى . الذى تبلور من حول جمال الدين الأفغانى . شعرت الدوائر الاستشراقية و « المتغربون » بخطر الأكبر . لأنه يتزع عن « التغريب » الحدودى والمشروعية . ويقدم البديل الاسلامى الضامن لتقدم الأمة دون أن تنفصل عن موارثها الحضارية - ودون أن تفقد ذاتيتها وهويتها . جاء الأفغانى - ونياره - ليرفض الجمود . والعلمانية . وأن نكون أوروبيين فى الحضارة . وأن نقف فى فهمنا للقومية عند الفهم العلمانى الغربى فما ودعا إلى « الجامعة الاسلامية » وإلى تأسيس النهضة الحديثة على قواعد « التمدن الاسلامى » . وإلى تجديد الدين كسبيل لتجديد الدنيا

وكان هذا المشروع هو التحدى الحقيقى لفكرية « التغريب » . التى رامت عزل أمتنا عن تراثها الحضارى . لتبدأ من حيث انتهى الأوروبيون كما رامت . بالعلمانية . نزع الصبغة الإسلامية عن مؤسسات الدولة وشؤون الإنسان فى حياته الدنيا ..

وهذا هو جذر الخلاف وسبب العداء بين دعوة جمال الدين الأفغانى

وبين دعاة الاقليمية والعزلة والتشردم . وأنصار العلمانية الذين يريدون
لبلائنا أن تصبح . في الحضارة . قطعة من أوروبا - أو . إن شئت الدقة .
هامشا حضاريا لأوروبا . . والدكتور لويس عوض واحد من هؤلاء ١٢ .

إنه - باختصار شديد . وبدقة - الخلاف الجذري بين الدعوة إلى
« الاستقلال الحضارى » . والدعوة إلى « التبعية الحضارية » ١٣ .

ونحن إذا شئنا الأدلة على أن هذا هو جوهر الخلاف . وجدنا الكثير منها
في كلام الدكتور لويس . . وفي فكر جمال الدين .

● ففي رأى الدكتور لويس أن « نقطة الضعف » عند الأفغانى متمثلة في
رفضه « فكر » الحضارة الأوربية و « قيمها » . على حين يقبل « علمها »
وتطبيقات هذا العلم « التكنولوجيا » . على حين يدعو الدكتور لويس إلى
تبني الحضارة الأوربية ككل . إنه رافض للاختيار والتمييز بين ما يلائم أمثنا
وما لا يلائمها . لأن الشرق . عنده . ليس مقولة حضارية متميزة . وإنما
هو مزيج حضارى يجب أن يمثل الحضارة الأوربيين . يقول : « إن نقطة
الضعف في دعوة الأفغانى قيامها على تفنيت وحدة الحضارة . والفصل بين
العلم والفكر . وبين التكنولوجيا والقيم . واعتبار الشرق مقولة حضارية
مكتفية بذاتها » ١٤ . وفي مكان آخر يقول : إن الأفغانى قد ناصر « العلم
والعقل » . وبين في كل مكان أن الدين الإسلامى لا يتعارض مع العلم . بل
على العكس من ذلك يحض عليه حضنا . ولكن الأفغانى يفتت الحضارة
الحديثة إلى شطرين . هما : وجهها المادى . أى العلم والتكنولوجيا .
ووجهها الروحى . أى الفكر والقيم . وهما عنده غير مترابطين . وبالتالي
فالفكر والقيم من عندنا . والعلم والتكنولوجيا من عندهم » ١٥ .

(٣) مجلة [التضامن] العدد ١٦ ص ٦٧

(٤) أصل الدراسة ص ١٨٢

ونحن نقول : إذا كانت هذه « تهمة » فإن الأفغانى يشرف بها . وهى ليست « نقطة الضعف » فى دعوته . بل هى « الجوهر العبرى » فى هذه الدعوة الإسلامية ! .. فقط نسأل :

١ - هل هناك ، حقا ، وحدة فى الحضارة على نطاق العالم ؟ ومن الذى ينكر التمايز الحضارى لدى أمم غريفة كالهند - والصين - واليابان . وبش ذلك الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ؟ إن « التمايز » الحضارى هو نوع من « المغايرة » . وهو يختلف عن « العداء » وعن « الانغلاق » الحضارى . فالتمايز الحضارى ، على النطاق العالمى ، وفى عصرنا الراهن حقيقة موضوعية . لا ينكرها إلا غلاة المتعصبين للحضارة الأوروبية . من أهلها ، الذين أرادوا لها أن تمارس مع الحضارات الأخرى . فى عصر المد الاستعمارى الأوروبى . ما مارسه المستوطنون والمهاجرون الأوربيون مع الهنود الحمر ؟ ... المسخ والتشويه والاقتلاع والنسخ والإجلاء ... وما الزاعمون . فى صفوفنا . أن الحضارة الأوربية هى حضارة العصر الوحيدة ، والحضارة العالمية المفردة إلا « أتباع » هؤلاء الغلاة ! ..

٢ - وأليست دعوة الأفغانى إلى الاستفادة من « علوم » الغرب و« تطبيقاتها » . مع الحفاظ على ما تتميز به حضارتنا وشخصيتها القومية من « فكر » و« فني » . أليست هذه الدعوة هى « القانون » الذى حكمه « التفاعل » والتلائم » بين الحضارات الكبرى عبر التاريخ الحضارى للإنسان ؟

ماذا صنعت اليابان إبان نهضتها ؟ لقد أخذت « علوم » الغرب و« تطبيقاتها » واحتفظت « بفكرها » و« قيمها » . ولا زالت تصنع ذلك حتى الآن ! ..

وماذا صنع العرب والمسلمون عندما انفتحوا على حضارات اليونان
والفرس والهنود ؟ لقد ميزوا بين ما يمكن « تمثله » دون أن يطمس
« الثوابت » الحضارية التي تميز بها الأمة . وبين ما تختص به تلك الأمم من
« قيم » و « مثل » غير مقبولة في المناخ العربي الإسلامي . لقد أخذوا
« العلوم » و « تطبيقاتها » ورفضوا « الميتولوجيا » و « الشيم » و « العقائد » .
وحتى الفلسفة التي ترجموها . نراهم قد « قرأوها قراءة إسلامية » . وأضافوا
إليها نقداً وخلقا وإبداعا . جعلها « فلسفة إسلامية » إلى حد كبير . على
حين ظل « علم الكلام » هو الفلسفة الحقة لحضارة الإسلام !

بل ماذا صنعت أوروبا . وهي تسعى للنهضة . حين تعاملت مع حضارتنا
العربية الإسلامية ؟ لقد أخذت من حضارتنا « العلوم » و « تطبيقاتها » .
وأخذت « المنهج التجريبي » . ثم رقصت « الفكر » و « القيم » . فلم نجد
« للتوحيد » ولا « للوسطية » ولا « للمروح المؤمنة » أثرا في حضارتها الحديثة .
التي ظلت ذات طابع مادي كما كانت منذ جاهلية اليونان !

إن الأوروبيين عندما تعاملوا مع ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ - ١١٢٦ م -
١١٩٨ م] أخذوا منه بضاعتهم - أرسطو - فقط . أما ابن رشد
« المتكلم » و « الفقيه » و صاحب « التوحيد الإسلامي » و « القيم
الإسلامية » . فهو الذي صدرت ضده قرارات التجريم والتحريم . لقد
أخذوا منه « عقلانية أرسطو اليونانية » . التي لا تقم وزنا للموحى والعقل
والمأثورات . على حين رفضوا « عقلانيته الإسلامية » التي آتت ما بين
« الحكمة » و « الشريعة » . ووفقت ما بين « العقل » و « النقل » . حتى
تدببت بها فلسفتنا وتفلسف بها الدين في حضارتنا العربية الإسلامية !

فالتمييز بين ما يؤخذ وما يترك . بين ما هو ملائم وما هو غير ملائم .
بين ما « تمثله » الشخصية الحضارية فتقوى به وتتدعم ذاتيتها وبين ما هو

خطر على هذه الذاتية . لأنه قوة طامسة لمصلحتها مشوهة لا يجايباتها .. إن هذا التمييز هو « القانون » الذي حكم « تفاعل » الحضارات العظمى و « تلاقحها » عبر التاريخ ... والأفغانى عندما دعا إلى إعمال هذا « القانون » إنما كان يتخذ الموقف الواعى والناصح بين موقفين كلاهما خاطئ .. موقف أهل الجمود . الذين عكفوا على « التخلف الموروث » . وموقف رافضين التفاعل مع الحضارة الغربية بإطلاق ... وموقف دعاة « التفرغ » . الذين أسلموا عقولهم كله للحضارة الأوربية . وكأناهم « لقطاع » . بلا ميراث حضارى . ولا سمات حضارية تستوجب أن يكون التفاعل والأخذ والعطاء من موقف الراشد وموقع الاستقلال !

٣ - وأخيرا .. فهل قال الأفغانى - كما زعم الدكتور لويس - أن « الشرق مقولة حضارية مكتفية بذاتها » ؟!

إن الرجل لم يقل بذلك . وعبارات الدكتور لويس تشهد على ما نقول ... فالذين يقولون إن حضارتنا « مكتفية بذاتها » هم أهل الجمود . الذين يرفضون التفاعل والاستفادة من الحضارات الأخرى بإطلاق . والدكتور لويس يقول عن الأفغانى إنه دعا إلى أخذ « علوم » الغرب و « تطبيقاتها » . فكيف إذن يكون من القائلين إن « حضارة الشرق مكتفية بذاتها » ؟!

لقد أجاد الدكتور لويس تلخيص موقف الأفغانى في هذه القضية عندما قال : « إن الحل عند الأفغانى هو الحل الوسط : أن يربط الإنسان بتراته القومى وبثقافته القومية . وأن يفتح فى الوقت نفسه . لما هو نافع فى تراث الغير وثقافته .. »

لكن هذا الموقف الوسط لا يعجب الدكتور لويس . فهو لا يدري كيف نميز . في تراثنا القومي وثقافتنا القومية . النافع من الضار ؟ ومن الذي يحدد لنا . في موارث الآخرين . ما نأخذ ؟ وما ندع ؟

ولئن نقول له : إن الأمم الساعية إلى النهضة . بعد ضعف وركود . تحتفظ من موارثها « بالثواب » . التي هي بمثابة « البصمة » المميزة لها . حضاريا . بين الأمم ذات الحضارات . ونحتفظ بالمناهج والقيم والعقائد التي جربت في تاريخها الحضاري . فكانت عوامل نهضة وقوة وازدهار . ثم . هل هناك صعوبة حقا في التمييز . وفي الاختيار . مثلا . بين : « العقلانية الإسلامية » و « الشعوذة والخرافة » أو « الجمود عند ظواهر النصوص » ؟ أو أن نميز ونختار بين « الوسطية » و « التطرف » . بينما كان أو يسارا ؟ أو أن نميز ونختار بين « موازنة الدين والدنيا » و « الشره واللذة والنفعية » أو « الزهد المفرط » الذي يجعلنا ندير الظهر للعالم فنهمل عمرانها ؟

وكذلك الحال في التمييز بين ما هو نافع وملائم وما هو ضار وغير ملائم في حضارات الآخرين . فآفة صعوبة من أن نميز بين مصادر القوة ومصادر الضعف في الحضارات الأخرى ؟ لا نعتقد أن الصعوبة قائمة . على النحو الذي يصورها الدكتور لويس . طالما كان هناك « ولاء » حقيقي للتراث القومي والثقافة القومية . أما إذا انعدم هذا « الولاء » أو ضعف فإن إغراء التبعية الحضارية . بالبذء من حيث انتهى الآخرون . سيكون له سلطان شديد . إذ ما الذي يغري « النقيض » بمعاناة البحث والتنقيب في « غابة الأساطير » ؟

ثم نسأل الدكتور لويس : إنك تعترف بأن الغرب قد طوع المسيحية لطابع حضارته المتميز . ولواقعة الاجتياح الخاص . حتى لقد « ابتعد عن

عبادة الله وتوغل في عبادة الإنسان ، ولم يبق له من المسيحية إلا من
وأطلال «^(٦) ! .. فإذا كانت الحضارة الغربية ، ذات الطابع المادي والروح
الاحادي - منذ اليونان - قد أخذت ما يلائم طابعها وقيمها ، وطوعت
ما أخذت - حتى ولو كان دينا - وحتى لو بلغ هذا التطويع حد التشويه
للدين وإفقاده المضمون الجوهرى والمحتوى الحقيقى ... فكيف تسكر على
حضارتنا العربية الاسلامية الحق في الاختيار والانتقاء والتمييز بين ما هو نافع
وملائم وما هو غير ذلك من حضارات الآخرين ؟^(٧) - إن ما رأيته « نقطة
ضعف » في موقف الأفغانى من الحضارة الغربية - هو بذاته « نقطة القوة »
في موقفه ودعوته . فهى الفاصل بين الدعوة « للاستقلال الحضارى »
والدعوة إلى « النعية الحضارية » .

وليتك قد قرأت أعمال الأفغانى قراءة باحث عن الحقيقة . إذن لو قفنا
طويلا عند كلماته التى تقول . عن ضرورة « تميزنا واستقلالنا » الحضارى :
« إن الظهور في مظهر القوة . لدفع الكوارث . إنما يلزم له التمسك
ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم . ولا ضرورة . في
إيجاد المنعة . إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكتها بعض
الدول الغربية الأخرى . ولا ملجئ للشرقى في بدايته أن يقف موقف الغربى
في نهايته . بل ليس له أن يطلب ذلك : وفيما مضى أصدق شاهد على أن من
طلبه فقد أقر نفسه وأمتة وقرا - [أى أذلها وصدعها] - وأعجزها
وأعوزها ... إن التمدن الغربى .. هو . في الحقيقة . تمدن للبلاد التى نشأ
فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى .. وتقليده جدع لأنف
الأمة . يشوه وجهها . ويحط بشأنها ! . لقد علمتنا التجارب أن المقلدين .

(٦) أصل ، الدراسة . ص ١٨٣

من كل أمة . المتحلين أطوار غيرها . يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات . يمهّدون لهم السبيل . ويفتحون الأبواب . ثم يشنون أقدامهم ١٢ .

وإنا . معشر المسلمين . إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه . ولا يمكن التخلص من وصمة الخطا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق . وإن مانراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا (من حيث الرق والأخذ بأسباب التمدن) هو عين التقهقر والخطا . لأننا في تمدنا هذا مقلدون للأهم الأوربية . وهو تقليد يحرقنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب . والاستكانة لهم . والرضا بسلطانهم علينا . وبذلك تتحول صبغة الاسلام . التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب . إلى صبغة خمول وضعف واستئناس لحكم الأجنبي ١٣ . ١٤ .

لو قرأ الدكتور لويس كلمات الأفغانى هذه . بروح الياحت عن الحقيقة وتأملها في ضوء ماجره علينا . التحديث على النمط الغربي . من تبعية « في كل شيء » للمركز الغربي . لاختلف تفويجه لجمال الدين لكن الغرض وسوء القصد والنية قد صرف الدكتور لويس عن رؤية الحقيقة . وعندما كان يرى طرفا منها كان يجتهد للتشكيك فيه ١٥ . فحاء « غمله » على هذا النحو الغربي . وصدق رسول الله . صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى » ١٦ .

(٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٣ ، ١٩٥ - ١٩٧ . ٣٢٧ - ٣٢٨

صبغة المدبرة سنة ١٩٦٧ -

طريق الجواسيس . . لا طريق العلماء ؟ ! . .

لقد ترددت . لبعض الوقت . في أن أكتب هذا النقد « لـ » دراسة الدكتور لويس عوض عن جمال الدين الأفغاني . وذلك على الرغم من طلب العديد من الصحف والمجلات إلى . بل وإلحاحها على . إلى درجة « الاستنفار » . أن أكتب هذا النقد . . وعلى الرغم من إلحاح العديد من الأصدقاء . بل واستغراب بعضهم . وشك البعض في أن يكون مايلي وبين الدكتور لويس من ود متبادل مبعث خرج لي في أن أرى عن الأفغاني ما وجه إليه من افتراءات ! . .

أما أسباب التردد فعدة . أهمها :

١ - أنني . بالطبع والعادة . عزوف عن الجدل . ونست سباقا إلى الخصومة واللجاج .

٢ - وفيما يتعلق بجمال الدين الأفغاني . فلقد قدمت إلى المكتبة العربية والإسلامية عنه عدة أعمال فكرية . غدت - والحمد لله - مراجع للباحثين والقراء . منها تحقيق أعماله . ودراسات عن حياته وفكره الأمر الذي يجعل « الضمير » مسترخيا حتى ولو لم أسهم في هذه المعركة « التي أقامتها » دراسة « الدكتور لويس

٣ - ثم - وهذا هو السبب الأهم في التردد - إن « دراسة » الدكتور لويس قد بلغت في « الافتراء » إلى حد « الشذوذ » - الأمر الذي يجعلها « ساقطة » بداتها - فتها فتها ولا معقولة ما جاء بها من افتراء على جمال الدين الأفغانى يفقدها « التأثير السيسى » الذى قصد إليه الدكتور لويس ؟ ! .

لكننى .. رغم وجاهة أسباب التردد هذه - راجعت نفسى - فبدت لى حقيقتان رجحتا كفة الكتابة على كفة التردد .

● فالدكتور لويس له جمهور من القراء - يحترمه - ويحرص كل الحرص على ألا تدعه والأفكار المغلوطة التى تنفى إليه ... ومن الأهمية بمكان إدارة الحوار الموضوعى والمنطقى حول القضايا الفكرية التى عرض لها الدكتور لويس . لأن جمهورا ذا وزن وتأثير فى حركتنا الفكرية قد بتنى - تلقته فى الدكتور لويس - النتائج والمقولات التى انتهى إليها فى « دراسته » . فالحرص على وصول الحقيقة إلى هذا الجمهور الذى أحترمه يجعل كتابة هذا « النقد » من أوجب الواجبات .

● ثم إن الدكتور لويس قد سلك فى « دراسته » هذه طريقا ملتويا - ولا أريد أن أقول : « خبيثا » ! - فى التعامل مع حقائق الموضوع ... لقد أهمل الحقائق التى لا تشهد « للغرض » الذى سعى إليه ... وعندما كانت تفرضه طبيعة الأمور للإشارة إلى بعض الحقائق - سرعان ما كان يعود لذكر نقيضها ؟ ! .. حتى لقد أكثر - إلى حد مثير - من وضع الحقيقة بين العوامل التى تشكك فيها - حتى يبلبل فكر القارئ ! - وليس كل قارئ متخصص أو ناقد - .. ومما ساعد « دراسته » هذه على أن تفعل هذا الفعل السيسى - نشرها على « حلقات » فهو ينفذ فى « حلقة » ما أثبت فى « حلقة » أخرى .. الأمر الذى يعطى الانطباع - لا يتناقض الدكتور لويس - وإنما

بتناقض أفكار الأفغانى ومواقفه إلى حد الغموض والريبة واللامعقول !
وعندما « تسبح » « دراسة » « هذا الأسلوب » في أن تترك هذا الكم
من « التشكيك » الذى بلغ ذروة « الافتراء » على « الفكر » و « النضال »
الذى جسده جمال الدين الأفغانى بالنسبة للإحياء الإسلامى والاستقلال
الحضارى - الذى هو طوق نجاة هذه الأمة مما يريد لها أعداؤها الكثيرون -
فإن التصدى لهذه « الدراسة » ، بالقد وبالحوار الموضوعى - يصح
واجبا .. بل من أوجب الواجبات !

إن جمال الدين الأفغانى ليس مجرد « مفكر » . ولا هو بـ « المناضل »
العادى .. لقد أصبح جزءا كبيرا وعزيزا من ضمير هذه الأمة الإسلامية في
عصرها الحديث .. تعيشه - ولا أقول « تذكره » - عندما تبحث عن
ذاتيتها الحضارية المتميزة . وعندما تتصدى لأعدائها . مستعمرين كانوا أو
مستبدين . وتستلهمه عندما تبرز للعيان الضرورة والمصادقية للمقولة التى بشر
بها : [إن تجديد دنيا المسلمين رهن بتجديد دينهم - ولن يكون لهم تمدن
حقيقى إلا إذا تأسس على روح الشريعة وقواعد الإسلام]

ولذلك . فلم يكن غريبا أن « يجمع » الأئمة والمناضلون والعلماء
والأعلام . في الشرق - بل وفي الغرب - على أن جمال الدين هو « حكيم
الشرق » . وموقفه « وفيلسوف الإسلام » ! . ومن ثم . فلا بد من النظر
إلى السهام التى توجهها « دراسة » الدكتور لويس على أنها موجهة إلى « ضمير
أمة » . لتطعن « خيارها القومى - الإسلامى » . هادفة إلى عزل مصر عن
محيطها العربى وإثباتها الإسلامى . وحصرها في قصص الاقليمية الذى جاهد
الأعداء لقرضه عليها بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م . وبفصل عمى الوحدة
مع سوريا سنة ١٩٦١ م . وبعدوان يونيو سنة ١٩٦٧ م . وبغكرية

« التغريب - العلمانية » . التي اجنهدت . بالفكر . حتى تجعل مصر قطعة من أوروبا . كي لا تكون : العقل والقلب والقاعدة والقيادة لوطن العروبة وعالم الإسلام !

إنهم يريدون نزع سلاح العرب والمسلمين . المتمثل في مصر ! - ونزع سلاح مصر . المتمثل في محيطها العربي ونتاجها الإسلامي . وما الهجوم على جمال الدين الأفغاني إلا سهم موجه إلى هذا الانتماء !

تلك هي الحقيقة التي غدا الأفغاني رمزا وتحسيدا لها . والتي كاد أن يجمع عليها الأئمة والعلماء والأعلام . إن في الشرق أو في الغرب .

● فالأفغاني . في نظر قادة الصحوة الإسلامية المعاصرة . هو الرائد الذي ارتاد هذا الطريق في عصرنا الحديث . وواحد من أبرز وموز هذه « الصحوة » - وهو المناضل أحمد بن يلا - يقول : « إن جمال الدين الأفغاني هو « فكر » تجسد « فعلا » . لقد مثل - [بالنسبة للإسلام وعالمه] - بزوغ حركة الإصلاح الديني والثقافة والنهضة الحديثة . لقد كان حقة من الكافرين - الأدرينالين - أتت جسد الإسلام .. » (١) !

● وفي ندوة « بالقيروان » - تونس - عقدتها « جامعة الأمم المتحدة » - مارس سنة ١٩٨٣ م - لدراسة ظاهرة [الصحوة الإسلامية] .. « تبين أن هذه الصحوة .. ترتبط بمدرسة جمال الدين الأفغاني .. وأنها برزت في عصرنا كمرد فعل على العلمانية .. والتحديات الحضارية المعاصرة .. وهي منجاة في وجه الاستلاب المسلط على المجتمع العربي » (٢) !

(١) من خطابه في المؤتمر الإسلامي . بباريس - سبتمبر سنة ١٩٨٢ - انظر تحت [الملتقى]

العدد الأول - باريس سنة ١٩٨٣ م - ص ١٢

(٢) [ملف المستقبل العربية البديلة] العدد ١٠ - أكتوبر سنة ١٩٨٣ م - ص ١٧

● وهو ينظر المفكر المسلم - الذرزي - الأمير شكيب أرسلان [١٢٨٦ - ١٣٦٦ هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م] : « فيلسوف الإسلام . وعلم الأعلام . وكوكب الإصلاح الذي أطلعه الله في أفق المشرق بعد أن اشتد به الظلام . حجة الشرق الناهضة . وآية الحق الباهرة .. » (٣) !

● وهو رأى الإمام المسلم - الشيعي - السيد محسن الأمين [١٢٨٤ - ١٣٧١ هـ ١٨٦٧ - ١٩٥٢ م] : « .. متوقد الذكاء . فصيح الكلام بلبغه . غالى الهمة . حسن الأخلاق .. حريء . ميال بطبعه إلى معارضة الحكام .. والدعوة إلى الإصلاح .. » (٤) !

● وهو - كما يقول عنه عالم تونس الشيخ محمد الفاضل بن عاشور [١٣٢٧ - ١٣٩٠ هـ ١٩٠٩ - ١٩٧٠ م] - : « حكيم . صوفي . زاهد . متواضع .. كانت سنوات إقامته بتصر هو طور بروز حكمته ومعرفته . والإصداع بدعونه في الإصلاح الديني .. حتى لقد بعث ما كان مهجورا من مواد الثقافة الإسلامية ووظائفها . بتدريس « الكلام » و « الحكمة » و « الرياضيات » . وتحريك ماثرات المباحث . وفتح مسالك النظر . ونهضة فرصة التقرير والتحرير وصقل ملكاتها بالنقد والمران .. » (٥) !

● فإذا ما جئنا إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ -

(٣) [حاضره العالم الإسلامي] مجلد ١ ج ٢ ص ٢٨٩ - طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م

(٤) محسن الأمين [حوال الدين لأفعالي] ص ٩ - طبعة بدون تاريخ . وبدون تحديد مكان الطبع

(٥) محمد الفاضل بن عاشور [التفسير وزجانه] ص ١٥٦ - ١٥٧ - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م

١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م | - الذي شارك الأفغانى الفكر والنضال اثني عشر عاما . فتفرد وانفرد بما جعله . عندما يكتب عن الأفغانى . يصدره كما قال - عن « كمال الخبرة . وطول العشرة » . والذي قال عنه الامام محمد رشيد رضا : « إنه أعلم الناس بمقاصد الأفغانى وأعماله » . والذي وصفه سليم النحورى - وهو من عارفى الأفغانى ومعاصريه - بأنه « أعز أخلاء الحكيم جمال الدين » .

إذا جئنا إلى محمد عبده لنرى وصفه لمكانة جمال الدين . وتقويمه لدوره فى النهضة الإسلامية - مع التنبيه والتنبيه إلى أن محمد عبده عندما يكتب فإنه يتحير الفاظه بدقة من يؤدى شهادة سيحاسب عليها أمام الله . أعانته على ذلك قدرات لغوية وحكمة فلسفية جعلته إماما فى البيان كما هو إمام فى الحكمة وتجديد الدين ! - . إذا جئنا إلى تقويمه للأفغانى . وجدناه يقول - ضمن مقال - : « فكأنه حقيقة كلية . تجلت فى كل ذهن مما يلائمه . أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكلة

فهو فى السياسة : يسعى لتحقيق الأمة بالأهم العزيزة . والدولة بالدول القوية . ليعود للإسلام شأنه . وللدين الحنيفى مجده .

وهو فى الدين : حنيفى حنفى . لم يكن مقلدا فى عقيدته - لكنه لم يفارق السنة الصحيحة . مع ميل إلى مذهب الصوفية . وهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه . له حمية دينية لا يساويه فيها أحد يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله .

وهو فى الفلسفة : له سلطان على دقائق المعانى . وقوة فى حل ما يعضل منها . كأنه سلطان شديد البطش ! . وله لسان فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد - إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ! -

وهو في الآداب : له في الشعرية قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم
الصنع والابداع ...

وهو في المعارف : إذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها
وهو في الأخلاق : ولوع بعظائم الأمور . عزوف عن صغارها . سلامة
القلب سائدة في صفاته . كرم يذل ما في يده . قوى الاعتماد على الله .
لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر . له حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع .
إلى أن يدنو منه أحد لمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه
الشهب . فيهما هو حلم آواب إذا هو أسد وثاب ! شجاع مقدام .
لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ! ...

ثم يحتم محمد عبده وصفه لجمال الدين بهذه العبارة التي يقول فيها
« وبالجملة . فإني لو قلت : إن ما أتاه الله من قوة الذهن . وسعة
العقل . ونفوذ البصرة . هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو فضل عظيم ... »

ذلك هو جمال الدين الأفغاني . كما وصفه وحدد مكانه ودوره . الأئمة
والعلماء المسلمون . الذين أشرنا إلى رأيهم فيه . وعلى درجهم سار كل
الذين كتبوا عنه الكتب أو الدراسات . أو عرضوا الحديث عن مكانته في
انهاض الأمة وإصلاح دينها ودنياها . من مثل رشيد رضا . وحسن
البنّا . وعبد الحميد بن باديس . وعبد القادر المغربي . ومحمد الخزومي
ومصطفى عبد الرازق . وعبد الله التديم . وسعد زغلول . ومحمد إقبال
وعباس العقاد . وأحمد أمين . وعبد الرحمن الراغب . وعالمك بن نبي
والدكتور محمود قاسم . وأديب اسحق . وسليم نقاش . وسليم

(٦) | الأمل الكاملة للإمام محمد عبده | ج ٢ ص ٣٤٩ - ٣٥٢ . مطبعة بيروت سنة

١٩٧٢ م

العسكوري والفيكونت قليب دي طرازى الخ . الخ . الخ
 وإذا كنا قد أشرنا إلى « كلمات » لأئمة المسلمين وأعلام علماءهم في مجال
 الدين . فإن كلمات العلماء والمؤرخين . من غير المسلمين . شاهدة . على
 الأخرى . على عظمة الأفغانى وريادته وتألقه في سماء « الفكر »
 و « النضال »

● فالمؤرخ المسيحي العربى حرجى ريدان [١٢٧٨ - ١٣٣٢ هـ ١٨٦١ -
 ١٩١٤ م] يقول عنه : « لقد نشأ الأفغانى قطبا من أقطاب الفلسفة ،
 وعاش ركنا من أركان السياسة . وتوافرت فيه قوى الفلاسفة ومواهب
 رجال الأعمال .. » (٧) !

● والفيلسوف الفرنسى إرنست رينان Ernest Renan [١٨٢٣ -
 ١٨٩٢ م] يقول عن جمال الدين : « كنت أتمثل أمامى عندما كنت
 أحاطبه : ابن سينا . أو ابن رشد . أو واحدا من أساطين الحكمة
 الشرقيين .. » (٨) !

● والسياسى والمستشرق الانجليزى - [الأيرلندى] - ولغورد سكاون
 بلنت S. Blunt [١٨٤٠ - ١٩٢٢ م] - وهو الذى عاشه . وتعامل
 معه . وخبره - يقول عنه : « إن جمال الدين كان رجلا عبقريا . أثر
 تعاليمه تأثيرا لا يمكن الغض من حسامته على حركة الإصلاح الإسلامى
 وأنا أشعر بالشرف العظيم لأنه عاش ثلاثة شهور تحت سقفى فى إنجلترا . ولكنه
 كان رجلا برياً . كل ما فيه آميوى . وليس من السهل تأنيبه للعادات
 الأوربية ؟ ! .. » (٩)

(٧) حرجى ريدان [تراجم مشاهير الشرق] طبعة القاهرة

(٨) [حاضرم العالم الإسلامى] مجلد ١ ج ٢ ص ٢٨٩

(٩) أصل : دراسة « الدكتور لويس موزس » ص ٢٣٠

● والمسيحي الأمريكي لوثرروب ستودارد Lothrop Stoddard - مؤلف كتاب [حاضِر العالم الإسلامي] - يقول عنه : « كان جمال الدين سيد التابعين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الداهية ، دافع الحجة قاطع البرهان ، ثبت الخناق ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن في ناسوته أسرار المغنطيسية ، وكان داعيا مسلما كبيرا - كأنما خلقه الله في المسلمين لتشر الدعوة فحسب - ضحى بنفسه في سبيل إيقاظ العالم الإسلامي - وليس هناك قطر من الأقطار الإسلامية وحلت أرضه فدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية لا تحب نارها ولا يبتدأ أوارها » (١٠) .

● أما المشرق اليهودي المجري جولدميهر Goldziher [١٨٥٠ - ١٩٢١ م] فإنه يقول : « كان جمال الدين من أبرز أعلام الإسلام في القرن التاسع عشر - أثر تأثيرا كبيرا في الحركات الحرة والديموقراطية - وسعى إلى إيقاظ الشعور الوطني وتحرير الدول الإسلامية من النفوذ والاستغلال الأوربي » (١١) .

وعلى منوال المشرق جولدميهر - في تقدير عظمة الأفغانى - سار المشرقون الكبار الذين كتبوا عنه ، من أمثال براون E.G Browne [١٨٦٢ - ١٩٢٦ م] ونشارلز أدامز G.H Adams ، الخ ، الخ .

ذلك هو رأى الأئمة والعلماء والأعلام - مسلمين ومسيحيين ويهود - شرقيين وغربيين - في جمال الدين الأفغانى .

(١٠) [حاضِر العالم الإسلامي] مجلد ١ ج ١ ص ٣٠٥ .

(١١) [دائرة المعارف الإسلامية] الترجمة العربية - الطبعة الثانية - القاهرة - دار المعارف .

لكن الدكتور لويس عوض له رأى مخالف بل ومضاد - ومعدرة
لكلمة « رأى » إذا نحن أطلقناها على ماخطه قلناه في وصف جمال الدين
الأفغانى ؟ ... أتعرفون بماذا وصفه ؟؟

لقد قال عن الأفغانى - وبالحرَف - وبذات الألفاظ :

إنه : زنديق ... ملحد ... مجدف ... متفردج ... في الفكر
والسلوك ... علماني ... ثيوقراطي ؟ ... تقدمي ... ثوري ... جذلي ...
رجعي ؟ ... تقليدي ... محافظ ؟ ... وسطي ... حالم ...
هناكار ؟ ... سلفي ... شيخي ؟ ... بهائي ... باطني ... ماكر ...
إرهابي ... فوضوي ... عدمي ... غامض ... مريب ... جاهل ...
متعصب ... غيبي في الفكر - غيبي في السياسة ... شغل نفسه بسفاسف
الفكر وبسفاسف الفكر السياسى ... مزدوج الشخصية ... بل ومتعددها
متذبذب ... متناقض ... محامي روسيا في السياسة الأفغانية ... صاحب
نظرية « المستبد العادل » ... صاحب عنجهية فارسية ... شخصية
مأساوية ... لم يكن يعرف مايريد ... عدو للشعور القومى وللحركات
الاستقلالية ... على درجة من النقص في الإخلاص ... باحث عن استدرار
الأموال - وبالطرق الملتوية - لتصب في جيبه ... ينصب على كل
الأطراف ... انتهازى من طراز نادر ... متوسل للغايات النيلية بالوسائل
الخنيسة ... مقامر ... مقامر ... بل وأفاق دولى ... (١٢) « ١٩٩٩ » .

تلك هي - عند لويس عوض - أوصاف الرجل الذى ستقنا طرفا من
وصف الأئمة والعلماء والأعلام له . منذ قليل .. والذي قال عنه الأستاذ

(١٢) تتناثر هذه الأوصاف للأفغانى في صفحات « دراسة » الدكتور لويس عوض - وانظر

على وجه الخصوص عدد [التضمين] ١٤ ص ٨٠ . وأصل « الدراسة » ص

١٧٣ . ١٩١

الإمام الشيخ محمد عبده : إنه لا يبلغ إذا قال : « إن ما أتاه الله من قوة
لدهى . وسعة العقل . ونفوذ البصيرة . هو أقصى ما قدر الله
الأنبياء . » !

وذلك هو الذى جعلنا نقول : إن « دراسة » الدكتور لويس
الأفغانى قد بلغت فى الشذوذ إلى الحد الذى جعلها « ساقطة » بالطبع
والذات . ولولا أن الرجل قد سلك إلى غرضه هذا كل السبل
« الملتوية » - ولا أريد أن أقول : « الخبيثة » - لما احتجنا إلى هذا « النقد »
لنحمى به « الحقيقة » من « الافتراء » ! . .

فما هى هذه السبل الشاذة . التى سلكها الدكتور لويس ليبلغ بواسطتها
قمة الشذوذ التى بلغت « دراسته » عن جمال الدين ٤٩ . .

● من « التغاليد البحثية » . التى غدت بديهة فى دنيا الفكر . تلك التى
تتعلق بطبيعة ونوعية المصادر والمراجع فى كل بحث من الأبحاث . وعلافة
هذه المصادر والمراجع - من حيث الموضوع والمستوى - بالبحث الذى
تستخدم فيه .

فإذا كان البحث فى الاقتصاد . فإن آثار الفكر الاقتصادى لابد وأن
تنصدر قائمة المصادر والمراجع . وإذا كان فى التاريخ . فهناك مصادر
ووثائقه . وإذا كان فى الدين . فهناك مصادر الفكر الدينى . وإذا كان
فى الأدب . فهناك الآثار الأدبية وأعمال النقاد . تلك بديهة من
البداهيات

وفى حال جمال الدين الأفغانى فإن هناك أعمالا فكرية كتبت عن الرجل
- ما بين رسالة جامعية . أو كتاب متخصص . أو دراسة جادة . أو فصل أو
فصول من كتاب - كتبها أكثر من خمسين مفكرا . منهم ما يزيد على الثلاثين

إماما وعالما ومفكرا ومثقفا . من الشرق والغرب . ومن كل الديانات والاتجاهات . وبديهي أن تنصدر هذه الأعمال الفكرية قائمة المصادر والمراجع في أي بحث جديد عن جمال الدين - مع ما يصل إليه الباحث الجديد من مصادر جديدة جديدة جديدة بالاحترام . وبديهي كذلك ، في التأريخ لأي مدكر . أن تكون أعماله الفكرية وآراؤه الثابت نسبتها إليه . موضع الاعتبار الأول في تقويم أفكاره واتجاهاته . كما أن شهادات المعاصرين . وخاصة القريبين من العلم الذي تكتب عنه . هي الأخرى مصادر لا بد وأن يكون لها وزن كبير . كل هذه بديهيات . استقرت كتقاليد نعارف عليها المفكرون والباحثون . في كل ميادين البحث ومجالات التفكير

لكن الدكتور لويس عوض قد جاء . في « دراسته » عن الأفغاني . فخرج عن كل هذه القواعد . ورفض كل هذه البديهيات . واستثنى للباحثين سنة ميثقة لم يسبقه إليها أحد من الناس !

● فهو يرفض أن يصدق الرجل الذي يكتب عنه ؟ ! بحجة . أن الأفغاني كان كثيرا ما يلون الأحاديث عن نفسه . لأسباب متعددة (١٣) . ؟ ! . وبحجة . أن الأفغاني عودنا أن يروي الأمور دائما من وجهة نظره (١٤) . ؟ !

● ثم هو يرفض آراء محمد عبده عن الأفغاني . رغم عدالة الرجل . ودقته . وموضوعيته . التي جعلته لا يفعل نقد الأفغاني . رغم ما يمكنه من تقدير منقطع النظر . ورغم أنه قد صحبه وشاركه لأكثر فترة - اثني عشر

(١٣) [التضامن] العدد ٦ ص ٦٨ .

(١٤) [التضامن] العدد ١٤ ص ٧٨ .

عاماً - حتى لقد صدق عندما قال إنه يكتب عنه بناء على « طول العشرة
وكمال الخبرة » ولم يشفع محمد عبده - كمصدر ثقة - عند الدكتور لويس
إجماع معاصري الأفغانى وكل الذين كتبوا عنه بأنه - أبى محمد عبده -
« أعلم الناس بمقاصد الأفغانى وأعماله » - كما يقول رشيد رضا^(١٥) - .
و « أعز أخلاء الحكميم الأفغانى » - كما قال سليم العنحورى

● بل لقد رفض ما أجمع عليه أئمة العصر وأعلام علماء - الذين أرحوا
لجمال الدين - وترددت فى « دراسته » عبارات كثيرة من مثل : « هناك
رواية محمد عبده » وهى بوجه عام رواية جرجى زيدان - وآدمز -
وبراون - وهى الرواية المعتمدة من أكثر الناس^(١٦) . ثم يرفضها
ومن مثل عبارة : « وفى رواية محمد عبده وجرجى زيدان وبراون
وغيرهم من المصادر التقليدية^(١٧) » . ثم يرفضها . ومن مثل عبارة :
« وقد أجمع محمد عبده وأديب اسحق وسليم العنحورى وجرجى زيدان
وعامة معاصري الأفغانى من المصريين وأبناء البلاد العربية^(١٨) » . ثم
يرفض هذا الإجماع !

وبالطبع . فليس من حق أحد أن ينكر على باحث أن يرفض « الروايات
المعتمدة » ويرفض « الإجماع » . إذا كان قد استند إلى مصادر أولى مما
استندت إليه « الروايات المعتمدة » . وإذا كانت لديه الحقائق الصلبة
والواضحة التى تنقض « الإجماع »

(١٥) [تاريخ الاستاد الإمام] ج ١ ص ٢٠٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م

(١٦) [التضا من] عدد ٥ ص ٦٩ .

(١٧) [التضا من] عدد ٥ ص ٦٨ .

(١٨) [التضا من] عدد ٧ ص ٦٢ .

لكن أن يرفض لويس عوض « إجماع علماء العصر وأعلامه » . مستندا إلى « تقارير الجواسيس الانجليز » - وإلى « ملفات المباحث » الخاصة بالأفغان في دوائر الأمن والتجسس في إنجلترا وفرنسا - وهي الدوائر التي ناصبت العداء - لعدائه لاستعمار حكوماتها بلاد الشرق واستغلالها شعوبه - وإلى عدد من الكتب التي ألفها نفر من « طلاب الاستشراق » - وليسوا من علمائه - استنادا إلى « تقارير الجواسيس » و « ملفات المباحث » . أما أن تكون هذه هي « مصادر » الدكتور لويس - التي ينقص بها « إجماع الأئمة وأعلام علماء العصر » - فذلك هي الخطيئة الكبرى - والسنة السيئة التي استنها في « دراسته » هذه عن جمال الدين الأفغانى !

إن الدكتور لويس يسمى « الأوراق » التي استند إليها « وثائق » وهو يتحدث عنها في معرض حديثه عن الكتب التي أخذ عنها ، والتي استندت إلى هذه « الوثائق » . فيقول صراحة إنها لا تخرج عن « تقارير جواسيس » و « ملفات مباحث » ضمت « تقارير المخبرين » !! فأصحاب « المراجع الجديدة » - التي استند إليها في « دراسته » - اضطروا - [في سبيل نقص إجماع علماء العصر] - إلى لبس ملف جمال الدين الأفغانى وتحرّكاته في آسيا وإفريقيا في :

- ١ - سجلات وزارة الخارجية البريطانية
- ٢ - وفي « يوميات كابول » عن عامي ١٨٦٨ و ١٨٦٩ م في « أعمال حكومة الهند » في مصلحة الشؤون الخارجية (كلكتا سنة ١٨٦٩ م) (مكتب علاقات الكومنولث)
- ٣ - وفي « موجز حوادث كابول » في الأعوام ١٨٦٣ - ١٨٧٤ م (مكتب علاقات الكومنولث) الصادر في شباط سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٤ م

٤- وفي « أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (ملف فاس ١٨٨٨ - ١٨٩٦ م)

٥- بل اضطروا إلى نشر محفوظات الموليس الفرنسي والموليس
الانجليزي^(١٩) .

لكن هل ضمت هذه « الأرشيفات » و « الملفات » أوراقا يمكن
بحق أن تسمى « وثائق » يحق للمباحث أن يتقصر « استنادا إليها » إجماع
العلماء ؟

لنتظر .. ولنتأمل

إن « الوثيقة » عند الدكتور لويس - مفهومها غريبا - فهو يجمع هذا
الاسم لأوراق يذكره عليها - ليس علماء التاريخ وحدهم - بل والطلاب
المبتدئون في هذا الفن ! ... ولقد سبق أن أشرنا إلى قصة تلك « الأوراق »
التي كتبها رجل اسمه « لاسكاريس » . هو - باعترا ف الدكتور لويس ونقص
كلماته - « مصاب بنوع من الهوس أو الخيال المسرف » والتي ضمنها
« هذيان » رجل مريض بالحمى - ساعة الاحتضار - هو « المعلم يعقوب
اللعين » . عندما حضرته الوفاة على ظهر السفينة التي أقلته هو والحنة الذين
تعاونوا مع الحملة الفرنسية على مصر . أقلته مع جنود الحملة عند جلائهم عن
مصر سنة ١٨١١ م ... لقد سمي الدكتور لويس هذا « الهذيان » . الذي
كتبه « مهووس » . « وثائق » . وقال - ليضفي عليها المهانة - إنها في
محفوظات وزارة الخارجية بلندن تحت رقم | F.O. 78 vol. 38 | ولينها
كانت « وثيقة » بورع فيها « معلمه يعقوب اللعين » تركته الشخصية . إذن

لغان الأمر... ولكنها . في رأى الدكتور لويس . « وثائق مشروع الاستقلال الأول لمصر » (٢٠) ؟ !

ذلك هو مبلغ « الاحترام » عنده لمصطلح « الوثيقة » وهو يكتب هذا الكلام لقراء هم أبناء حضارة لها في نقد النصوص والمأثورات والروايات جهود تبلورت في علم اسمه [علم الجرح والتعديل] ؟ ! أمة تعلمت في سيرة نبيها . عليه الصلاة والسلام . أنه في لحظات احتضاره . طلب صحيفة ودواة يملأ كتابا . فأحجم عن الإجابة نفر من أجنة الصحابة . على رأسهم عمر بن الخطاب . قائلين : « إن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قد غلبه الوجع . وعندكم القرآن . حسينا كتاب الله » (٢١) ! . وحتى النبي . عليه الصلاة والسلام . لم يسجلوا ما أراد أن يملأ عندما اشتد عليه الوجع ساعة الاحتضار . احتراماً منهم « للمصادر » الجديرة بأن تكون طاقة التوجيه ونكويين الأفكار والآراء . في أمة هذا شأنها وشأن حضارتها مع « الوثائق » و « الوثيق » . يسمى الدكتور لويس « هذيان » معلمه يعقوب « عندما اشتدت عليه الحمى . لحظة الاحتضار : « وثائق مشروع الاستقلال الأول لمصر » !!

ولقد سار على هذا الدرب في « دراسته » حتى جهال الدين

● إنه يتهم الأفغانى بالكذب وبالتقية . وبالباطنية وبالمنصب لأنه قد أخفى « إيرانيته » وزعم أنه « عثماني » عندما عاش في بلاط أمير الأفغان سنة ١٨٦٨ م . . و « الوثيقة » التي اعتمد عليها الدكتور لويس هي تقرير جاسوس أفغانى كان يعمل لحساب الاستعمار الانجليزى . وبعبارات

(٢٠) [تاريخ الفكر المصرى الحديث] ج ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤

(٢١) الضحطاوى [الأعمال الكاملة] ج ٤ ص ٣٨٨ .

الدكتور لويس : « هي تقرير كتبه موظف في حكومة كابول سنة ١٨٦٨ م كان يعمل جاسوسا لحساب الإنجليز . والتقارير بعنوان [سجل بأوصاف السيد الرومي في كابول] . وفيه اتهام للأفغان في عقيده ووطنه إذ يقول عنه : إنه « فيما يبدو لا يتبع دينا معيناً وأسلوب معيشته أقرب إلى أسلوب الأوربيين منه إلى أسلوب المسلمين . وهو يلبس ملابس النوغاني (أتراك جنوب غرب التركستان) . ويشبه أن يكون عميلاً روسيا ... » (٢٢) !

تلك هي « الوثيقة » التي اعتمد عليها الدكتور لويس في نقض « إجماع العلماء » على تدوين الأفغانى وصدق إخلاصه في وطنه .

ونحن إذا تجاوزنا - جدلاً - عن « التدني والهبوط » في إطلاق اسم « الوثيقة » على هذه الورقة التي كتبها جاسوس . نسأل الدكتور لويس : أما كان الأجدر بك أن توقف موقف الناقد أمام هذه النصوص ؟ إن « نقد النصوص » ليس خاصية من خصائص المؤرخ وحده . حتى يمكنك الاعتذار بأنك « مؤرخ هاو » . لم تعلمه فيما تعلمت ! وإنما هو جزء من « صنعة » الناقد الأدبي . التي هي وظيفتك الأصلية ! فلماذا لم توقف الموقف النقدي من هذا النص ؟ . وأنت لو صنعت ذلك لألقيته في سلة المهملات ؟ ! وذلك لأن :

١ - هذا التقرير يتحدث عن « السيد الرومي » . وليس فيه أية إشارة إلى أن هذا « السيد الرومي » هو جمال الدين الأفغانى ! فمن قال إن المقصود هو جمال الدين ؟ !

٢ - ثم إن وصف « السيد » يعنى « الشريف » . من « السادة » .

المتحدرين من نسل آل البيت . أبناء علي بن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء . أي أنه « عراقي . قرشي . هاشمي » أما « الرومي » فمعناها « التركي العثماني » . لأن العرب . في صراعهم مع الترك العثمانيين . قد سموهم « الأروام »^(٢٣) . فكيف يكون إنسان واحد « سيديا » و « روميا » في ذات الوقت ؟ أي كيف يكون « عربيا » و « تركيا عثمانيا » في وقت واحد ؟ ! ..

٣ - ثم . هذا الجاسوس - وهو أفغاني - كيف لم يكشف « إيرانية » جمال الدين . والأفغانيون والإيرانيون أبناء أرومة واحدة ؟ !

٤ - وأخيرا - فهل من حصافة العميل . الذي يمارس نشاطه في بلاط دولة محافظة دينيا . أن يكون متفرجا في أسلوب معيشته . إلى الحد الذي « يبدو فيه أنه لا يتبع ديننا معنا » ؟ ! ... وألست أنت الذي أوردت عبارة « بلنت » عن أسلوب معيشة الأفغاني في لندن . والتي تقول : « إنه كان رجلا بريئا . كل ما فيه آسوي . وليس من السهل تأنيسه للعادات الأوربية » ؟ ! ... أكان « آسيويا بريئا » في لندن . « متفرجا » في « كابول » ؟ ! ..

عزيزنا الدكتور لويس ! .. إن من الحكم الشعبية الماثورة تلك الحكمة التي تقول : « إذا كان المتحدث مجنونا . فليكن المستمع عاقلا » ؟ ! فلم لم تصنع ذلك مع هذا « اطراء » الذي سميت « وثائق » . نقضت بها « إجماع الأئمة والعلماء والأعلام » ؟ ! .. هل هو الغرض السيئ ؟ .. والغاية الرامية إلى ضرب الإحياء الإسلامي بتشويه رائده في عصرنا الحديث ؟ ! أم ماذا يا عزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..

(٢٣) انظر عبد الرحمن الكواكبي | الأعمال الكاملة | ص ٣٢٥ طبعة بيروت سنة

وغير هذا الجاسوس المجهول الاسم . وغير التقرير الذى كتبه عن
« شخص » مجهول الاسم كذلك . ترد فى « دراسة » الدكتور لويس
الإشارات إلى تقارير الجواسيس - من أمثال « حسين بلجرامى » - « سكوتير
الحاكم الانجليزى لحيدر آباد » و « عزيز الدين » - الذى كلفته الحكومة
البريطانية يرصد تحركات الأفغانى - فهى « مصادره » فى « دراسته » عن
جمال الدين !

لقد كان لابد للدكتور لويس كى ينقض « إجماع الأئمة والعلماء » . من
أن يرفضهم . كمصادر له « دراسته » . وبذلك فهو قد تنكب طريقهم .
على حين رأينا قد سار خلف الجواسيس . باعتداده على التقارير التى كتبوها
عن الأفغانى . بل والتى لا دليل على أن المعنى بها هو جمال الدين !

● وغير هذه « الأوراق السافطة » - التى يسميها الدكتور لويس
« وثائق » . نراه يعتمد على نوعية من « الكتب » ليست بأحسن حالا من
هذه « الأوراق » !

فهو يعتمد . فى تشويه موقف الأفغانى من الثورة المهدية بالسودان .
وتوجيه الاتهامات إلى موقفه أثناء المفاوضات بين الانجليز وبينه . بواسطة
« بنت » - حول الثورة المهدية . يعتمد على الترجمة الانجليزية لكتاب
الصحفى الفرنسى « هنرى دوشفور » [مغامرات حياتى] ؟ ! ثم نراه - كما
هى عادته - لا يتخذ أى موقف نقدى مما جاء فى هذه « المغامرات » -
فهو . استنادا إلى هذه [المغامرات] . يوجه للأفغانى « تهمة » أنه « طرح
نفسه وسيطا فى المفاوضات . مدعيا أنه يعرف المهدى معرفة شخصية »
وينسب إلى الأفغانى عبارة : « تلميذى السابق فى جامعة الأزهر . وهو الآن
المهدى » (٢٤) !

(٢٤) أصل « دراسة » الدكتور لويس . من ١٩٣

ولو تأمل الدكتور لويس ماحاء في هذه المغامرات [تحس نقدي
لظهرت له هذه الحقائق :

١ - أن الأفغانى . وفق كتابات « بلنت » التي أوردها الدكتور لويس
دائه . ليس هو الذي طرح نفسه وسيطاً في المفاوضات . بل إن الانجليز هم
الذين سعوا إليه . بواسطة « بلنت »

٢ - أن الأزره لم يكن يسمى « جامعة » وهو لم يتخذ هذا الاسم إلا
في ستينات القرن العشرين . لقد كان اسمه « الجامع » - بالتركيز - وعندما
عرض البعض على الشيخ سليم البشري [١٢٤٨ - ١٣٣٥ هـ - ١٨٦٧ -
١٩١٧ م] تسميته « جامعة » . رفض فائلاً - لماذا تونت مادكره
الله ؟ !

٣ - أن جمال الدين الأفغانى لم يدرس في الجامع الأزره

٤ - والمهدى - محمد أحمد - لم يدرس في الأزره . فلقد منعه فقره من
مغادرة السودان !

لم ير الدكتور لويس شيئاً من هذه الحقائق البسيطة . والعنيدة . التي
تنقض [المغامرات] التي اعتمد عليها . فقط رأى « تهمة » موجهة للأفغانى
فحال « الغرض » بينه وبين التفكير في مدى ثنائيتها ومصداقيتها !

● وكتاب آخر . هو « العمدة » في أغلب ماوجه إلى الأفغانى من
اتهامات . ففيه أنه « شيعى » . كذب على العالم عندما ادعى أنه
« سنى » . وأنه « إيراني » . كذب على العالم عندما زعم أنه « أفغانى »
وأنه « غير متدين » . كذب على العالم عندما ظهر في صورة المثليين !
الخ . الخ . وعنوان هذا الكتاب هو [جمال الدين الأسد آبانى .
المعروف بالأفغانى] وهو منسوب إلى « مرزا الطوف الله خان » - الذي زعم

أنه ابن أخت جمال الدين . ويضم ملاحق فيها « شهادات » على هذه
الدعوى المناقضة لما قاله الأفغانى عن نفسه . ولما أجمع عليه الأئمة
والعلماء

ومرة ثالثة . نقول : إن الدكتور لويس لو نظر نظرة نقدية إلى ماحواه
هذا الكتاب . لكشف تهافته وزيفه . ولأراح واستراح . . . ففى هذا
الكتاب من « اللامعقول » الشيء الكثير . . . وعلى سبيل المثال :

١ - يدلى هذا الكتاب على « إيرانية » جمال الدين بأن له فى « أسد
آباد » الإيرانية أسرة تسمى « الأسرة الجمالية » . نسبة إليه ! . . ونحن نعلم أن
الرجل لم يتزوج ولم يتجب . فكيف تكون له أسرة « جمالية » تنتسب إليه
هو . لا إلى أبيه وأجداده ؟ ! . .

٢ - والكتاب يتحدث عن إخوة جمال الدين . فيقول إن له أختين :
طيبة . ومرم - وليس لنا ملاحظة على اسميهما . فهما - اسمان - مألوفان فى
الأوساط الإسلامية - . . لكنه يذكر أن اسم أخيه الوحيد هو « مسيح
الله »^(٢٥) ! . . فلم لم يقف الدكتور لويس أمام هذا الاسم . ويقول لقرائه :
إن هذا الاسم محال أن يكون مألوفاً فى أسرة إسلامية . . ولابد أن يكون
القصد من هذا الكتاب هو تشويه الصورة الإسلامية لجمال الدين ؟ ! . أم
إن هذا الاسم - « مسيح الله » - قد أعجب الدكتور لويس فغض الطرف .
ومضى يللم الاتهامات ؟ ! . .

٣ - وفى هذا الكتاب - [جمال الدين الأسد آبادى] - كم من
المعلومات التى لا يكتبها إلا جاهل أو مخرف ! . . ففيه : أن « الحزب
الوطنى » [الذى تزعمه الأفغانى بمصر] - كان دقيق التنظيم للغاية . . .

(٢٥) انظر ص ١٧٠ . ١٧١ من هذا الكتاب . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م

والمعروف أنه كان « تجمعا للصفوة » ولم يكن « حريا » بالمعنى المتعارف عليه ، حديثا ، من مصطلح « الحزب » !

وفيه : أن « التبرعات النقدية من أعضاء هذا الحزب ، في تسعة أشهر فقط ، بلغت ١٨.٠٠٠ جنيه » ... وهذا كلام يدخل في عالم الخيال المريض .. !

وفيه : « أن جميع من كانوا في الإدارات الانجليزية - من المصريين - قد تركوا أعمالهم ، وانضموا إلى المجاهدين من رجال الحزب الوطني » ؟ ! ... والمعروف أن هذا « الحزب » ، وزعيمه الأفغانى ، لم يكن موجودا بمصر عندما قامت بها « إدارات الإنجليزية » فلقد نفى الأفغانى من مصر سنة ١٨٧٩ م ، وانتهى أمر هذا الحزب ، تقريبا ، قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر الذى حدث سنة ١٨٨٢ م ؟ ! ..

وفيه : أن « اللورد كرومر ، المستشار المائى البريطانى » في مصر قد انزعج من نشاط الأفغانى وحزبه الوطنى ، فكتب إلى حكومته تقريرين حول خطورة هذا الحزب على التجارة الانجليزية في مصر وأفريقية وآسيا .. وأنه - أى « الحزب الوطنى - هو أوضح مظهر لنهضة العرب من ثلاثة عشر قرنا من الزمان - وهو يرض حقا على كيفية سيطرة العرب على ثلث المعمورة في أقل من ربع قرن » ؟ ! ..

وتنحى تعلم - وثلايمد المدارس الابتدائية يعلمون - أن كرومر كان « المعتمد البريطانى » في مصر .. ورئيس « المستشار المائى » .. وأنه لم يأت إلى مصر إلا بعد الاحتلال بسنوات ، أى بعد نفى الأفغانى منها ، واختفاء الحزب الوطنى بنحو الخمس السنوات .. ومن ثم فتم يكتب كرومر إلى حكومته التقارير عن نشاط الأفغانى وحزبه في مصر أبدا ؟ ! ..

وفيه : أن الموظفين الإنجليز ... وأعضاء المجتمع الكنسي قد شاركوا
 « كرومر » فرعه من الأفغانى وحزبه الوطنى .. وتعجبوا من « تفهت سيمانه
 مليون من المسيحيين المثقفين الأقوياء أمام أربعين شخصا بقودهم درويش
 إيراني هو جمال الدين الأسد آبادى » ١ .. وبعد مطور يذكر أن أعضاء
 هذا الحزب - الذين قال عنهم مرة إنهم ثلثائة - ومرة إنهم أربعون .. يذكر
 أنهم قد بلغوا ، في تسعة أشهر ١٨٠ ، ٢٠ عضوا .. وأصبح الحزب بذلك
 رأسمالا كبيرا في المصارف ! .. مع العلم أن مصر ، يومئذ ، لم يكن بها أية
 مصارف ؟ !

وفيه : أن الإنجليز ، عندما انزعجوا من نشاط الحزب الوطنى ، « نفوا
 جمال الدين إلى أوروبا » ! .. والمعروف أنه قد نفي إلى الهند ؟ ! ..

وفيه : أنهم قد : نفوا كذلك محمد عبده ، الذى كان مفتيا ثلاث
 سنوات ، ! .. ومعلوم أن محمد عبده لم ينف إلا بعد فشل الثورة العربية .
 وبالتحديد في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م .. كما أنه لم يكن ، مفتيا قبل نفيه .
 وإنما شغل هذا المنصب بعد عودته من المنفى بعشر سنوات - [في ٣ يونيو سنة
 ١٨٩٩ م ؟] !

وفي هذا الكتاب ، أيضا ، أن نفي جمال الدين من مصر كان سنة
 ١٨٧٩ م « بعد قضاء الإنجليز على الثورة العربية » ؟ ! .. والمعروف أن
 القضاء على الثورة العربية كان في سنة ١٨٨٢ م وليس في سنة
 ١٨٧٩ م ؟ ! ..

وبعد أن ذكر الكتاب أن نفي الأفغانى من مصر كان إلى أوروبا .. عاد
 ، ذكر أنه توجه من مصر للهند ؟ ! .. كما جعل استضافة « بلنت » للأفغانى

« بمقره بباريس » .. على حين يعلم الجميع أنها في لندن ١٩٦٦ ! ...
إلى آخر هذا الكم من « المعلومات » التي ما كان يجوز لطالب مبتدئ أن
براهها ثم يعتمد على هذا الكتاب في نقض إجماع الأئمة وأعلام العلماء الذين
كتبوا تاريخ جمال الدين ١٩ ! ...

تلك هي « مصادر » « دراسة » الدكتور لويس عوض عن جمال الدين
الأفغانى .. التي رجحها على كتابات محمد عبده ، ورشيد رضا ، وحسن
البنّا ، وابن باديس ، ومحسن الأمين ، وعبد القادر المغربي ، ومحمد
الحزومي ، وشكيب أرسلان ، ومصطفى عبد الرزاق ، ومحمد الفاضل بن
عاشور ، وعبد الله النديم ، وأديب اسحق ، وسليم نقاش ، وسليم
المنجوري ، وجرجي زيدان ، وسعد زغلول ، ومحمد إقبال ، وعباس
العقاد ، وأحمد أمين ، وعبد الرحمن الرافعي ، ومالك بن نبي ، ومحمود
قاسم ، وفيليب دي طرزي ، وريمان ، وراون ، وآدمز ، وبلنت ، وجولد
سيهر ... وغيرهم من العلماء والمفكرين والكتاب ١٩ ! ..

* * *

لقد شاءت المصادفة ، وأنا أقرأ « دراسة » الدكتور لويس عن الأفغانى .
أن أقرأ في صحيفة [الأهرام] - بتاريخ ١٩٨٣/٩/٢٨ م - نقلا عن
الـ [ديلي تلجراف] البريطانية - أن باحثا أمريكيا - هو الدكتور ريتشارد
شوارتز - قد طلب الاطلاع على « ملف » العالم الرياضى - صاحب النسبية -
ألبرت أينشتين [١٨٧٩ - ١٩٥٥ م] في « إدارة المباحث الفيدرالية
الأمريكية » .. فوجد أن تقارير المباحث تصور أينشتين في سنوات إقامته
بأمريكا - من سنة ١٩٣٢ حتى وفاته سنة ١٩٥٥ م - في صورة « العقل المنير

(٢٦) [جمال الدين الأمد آبادى] ص ٦٢ - ٧٥

وراء مؤامرة شيوعية تستهدف السيطرة على هوليدو والمسئول عن شبكة
نجس . تستخدم مكتبه في برلين . لتلقى رسائل جواسيس الاتحاد السوفيتي
على عنوانه إلى آخر ما في تقارير هذا « الملف » . البالغ عدد
صفحاته ١٥٠٠ صفحة ؟ ! . . .

ولقد تساءلت : ترى . هل يسمح « الضمير العلمي » للذين جمعوا
للدكتور لويس - في لويس انجليس - تقارير الجواسيس وملفات المباحث .
ليكتب - استنادا إليها - « دراسته » عن جمال الدين الأفغاني . . . هل يسمح
« ضميرهم العلمي » بكتابة تاريخ « أينشتاين » استنادا إلى « ملقه » في
« إدارة المباحث الفيدرالية الأمريكية » ؟ ! أم أن « الضمير العلمي »
مسموح له أن يأخذ « إجازة » إذا ما كانت « الدراسة » عن « أعلام العروبة
وقادة الإسلام » ؟ !

ثم تساءلت : إذا كان الدكتور لويس قد رفض السير على درب العلماء
الذين كتبوا عن الأفغاني . وارتضى لنفسه السير على درب الجواسيس .
عندما اعتمد تقاريرهم « مصادر » له « دراسته » فلم لم يرجع إلى « تقارير
جواسيس الدولة العثمانية » في « محفوظات الأستانة » أيضا ؟ !

لقد شملت « مخصصات » السلطان عبد الحميد للأفغاني . في سنوات
إقامته بالأستانة - إلى جانب المنزل والراتب والعربة التي تذهب به إلى « مترو
الكاغدخانة » - عددا من الجواسيس . . حتى لقد داعب جمال الدين
السلطان يوما . عندما طلب منه تخصيص عربة للجاسوس الذي يتبعه . لأن
الجاسوس يلهث - في حالة يرثى لها - خلف عربة جمال الدين ؟ !

فلم لم نر في « دراسة » الدكتور لويس أثرا لتقارير جواسيس
السلطان ؟ ! أم أن فرط إعجابه « بالغرب » . وازدراؤه « بالشرق » .
قد انسحب . أيضا . على الجواسيس ؟ !

تشكيك .. وافتراء ..!

كثيرون - ممن يحسنون الظن بالدكتور لويس عوض - قد أفلقهم ذلك المستوى ، البالغ السوء والبيّن الشذوذ ، الذي بلغته « دراسته » عن جمال الدين الأفغاني

ولقد كتب إلى فضلاء كثيرون - ثقة أعتز بها وتقدير أفخر به - يطلبون إلى جلالة وجه الحقيقة في الأمر ، بل ويستنفرونني لتقويم « دراسة » الدكتور لويس .. فالأستاذ الفاضل الدكتور الطاهر أحمد مكي - الناقد الأدبي ، وأستاذ الجامعة ، ورئيس تحرير مجلة [أدب ونقد] - يكتب إلى : « .. إن دراسة الدكتور لويس .. تثير كثيرا من التساؤلات .. ونود أن نعرف كلمة العلم .. » والكاتب الفاضل الأستاذ مصطفى تبيل - مدير تحرير مجلة [العربي] - يعبر عن الصدمة التي أصابت الأوساط السياسية والثقافية ، ذات التوجه القومي - [فما بالنا بالاسلامى ١٤] - من هذه « الدراسة » .. فيكتب إلى يقول : « أتصور أن مقالات الدكتور لويس - قد أثارتك مثلاً أثارتنا .. إنه لا يمكن أن نمر هذه المقالات بلا تعليق .. إنه ليس من المناسب أن نلوث بالوحل أحد رموز النهضة العربية الحديثة .. فذلك تأثيره على « المشروع العربي » .. لقد سبق واطلعت على كتيب صغير لمؤلفه يهودية ، صدر في لندن ، يردد ذات الأفكار التي يعالجها الدكتور لويس .. » ١٢

بل إن [التضايف] - وهي المجلة التي قبلت أن تنشر « دراسة » الدكتور لويس - بعد أن رفضت وسائل النشر بمصر نشرها - قد أدركت ما بها من خروج على « المؤلف » . فكتب إلى رئيس تحريرها ، الأستاذ فؤاد مطر ، في مارس سنة ١٩٨٣ م - أي قبل صدور المجلة - يطلب إلى الكتابة لها حول « دراسة » الدكتور لويس ! . وعندما نشرت [التضايف] تلك « الدراسة » قدمت لها بما يشبه التنفيل مما بها من أفكار . فكتب في التقديم لها - ضمن ما كتب - : إن الدكتور لويس « يتحمل اسمه تبعات رأيه . . . ومناقشته تبدو واجبا فكريا . . . » !؟ .

ولذلك فإن من « الحق » ، بل ومن « الواجب » أن تتساءل عن الأسباب التي بلغت « بدراسة » الدكتور لويس عن « جمال الدين » هذا الحد من « القبح المشين » ؟ !

وفي تقديري أن مرجع ذلك أسباب ، في مقدمتها :

١ - أن الدكتور لويس قد اشترك بهذه « الدراسة » في الوصول إلى تحقيق « غرض ثأري مهيت » . ولم تكن « الحقيقة الموضوعية » هي هدفه . ولا هدف الذين دعوه وهياؤوا له « الأوراق » التي استند إليها في الأحكام التي أصدرها على جمال الدين . . . لقد جاءت هذه « الدراسة » حلقة في المخطط الذي يتصدى لظاهرة « الإحياء الاسلامي » . لتهيل التراب على الرمز الذي ارتاد . في عصرنا الحديث ميدان هذا الإحياء . .

٢ - ولقد كان طبيعيا « لدراسة » هذا هو « غرضها » . أن تكون « مصادرها » هي « الأوراق » والتفارير والملفات ، التي كتبها الجواسيس والعلاء - من موظفي « المباحث » و« لأمدة الاستشراق » - صهيانية وأتباع صهيانية - . فهؤلاء ، وأمثالهم ، هم « كتبة التصدي الفكرى » لظاهرة « الإحياء الاسلامي » التي قادها جمال الدين الأفغانى !

فما كان « لغرض » « الدراسة » ولا لنوعية « مصادرها » إلا أن يثمر هذا « الشذوذ » الذي خرج به علينا الدكتور لويس - ولقد سبق « نقدنا » هذين العاملين . فبما تقدم من صفحات - أما القدر من « المعلومات » . التي اطلع عليها الدكتور لويس ، والخاصة بتاريخ جمال الدين الأفغاني وحركته الثورية التجديدية ، فلقد أفسدها - حتى بطوعها لخدمة « الغرض الشاري المبيت » ... أفسدها بما امتلأت به « دراسته » من « التشكيك » ... ومن « الافتراء » ! ٩ ...

٣ - ففيما يتعلق بـ « التشكيك » - ولوى عنق « الحقائق » و« المعلومات » . لتذهب فعاليتها . بل ولتعطى الأثر المعاكس لأثرها الطبيعي ... لا أعتقد أنني قد قرأت . من قبل . « دراسة » بلغت ما بلغته « دراسة » الدكتور لويس ... وإذا شئنا الأمثلة على ذلك . فلينظر معي القارئ العزيز في هذه المواطن والألوان التي سلكت أكثر الطرق « التواء » لتفضي إلى « التشكيك » فيما استقر من « حقائق » و« معلومات » عن جمال الدين الأفغاني :

● كل الأئمة والعلماء والأعلام الذين كتبوا عن الأفغاني قد أجمعوا على وضوحه وحسنه . حتى كأنه السيف المسلول في وضوح النهار ... بل لقد تحدث الامام محمد عبده عن افتقار الأفغاني إلى « المسaire والملاينة والكياسة » مع مخالفته وخصومه . وانتقد هذا الجانب في طبع أسناده . فقال - بعد الحديث عن إيجابيات طبعه - : « إلا أنه كان حديد المزاج وكثيرا ما هدمت الحدة مارفعته الفطنة » (١) ٩ ...

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٥٢

والأفغانى ذاته يحدثنا حديث الرافض « للتقية » - التى تجعل المرء يظهر غير ما يبطن لدواع براها - والداعى إلى الجهر بالرأى . مهما كانت المخاطر . ومهما تكن الظروف والملاسات . . يحدثنا الأفغانى عن رأيه فى هذه القضية فيقول : « لا أرى فى هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتابته لازماً إلا ما كان فى علانيته شينا ومعرفة . ولا يكون الكمال النسبى فى البشر إلا متى كثر إعلانهم وقل كتابتهم . فدولة تكتم عن أمها كل أمورها لا خير فيها . ولا هي بالدولة الأمية من أمانتها وحسن تصرفها . ورجل يرى كل شىء يقال له . أو يجب أن يقوله سرا مكتوباً . لا يرجى إلا نفاقه . وما هو بالرجل الرجل . ولا بشي رجلى . [ومن أحب فليعلن] . وأخيه هنا على مطلق المعنى . لكل شىء حق ومستحسن بالفطرة من أقوال وأفعال وصفات وذات .^{٢١} .

لكن الدكتور لويس بآنى إلا أن « يشكك » فى هذه الصفة من صفات الأفغانى . فيتهمه « بالغموض » و« التقية » و« ازدواج الشخصية » . بل وتعددتها . فيقول : « لقد انتشرت « التقية » بين الشيعة . ونشأ الأفغانى فى هذه التقاليد التى جعلت منه مزدوج الشخصية بل ومتعددتها . بمفصل الكلام والتعاليم بحسب من يخاطبه وبحسب ظروف الزمان والمكان .^{٢٢} »

والدكتور لويس يستعين . هنا . بالخلط لكى يصل إلى « التشكيك » و« التشويه » ! . ذلك أن الفرق بين والبعد شاسع بين « التقية » وازدواج الشخصية وتعددتها وبين مراعاة حال المخاطب ووضع ظروف الزمان والمكان فى الحساب . فرسولنا . عليه الصلاة والسلام يقول : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » ! . ولقد استقر واشهر فى تراثنا الفكرى أن

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٦

(٣) [التصامن] العدد ٢ ص ٧٠

« وحدة الحقيقة » لاتتمتع تعدد أساليب الوصول إليها ولا تعدد أساليب إبلاغها إلى الآخرين . وأن تعدد المستويات الفكرية للناس قد اقتضت وتقتضى تعدد وتنوع سبل البلاغ .. فهناك - كما تحدث ابن رشد - السبل « الوعظية » و « الجدلية » و « البرهانية » . التي تختص كل واحدة منها بنوعية من المخاطبين ! .. فأين هذه من « التقية » والباطنية .. وازدواج الشخصية « ١٤ » ! .. وأين « تشكيك » الدكتور لويس من « الوضوح والحسم » الذي تميز به طبع جمال الدين « ١٤ » .

● ولقد كانت حياة الأفغانى ودعوته وحركته التجسيد لمقاومة الشرق للعاصفة الاستعمارية التي هبت من الغرب فرحفت على وطن العروبة ودول الشرق وعالم الاسلام .. والذين قرأوا وبقراءة كتاباته . وخاصة في [العروة الوثقى] . يرون وضوحا في الهدف . وخبرة ممتازة بصراعات السياسة الدولية وتناقضات أقطابها . ومحاولة واعية ودائبة للاستفادة من هذه التناقضات لدفع الآثار المدمرة لعاصفة الاستعمار عن وطن العروبة وعالم الاسلام . ولتحقيق « الدولة النموذج » . التي تهض بالثقافة الاسلامية . وبثمرات العلم الحديث . فنستقطب شعوب الشرق ودوله في مواجهة التحديات .

تلك كانت رسالة جمال الدين في الحياة .. تجلوها كتاباته . وتؤكدها نضالاته .. ويجمع عليها أنصاره وأعداؤه دون استثناء ! ..

لكن الدكتور لويس عوض يأق « لبشكك » في هذه الحقيقة . بمجرد قلعه من كل آثار الدقة . بل والأمانة . ليحكم على الأفغانى - حيناً - بأنه كان « محامى روسيا في السياسة الأفغانية » ! - وحيناً آخر - بأنه « أثناء وجوده في كلكتا - [بالهند] - عرض خدماته على الحكومة البريطانية . ولكنها اعتذرت عن قبولها . مع الشكر ! .. » .

ورغم أن الدكتور لويس - فيما يتعلق بالاتهام الأول - يستند إلى « قصاصة ورق » كتبها حاسوس أفغانى يعمل لحساب الانجليز عن من يسميه « السيد الروسى » - الذى لا دليل على أنه جمال الدين الأفغانى ! - ورغم دعوة الدكتور لويس إلى الحيلة والحذر فيما يتعلق بتقارير الجواسيس عن خصوم الاستعمار .. إلا أنه لا يتورع عن استخدام « أداة التوكيد » : « إن » . واستخدام كلمة : « بوضوح » . ليؤكد نسبة الاتهام إلى الأفغانى . فتقول عبارته : « إن الأفغانى كان بوضوح محامى روسيا فى السياسة الأفغانية » .. ثم يعضى ليدعم هذه الشبهة بقوله : « إن بعض تصرفاته الغامضة المريبة تدعمها ! » .. وذلك دون أى ذكر لأى تصرف من هذه التصرفات « الغامضة والمريبة » ؟ ! ..

بل إن الدكتور لويس يوغل فى سبيل « التشكيك » . حتى يبطل قارئه متضيق من ذهنه « الحقيقة » ضباعا كاملا . يوغل فى ذلك إلى الحد الذى يجعله « يشكك » فى عمالة الأفغانى للروس . ولكن بالإنهاء يعاك للعثمانيين ! . فيقول : « إننا قد ننتهى إلى أن جمال الدين كان فى نهاية الأمر يخدم مصالح الخلافة العثمانية . مستقار كضاح مسلمى آسيا الوسطى . بما يمكن مستقبلا من وحدة العالم الإسلامى تحت الخلافة العثمانية » ! ..

إن الهدف هو « التشكيك » فى عداء الأفغانى للاستعمار .. ولما كان إنكار « حقيقة » عدائه للاستعمار سيجد مقاومة لدى القارئ . فليكن « التشكيك » هو السبيل لإغراق « الحقيقة » فى بحر من « الاحتمالات » .. من مثل تلك التى تحصلها عبارات الدكتور لويس عن الأفغانى : « هل كان حقا عميلا للروس . كما توحي الوثائق البريطانية ؟ » . أم أنه كان مجرد سياسى فاشل . وه رفيق طريق « يرى أنه لا خلاص للمسلمين من براثن الانجليز إلا بالتعاون مع روسيا ؟ » . أم أنه كان مثاليا حالمنا يخطط لاستقلال الهند المسلمة

وروسيا المسلمة ويحاول أن يمهّد - بالعمل السياسي وبالفكر - لوحدة
إسلامية كبرى ١٩! ...»

تشكيك ... واحتمالات ... وعلامات استفهام ... هدفها طمس حقيقة
عداء الأفغانى للاستعمار ...

أما فيما يتعلق « بالاتهام » الثانى - سعى الأفغانى ليعرض خدماته على
الانجليز - . فرغم أن « مصدر » الدكتور لويس هو « إشارة » في تقرير
جاسوس انجليزى كتب عن الأفغانى لحكومة الهند الانجليزية سنة
١٨٩٦ م ... ورغم أن هذه « الإشارة » لا تعدد طبيعة هذه « الخدمات » ...
فإن الدكتور لويس يتطوع « بالتكهن » - أى والله « بالتكهن » - فيقول :
« ... ونستطيع أن نتكهن بأن الخدمة التى عرضها الأفغانى على الحكومة
البريطانية . فى الهند . هى أن تعيده إلى مصر لإطفاء الثورة العربية وتأيد
الخدوى توفيق ... » (١) ١٩! ...

يتكهن الدكتور لويس بهذا التكهن ... بالرغم من سبل الحقائق
والمعلومات التى تواترت عن عداء الأفغانى للاستعمار الانجليزى فى كل
مكان ... وبالرغم مما كتبه الكتائبون عن هذا العداء الذى بلغ حدا جعل
البعض يظن أنه عداء « لجلس الانجليز » . فسألوا الأفغانى عن ذلك .
فحدد أنه موجه للاستعمار الانجليزى . لا للأمة الانجليزية (٢) ١٩! ...
ورغم النصوص التى أوردتها الدكتور لويس نفسه فى « دراسته » . تقلاص
« بست » وعن السياسة الانجليزية ومراسلى جريدة « التايمز » الانجليزية . وكلها

(١) [التضامن] العدد ٤ ص ٧٦ . ٧٨ . والعدد ١٥ ص ٦٦

(٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٦٣ . ٤٦٤ .

تؤكد عداء الأفغانى للاستعمار الانجليزى ومحاربه له فى كل البلاد وفى جميع
البياديين !..

إن الدكتور لويس يوغل فى « درب التشكيك » إلى الحد الذى يجعله
يذكر الشىء ، وتقبضه ، ليبلل القارئ فى « الحقيقة » حقيقة عداء الأفغانى
للاستعمار .

ففيما يتعلق بخلع الخديوى اسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ - ١٨٣٠ -
١٨٩٥ م] عن عرش مصر سنة ١٨٧٩ م .. ينقل الدكتور لويس عن أدب
اسحق أن هذا « الخلع » كان قد تقرر من قبل إنجلترا وفرنسا والدولة
العثمانية . وأن سعى جمال الدين الأفغانى . على رأس [الحزب الوطنى]
المصرى إنما كان ليخلف الأمير « توفيق » - الذى كان يبدى ميله لتعاليم
الأفغانى - أباه « اسماعيل » ، بدلا من الأمير « حلیم » - الذى كان مع
فرنسا .. ينقل الدكتور لويس هذا .. ثم يعود فيتهم الأفغانى بأنه هو الذى
« قاد شرذمة من أعضاء الحزب الوطنى » من الاصلاحيين المحافظين الموالين
لمحور تركيا - إنجلترا . فعجل بالأجهزة على اسماعيل . وعلى استعاضته الوضبة
الدستورية ، زائفة كانت أم مخلصه .. » (١٦) ١٤

فكيف يتم [الحزب الوطنى] بأنه هو الذى عجل بالأجهزة على
الخديوى اسماعيل .. مع الاعتراف بأن « الخلع » كان قد تقرر . قبل تحرك
[الحزب الوطنى] ١٤ .. ومع الاعتراف بأن هذا التحرك كان خاصا من
يخلف اسماعيل ١٤ . ثم ما هي حيليات اتهام [الحزب الوطنى] بالتحافضة .
وموالاة محور « تركيا - إنجلترا » ١٤ .. أليس هذا هو حزب « منصر
للمصريين » ١٤ .. وحزب الثورة العراقية ١٤ .. أليس هذا الحزب هو عدو

التدخل الأجنبي في مصر - والذي كان الانجليز في الأساس ١٩
 وفيما يتعلق بموقف الأفغان من الاستعمار الانجليزي . أثناء إقامته بالهند .
 بعد أن تسبب الانجليز في نفيه من مصر سنة ١٨٧٩ م . . . يتهم الدكتور لويس
 الأفغان بمهادنة الانجليز . . . وبأن نشاطه لم يكن فيه ما يغضبهم أو بلغت نظر
 جواسيسهم . . . ولقد صيقت إشارتنا إلى اتهامه له بعرض خدماته
 عليهم ! . . . لكنه يعود فيعترف - عندما يتقل عن « بلنت » - أن آراء
 الأفغان المعادية للانجليز لقيت « الطباخا حسنا » عند الزعيم الاسلامي عبد
 اللطيف . . . وأن وضوح هذه الآراء وحدة هذا العداء قد بلغا إلى الحد الذي
 جعل « مولاي عبد اللطيف » يخاف على نفسه من لقاء الأفغان مخافة غضب
 الانجليز . « ١٩ »

وبعد أن يعترف الدكتور لويس - نقلا عن « كتاب القاضي عبد
 الغفار » - أن « الانجليز قد وضعوا الأفغان تحت المراقبة . . . وأنه كان محدد
 الإقامة » . . . يعود فيشكك في الهدف من نفيه إلى الهند . أثناء صراع الانجليز
 ضد الثورة العربية . فيقول : « أما لماذا سمح الانجليز للأفغان أن يقيم في
 الهند ، يعد أن طرده من مصر . فأمر غير مفهوم . فقد كان في إمكانهم أن
 يشحنوه - [كذا !] - إلى بلاده في إيران . ربما ليضعوه تحت المراقبة . أو
 ربما لأنه موصى عليه من الباب العالي . صديق الانجليز في تلك
 الفترة » (٧) ١٩

لقد نقل ما يؤكد عداء الأفغان للانجليز عندما كان منقبا بالهند . . وكيف
 كان هناك مراقبا محدد الإقامة . . . ثم عاد ليشكك في الموضوع . وليوهم
 القارئ بأن الأمر كان مجرد مسرحية مثلها الانجليز مع الأفغان . تنفيذ الوصية

(٧) [التضمن] العدد ١٥ من ٦٤ . ٦٥ . ٦٦

صديقهم - « في تلك الفترة » - السلطان العثماني ! - وذلك دون أن يسأل الدكتور لويس نفسه : هل كان السلطان العثماني صديقا للانجليز في الفترة التي كانوا يتزعجون فيها مصر ؟! .. وهي التي فجر احتلالها كل تناقضات العثمانيين مع الانجليز ؟! ..

بل وبمضى الدكتور لويس ليعلل أسباب نفي الانجليز جمال الدين الأفغاني من مصر إلى الهند . فيكشف لنا . لا عن « تناقضه » فقط . بل وعن « قلة في المعلومات » . نستحي أن نسميها « جهلا بأبسط الحقائق والمعلومات » ؟! .. يقول : « وفي تقديرى أن قرار الانجليز بإبعاد الأفغاني إلى مصر يرجع إلى عاملين :

- ١ - أنهم أدركوا أن الأفغاني يعمل لحساب الباب العالي مباشرة .
- ٢ - أن الأفغاني خرج من حلقات المثقفين والمناورة مع سادة البلاد إلى خط جديد منسق غالبا مع « تركيا الفتاة » وإصلاحى تركيا . يقوم على الإرهاب المتمثل في مؤامرات الاغتيال . وعلى تحريك الشارع . على غرار ماكانت تفعله الجمعيات السرية المألوفة في أوروبا في ذلك الزمان (القوضويون . والنيلست) .. » (٨)

ونحن نقول : إن الدكتور لويس لو كان يحترم الحقيقة . ويحترم عقل قارئه لما كتب ما كتب ..

(أ) لقد سبق وحكم أن نفي الأفغاني إلى الهند كان بتوصية من الباب العالي لأصدقائه الانجليز . ثم هاهو يذكر أن النفي قد حدث لأن الانجليز قد أدركوا أنه يعمل لحساب الباب العالي مباشرة . وفي مكان آخر أورد نص تقرير القنصل الانجليزى بالقاهرة . الذى يتحدث فيه عن حادثة النفي .

(٨) [التضامن] العدد ٨ ص ٦٢

وفيه يقول : « إن الأفغانى قد حظرت عليه الإقامة في أى من أجزاء
الامبراطورية العثمانية » (٩) فكيف تتفق هذه المناقضات الثلاث ١٢
(ب) وهو يذكر أن الأفغانى يعمل لحساب الباب العالى مباشرة . ثم
يذكر . في ذات الفقرة . أنه يعمل مع « تركيا الفتاة » وإصلاحى
تركيا . ويغفل . أو يتغافل عن أن « تركيا الفتاة » وإصلاحى تركيا
هؤلاء هم أعداء الباب العالى . الذى قال إن الأفغانى يعمل مباشرة
لحسابه ١٩ ..

(ج) والدكتور لويس يتحدث عن تقي الأفغانى من مصر سنة
١٨٧٩ م . ويعتله بتنسيق الأفغانى مع « تركيا الفتاة » . وذلك دون أن
يكلف نفسه مؤونة سؤال أهل الذكر عن تاريخ نشأة « تركيا الفتاة » ٢٠
تلك التى بدأت جنينا في صفوف الطلاب الأتراك في جنيف سنة ١٨٩١ م -
في رأى أوفى سنة ١٨٩٤ م - في رأى آخر - ثم هى لم يعرف لها نشاط داخل
الدولة العثمانية إلا في العقد الأول من القرن العشرين . أى بعد وفاة جمال
الدين الأفغانى بسنوات طويلة ٢١ فكيف نسق الأفغانى نشاطه . أثناء
إقامته بمصر - في سبعينات القرن التاسع عشر - مع جماعة هى من ثمرات
القرن العشرين . عندما كان في رحاب مولاه .

(د) كذلك لم يسأل الدكتور لويس نفسه - ولو من باب الاحترام لعقل
القارئ - كيف يكون التنسيق بين دعوة « الجامعة الاسلامية » - التى هى -

(٩) [التضامن] العدد ١ ص ٥٥

(١٠) فيليب حتى [تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين] ج ٢ ص ٣٥٠ طبعة بيروت سنة
١٩٥٨ م . ولويسكى [تاريخ الأقطار العربية الحديث] ص ٣٩٤ طبعة موسكو سنة

١٩٧١ م

كما يقول - الخط الأصيل في تفكير الأفغانى السياسى ^(١١) - وبين دعوة
 « تركيا الفتاة » - التى تعنى سيطرة القومية الطورانية على دولة الخلافة ؟ ...
 كيف . بالله . يمكن أن يتم هذا التنسيق . على فرض المستحيل . وهو وجود
 « تركيا الفتاة » فى عصر جمال الدين ^(١٢) ...

● ولما كان شهود العصر وأئمنه ومؤرخوه وعلماؤه الأعلام قد أجمعوا على
 اعتبار جمال الدين وتفردّه وتميزه . فى كل موطن عاش وناضل فيه . فلقد
 شق الدكتور لويس على نفسه وعلى الحقيقة وعلى قرائه كى « يشكك » فى
 قيمة وأهمية جمال الدين ! ...

(أ) فالمحاضرة التى ألقاها الأفغانى عن « الصناعات . وفلسفتها » فى
 (دار الفنون) بالآستانة ..

والتي سببت أزمة عنيفة مع « مشيخة الاسلام » العثمانية . انتهت بنفى
 جمال الدين من عاصمة الدولة العثمانية .. هذه المحاضرة - وما أحدثته من
 أحداث وجدل وصراع - يتفهّمه الدكتور لويس من شأنها . فيقول : « وغير
 صحيح بأن محاضراته الثورية . مسببة الأزمة . أقامت الدنيا وأقعدها - كما
 صور - وإنما كانت مجرد فقاعة فى البحر الثقافى التركى سرعان
 ما انفثت .. » ^(١٣) ..

ونحن إذا جعلنا « دراسة » الدكتور لويس مصدرنا الوحيد . وذهبنا
 لجمع منها الآثار وردود الأفعال التى أحدثتها هذه المحاضرة .. فسنعجز
 ١ - أن شيخ الاسلام العثمانى حسن أفندى فهمى قد طلب من الصدر
 الأعظم عالى باشا إصدار الأمر بطرد الأفغانى من البلاد .. ولقد استجاب
 الصدر الأعظم لذلك فصدر أمر الطرد ..

(١١) [التضامن] العدد ٦ ص ٦٨ .

٢ - أن أمرا سلطانيا صدر من السلطان عبد العزيز [١٢٤٥ - ١٢٩٣ هـ ١٨٣٠ - ١٨٧٦ م] بفصل جمال الدين الأفغاني من « مجلس المعارف » العثماني .. وبفصل مدير الجامعة - [دار الفنون] - تحسين أفندي كذلك !

٣ - أن لجنة من هيئة كبار العلماء قد شكلت لإصدار الحكم على الأفغاني وإصدار الفتوى بحكم « الشرع » - كما نراه مشيخة الاسلام العثمانية - في محاضرته .. وأن رأى هذه اللجنة وحصول مداولاتها قد صدر . في صورة كتاب عنوانه [السيوف القواطع] ، وعليه اسم أحد أعضائها - خليل فوزي - في سنة ١٨٧٢ م .. وفيه حديث عن مهمة اللجنة ، التي تشكلت للرد على « زندقة » الأفغاني .. وعن الكتاب ، الذي هو ثمرة لمداولاتها . والذي كتب تنفيذا لأوامر الخليفة السلطان لنصرة الدين وتسفيه « الفلاسفة الحفراء » .. والنتيجة التي وصل إليها « شيوخ الرجعية العثمانية » هي أن الأفغاني مرتد ، وإذا لم يعلن توبته فقد حق قتله !^(١٢)

٤ - أن الصحافة الأوربية في استانبول - وليس التركية والعربية فقط - قد خاضت عذاب المعركة التي أثارها هذه المحاضرة^(١٣) ..

٥ - وأخيرا .. استمرت هذه المحاضرة تثير ردود الأفعال ، فيكتب الشيخ مصطفى المغربي رسالة عنوانها : [عين الصواب في الرد على من قال إن الرسالة والنبوة صعبتان تنالان بالاكْتِسَاب] يشر إليها ابنه الشيخ عبد القادر المغربي - نلميذ الأفغاني - الذي برأ الأفغاني مما اتهمه به أبوه^(١٤) !
يذكر الدكتور لويس كل هذه الوقائع التي مثلت أحداثا وردود أفعال

(١٢) [التضايف] العدد ٥ ص ٦٨ - ٧٠ .

(١٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ج ١ ص ٣٢

للمحاضرة الأفغانى عن « الصناعة وفلسفتها » لكنه كنى « يشكك » في أهمية الأفغانى ويقلل من قدره . يقول عنها إنها « مجرد فقاعة في الجو الثقافى التركى سرعان ما انفثت .. » (١٢) ترى ماذا كان يريد لهذه « المحاضرة » أن تصنع . حتى لا تكون « مجرد فقاعة » ؟ هل كان يريد لها أن « تقلب نظام الحكم في دولة آل عثمان » (١٣) ..

● والدكتور لويس عوض يذكر في « دراسته » : « إجماع محمد عبده وأديب إسحق وسليم العنحورى وجرجى زيدان . وعامة معاصرى الأفغانى : من المصريين وأبناء البلاد العربية على ثلاثة أشياء : الأول : هو دور الأفغانى الكبير بين المثقفين والعامة في خلع الخديوى اسماعيل ..

والثانى : هو دور الأفغانى الكبير بين المثقفين في التمهيد للثورة العربية .. والثالث : هو دور الأفغانى الخاص في حركة التحرير المصرية . إلى جانب دوره العام في حركات التحرير الاسلاميه في مواجهة الاستعمار البريطانى على وجه التخصيص .. » (١٤)

يذكر الدكتور لويس هذا الإجماع على أهمية دور الأفغانى وتفرداه وامتيازاه وريادته في هذه الميادين .. وهو إجماع شهود العصر ورجالاته وأعلامه الذين عاصروا الأفغانى . بل وشاركوه صنع الكثير من الأحداث في هذه الميادين .. لكن الدكتور لويس يمتضى على درب « التشكيك » متهمًا القدرة على هدم هذا « الإجماع » ! ..

ونحن نعلم أن « الشك » فيما أجمع عليه علماء عصر من العصور أو اتفق عليه مفكروه ليس منكرا من القول ولا زورا . فـ « الشك »

(١٤) [التضامن] العدد ٧ ص ٦٢ .

المنهجى . . الذى هو طريق التفكير إلى « البقين » أمر مشروع . بل
ومطلوب . . لكن الذى صنعه الدكتور لويس كان شيئا مختلفا ومخالفا . . إنه
« الشك العميق » . بل « التشكيك » الذى بلغ حد الهدم والنقض
للحقائق التى اضطرت الدكتور لويس . أحيانا . إلى الاعتراف بها أو إلى
إبرادها إذا كانت منصفة لسيرة جبال الدين ؟ !

(أ) فى حديثه عن خطبة الأفغانى بقاعة « ريزنيا » بالاسكندرية ،
يذكر أن « أهم ما جاء فى هذه الخطبة هو :
إبراز الأفغانى لدور « القوميات » فى نهضة الأمم
وإدائه للمتعب الذى . .
واستبداد الحكام . .

ودعوته لإنشاء تنظيم سياسى . هو الحزب الوطنى . ليحمى النظام
النيابى

ودعوته لحرية الاجتماع ، وحرية الصحافة
وتعليم المرأة . .
والأخذ . عامة . بأسباب القوة والتقدم فى الحضارات الأجنبية

هذا هو تلخيص الدكتور لويس لمحاضرة الأفغانى فى « ريزنيا » . .
والذين يتأمنون هذه « المحاور » التى دارت حوها هذه الخطبة لابد مندركون
لمبلغ ثورتها وتقدميتها ، بمثابة مجتمعاتنا المعاصرة . فما نالنا بهذه
اجتماعات فى سبعينات القرن الماضى أى منذ أكثر من قرن من
الزمان ؟ !

لكن الدكتور لويس ، بعد ذكره لأفكار الأفغانى الثورية هذه ، يعود .

في الصفحة التالية من «دراسته» . لينفى عن الأفغانى شرف «الثورية» .
بلى وليتهم «بالاندماج في الحركات الوطنية والتقدمية المصرية كى يحكم
جنوحها إلى التطرف الراديكالى» . «١٤» (١٦)

وهنا نقساءل : أية «راديكالية» تلك التى تتجاوز - فى مثل تلك البيئة
وذلك التاريخ - ذلك «البرنامج الثورى» الذى طرحه جمال الدين ؟
ولكنه «التشكيك» !...

(ب) وإذا كان المؤرخون قد أجمعوا - ومن قبلهم زعماء الثورة العراقية
وخصومها - على دور الأفغانى فى التمهيد لهذه الثورة ، إن فى الفكر أو فى
تربية القيادات التى فجرتها وفادتها . فإن الدكتور لويس يذهب فى
«التشكيك» بهذه الحقيقة لا إلى حد إنكارها فقط . بلى وإلى محاولة إثبات
تفويضها ! يقول : «غير صحيح ما يتخوله محمد عبده وغيره من أن دور
الأفغانى فى تحريك الفكر المصرى كان أهم عامل فى إشعال الثورة العراقية بلى
على العكس من ذلك . لقد أدت أفكار الأفغانى العثمانية إلى استقطاب
ذلك الجناح المحافظ بين مجاهدى الحزب الوطنى الحر ثم مجاهدى الثورة
العراقية بما أحبط الثورة العراقية بتوجيهها فى مسارات دينية بدلا من تعميق
جذورها المصرية» (١٧) «١٤»

إنه يحلل الأفغانى مسئولية فشل الثورة العراقية . بدلا من العزو
والاحتلال الانجليزى الذى حارب جيش الشعب بقيادة عزالى وهزمه
مستعينا بالخيانة ! . فبدلا من إلقاء المسئولية . فى فشل الثورة . على الانجليز
والخونة . يذكر عبارة غامضة تجعل الفشل ناتجا عن «توجيه الثورة فى

(١٦) [التصامن] العدد ٩ ص ٦٠ .

(١٧) [التصامن] العدد ٩ ص ٥٨ ، ٥٩ .

مسارات دينية بدلا من تعميق جذورها المصرية « ١ » .

وهنا لابد من التساؤل : ماهي « هذه المسارات الدينية » ؟
إننا نعلم أن الثورة العربية قامت وهزمت وهي ترفع شعار : « مصر
للمصريين » .. بمعنى : العداء للتدخل الأجنبي والتهب الخارجي . الذي
كان أوربيا في الأساس .. وهذا هو جوهرها ومحتواها الوطني .. وأنها قامت
وهزمت وهي مخصصة للحرية والديمقراطية والدستور .. وهذا هو جوهرها
ومحتواها الديمقراطي .. وأنها قد قامت وهزمت وهي محسدة لأروع صور
« الوحدة الوطنية » بين طوائف الأمة ومذاهبها الدينية .. في « المجلس
العرق » .. برلمان الأمة الثالثة - قد ضم أربعائة من قادة الأمة . بينهم كل
المثاليين الروحانيين لجميع الطوائف الدينية . مسلمين ومسيحيين - بكل
طوائفهم - ويهود ^{١٨٨} .. و« البند » الخامس في برنامج [الحزب الوطني
الحر] - حزب الثورة العربية - يتحدث عن « الوحدة الوطنية » لأبناء
الأمة . على اختلاف عقائدهم الدينية . فيقول : « الحزب الوطني حزب
سياسي . لا ديني - (بمعنى أنه غير طائفي) . وليس بمعنى أنه ضد
الدين ! » - فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب . وجميع
الانصارى واليهود . وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه .
لأنه لا يخطر لاختلاف المعتقدات . ويعلم أن الجميع إخوان . وأن حقوقهم
في السياسة والشرائع متساوية . وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الأهرار
الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أن الشريعة المحمدية الحقنة تنهى عن
البغضاء . وتعتبر الناس في المعاملة سواء . (^{١٨٩}) !

(١٨) سليم نقاش [مصر للمصريين] ج ٥ ص ١٣٠ طبعة الاسكندرية سنة ١٨٨٤ م

(١٩) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ١ ص ٣٦٩

فإذا علمنا أن الذي صاغ هذا البرنامج هو الشيخ محمد عبده . تنميد الأفغانى ومريده . زاد التساؤل إلحاحا عن ذلك « الخناج المحافظ » - في الحزب الوطنى - الذى يقول الدكتور لويس إنه - نبعاً للأفغانى - قد قاد الثورة العرابية إلى « المسارات الدينية التى أحبطتها » ١٢ .

لكنه « التشكيك » فيما عدا ، فى تاريخنا ، بديهيات مثلت وتمثل صفحات مشرقة فى ذلك التاريخ ١٣ .

بل إن الدكتور لويس يذهب . على هذا الدرب . إلى حدود « الافتراء » على الأفغانى افتراء يستفز كل صاحب ضمير . إنه يتهم الرجل - الذى كان منقبا . محدد الإقامة . ومراقبا من قبل الانجليز . باغتناء أثناء الثورة العرابية - يتهمه بالمسئولية عن « المنشور السلطانى » الذى أعلن « عصيان عرابى » فى سبتمبر سنة ١٩٠٢ م ١٤ .

يقول الدكتور لويس - فى فترة لم ننشرها [النضام] - ورجعنا فيها إلى أصل « دراسته » ص ١٠٧ - : « ومن يدرس تاريخ الثورة العرابية يعرف أن « منشور العصيان » وإعلان خروج عرابى ورجاله من مكة والدين . حين كانت جيوش الانجليز تطرق أبواب القاهرة كان من طبيعة الأشياء التى كان الأفغانى يدعو إليها .. » ١٥ .

أما كيف ؟ فلا يذكر الدكتور لويس أية حيليات لهذا « الافتراء » ١٦ . وهنا نتساءل : هل الرابطة - رابطة الجامعة الاسلامية - التى أرادها الأفغانى بين مصر وبين الخلافة العثمانية . كانت من أجل مواجهة الاستعمار الأوروبى - الذى تصدت له الثورة العرابية - ؟ أم أنها كانت من أجل تسهيل مهمة هذا الاستعمار - كما حدث ووظف له « منشور العصيان » ١٧ .

وإذا كان الدكتور لويس لم يقرأ نص « منشور العصيان » - كما يبدو - أو

قرأه ثم أضاف إليه من عنده: « فإثنا تقول له : إن « المنشور » لم يذكر
 « خروج عراقي ورجاله من مكة والدين » . وإنما ذكر في البند الخامس -
 عبارة « بناء على ما تقدم » بحسب عراقي باشا وأعوانه عصاف . ليسوا على
 طاعة الدولة العلية السلطانية ^(٢٠) . ونحن إذا نحنا الغباء السلطان
 والتخاذل العثماني « جبالنا » أبصرنا دور « الخداع الانجليزي » في صدور هذا
 المنشور . فلقد كان اعلانه شرطاً انجليزيا لدخول الجيوش العثمانية لمصر .
 كبديل للجيوش الانجليزية . فلما صدر المنشور . فأضعف موقف عراقي
 والثورة . تشددت انجليزاً في شروطها . بأن طلبت عدم دخول الجيوش
 العثمانية إلى الاسكندرية وبورسعيد والسويس ، وبقاءها في دمياط ورشيد
 وأبي قير . بل وطلبت أن تكون قيادة الجيوش العثمانية للجنرال الانجليزي
 « ولسلي » ! . ولقد رفض السلطان الشروط الانجليزية . فتم به الاتفاق .
 واستفاد الانجليز من « منشور العصيان » . وتجاوزوا ظرف السماح بالتدخل
 العثماني كي لا يكون بديلاً لاحتلالهم مصر . ولقد تعللت انجليزاً بأنها ضببطت
 كتاباً مرسلًا من السلطان إلى عراقي . وأعلنت أن العلاقات لم تزل مستمرة
 بين عراقي والآستانة . بالرغم من مناداة السلطان بعصيان عراقي ورجاله
 وقالت « التايمز » الانجليزية : « إن هذا الكتاب لو نشر لكان له تأثير
 عظيم ^(٢١) » .

فهو . إذن . « الغباء السلطاني والضعف العثماني » و« الخداع
 الانجليزي » . وليس فكر جمال الدين الأفغاني - المنشور عن « منشور
 العصيان » .

(٢٠) [مصر للمصريين] ج ٥ ص ٢٠٦

(٢١) [مصر للمصريين] ج ٥ ص ٢٠٦ - ٢٠٣ .

ثم .. ألم يقرأ الدكتور لويس ما كتبه الأفغانى فى [الإعروة الوثقى] إدانة
 هذا المنشور ١٩!.. لقد كتب يقول : « إن على الدولة البريطانية أن تذكر أنه
 لولا فرمانها بعصيان عراى لما سهل للانكليز أن يدخلوا أرض مصر . ولا
 أصابوا هذه الغنمة باردة . فلتنظر إلى قوتها ونفوذها ، وتلاحظ أن الحل
 على من عقد . والعقد على من حل .. وعليها ألا تغفل عن النمسا وشرها ،
 والروسيا وطمعها ، وفرنسا وآمالها . فمن الأمور الطبيعية أن المنافسة أو الموازنة
 تدعو الأقران إلى التسابق فى الأطناح . وإذا فرط منساهل فى ملته فليس يجاد
 منهم فيما بعد عونا » ١٩ . (٢٢)

وإذا كان الدكتور لويس لم يقرأ هذا الذى كتبه الأفغانى إدانة لـ « منشور
 العصيان » . فلم لم يتأمل ما أورده هو ، فى « دراسته » . نقلا عن
 « بلنت » ، الذى ذكر أن جمال الدين قد وضع - فى مفاوضاته مع الانجليز
 لإنقاذ « غوردون » المحاصر من قبل مهدي السودان فى الخرطوم . وحل
 المشكل السودانى - قد وضع ضمن شروطه شرط « إعادة عراى من المنفى »
 إلى مصر (٢٣) ١٩!..

ولكنه « التشكيك » ، الذى يغفل - بل ويتغافل - عن الحقائق . حتى
 يصل إلى حد « الافتراء » !..

(ج) فإذا ما تعلق الأمر بالمكانة العامة للأفغانى بمصر . وبدوره القيادى
 فى مجتمعها أثناء إقامته بها ، لم يتوان الدكتور لويس عن الإسراع للتهوين من
 شأن الرجل .. فهو يورد فقرات من التقرير الذى كتبه القنصل الانجليزى
 بمصر « السير فرانك لاسيلز » إلى وزير خارجيته اللورد سالسبورى ، فى ٣١

(٢٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ٢ ص ٦٨

(٢٣) [التضا من] العدد ٢١ ص ٦٢ .

أغسطس سنة ١٨٧٩ م بخصوص نبي الأفغانى من مصر . فنقرأ فيه - وصفا للأفغانى - هذه العبارات : « .. وجهال الدين ، فيما يبدو ، رجل ذو طاقة ضخمة وصوله كبيرة كخطيب . وقد استحوذ تدريجيا على قدر من التأثير سامعيه فكان مصدر خطر . وفي العام الماضى قام بدور إيجائى فى إلهاب الشعور المعادى ضد الأوربيين . وبصفة خاصة ضد الانجليز ، الذين يحمل لهم كراهة عميقة .. إن جهال الدين سبق نفيه من وطنه . ومن مدراس . ومن مدينة الجزائر . ومن استانبول على التعاقب . وقد حظر عليه الإقامة فى أى جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية .. »

تلك هى صورة الافغانى ، كما صورها القنصل الانجليزى .. وهى صورة القائد الذى يقود الأمة . والذى يتناصبه الاستعمار وتناصبه الرجعية العداء الشديد . إلى الحد الذى جعلوا حياته نغيا وتشريدا دائماين .. ومع ذلك نجد الدكتور لويس يعقب على هذه الأقوال - لافض فوه .. ولاحرمانا من « أمياته » - فيقول : « ماذا نستخلص من كل هذه الأقوال ؟ نستخلص أن جهال الدين الأفغانى . فى قمة نشاطه فى مصر سنة ١٨٧٩ م لم يكن علما من أعلام البلاد أو زعماء بارز المكانة فى الحياة المصرية .. »^{١٢١} ١٢

تلك هى « الخلاصة » التى « استخلصها » الدكتور لويس من تقرير القنصل الانجليزى عن جهال الدين !..

(د) وحتى « الذمة المالية » للأفغانى لم تسلم من « تشكيل » الدكتور لويس !..

إن الذين عاصروا الأفغانى وعاشروه قد أجمعوا على أنه قد عاش « درويشا فقيرا » لا يقيم وزنا لعرض الدنيا . حتى لقد عدل عن أن يصحب

معه وداء بدبلا . بعدما تكرر نفيه من بلد إلى بلد . فكان إذا حلفت ثيابه
استبدلها بأخرى ! .. وكتب الإمام محمد عبده عن هذا الجانب من حياته
فقال : « .. وهو كريم يبذل ما بيده .. عظيم الأمانة .. قليل الحرص على
الدنيا . بعيد عن الغرور بزخارفها . ولوع بعظام الأمور . عزوف عن
صغارها . شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ! .. » ولقد قرأ
الدكتور لويس هذا الوصف .. وأورده في « دراسته » .. ولكنه سلك - هذا
أيضا - سبيل « التشكيك » في « الذمة المالية » للرجل .. وكتب يتساءل :
« من أين للأفغانى بكل هذه النفود حتى يساعد كل هؤلاء المهاجرين الشوام
على إصدار كل هذه الجرائد وتأسيس كل هذه المطابع ١٢ .. » ثم لا يلبث
أن يقطع بأن « مصدر التمويل كان الباب العالي بصفة أساسية . وفرسا
بصفة فرعية .. » وهو يقطع ويؤكد . استنتاجا . ودونما دليل !

ومن « الحف » و « الواجب » أن نسأل : هل أسس الأفغانى مطابع
للمصحف التى ساعد على إصدارها في مصر ؟ .. إن صحيفة [مصر] صدرت
من « دكان في حي باب الشعرية » الشعبي .. كما صدرت [العروة الوثقى]
من غرفة على سطح المنزل رقم ٦ في شارع « مارسيل » بباريس .. ولم تكن
هناك « المطابع التى تأسست » . والتي يتحدث عنها الدكتور لويس ..
والذى يزيد من غرابة « العقلية المباحثة » التى يتحدث بها الدكتور لويس
عن « التمويل » للمصحف الشعبية التى ساعد الأفغانى على صدورها .. أن
الدكتور لويس قد عاش حقبة من التاريخ المصرى - فيما قبل ثورة ٢٣ يوليو
سنة ١٩٥٢ م - كانت الصحف الشعبية تصدر فيها بالقروش التى يتبرع بها
الفقراء .. ومع ذلك فعلت هذه الصحف ما لم تفعله صحافة المطابع
والمؤسسات .. فلم هذا الغبار المثار في غير موضع . وبلا سبب من
الأسباب ١٢ !

ثم : إن الجميع يعلم . علم اليقين . أن افتراق محمد عبده عن الأفغانى
 فى سنة ١٨٨٥ - بعد توقف [العروة الوثقى] . قد كان لاختلاف تصور كل
 منهما « لسبيل » تحقيق الأهداف المتفق عليها . والدكتور لويس يلم
 « بالطابع الفكرى » للخلاف بين الرجلين . ويقول : « نحن نعلم . على
 وجه اليقين . أن خلافاً نشب بين الأفغانى ومحمد عبده فى أواخر فترة « العروة
 الوثقى » . وهو خلاف ذو طابع فكرى . لأنه خلاف بين منهجين . منهج
 المفكر محمد عبده . ومنهج السياسى الأفغانى . كلاهما أراد تجديد شباب
 الاسلام وتحوير العالم الاسلامى . ولكن على طريقته . » (٢٥)

لكن الدكتور لويس لا يجهلنا كفى نهياً بهذا التلويح الموضوعى لخلاف
 محمد عبده مع الأفغانى . . فيسرع - وفى ذات الصفحة من « دراسته » -
 ليتساءل عن السبب - الذى سبق وقطع « ييقين » أنه فكرى - يتساءل .
 مشككاً : « هل كان بسبب خلاف على المال ؟! » ثم لا يتورع عن أن
 يعضي ليقول : « إن كل الأموال كانت تصب فى جيب الأفغانى . وهويتوى
 الإنفاق » . وينسب إلى أعضاء [جمعية العروة الوثقى] التونسيين ما لم
 يقولوه . . وينسب إلى محمد عبده ما لم يقفه . كل ذلك « للتشكيك » فى
 « ذمة الأفغانى المالية » ! . فيقول : « لعل - [لاحظ معنى « لعل » !] -
 التونسيين قبضوا المعونة عن محمد عبده - عندما زارهم - لأنهم كانوا يعلمون
 أن الأفغانى تلقى ما فيه الكفاية وأكثر . من يعرف ؟ - [لاحظ الاعتراف بأن
 لا أحد يعرف !] - لعلهم - [لاحظ معنى « لعلهم » !] - قالوا أشياء
 لمحمد عبده أبت عفته أن يتكلم فيها . » (٢٦)

إن التونسيين لم يقولوا شيئاً ضد الأفغانى . . ومحمد عبده لم يذكر إلا

(٢٥) أصل « الدراسة » ص ١٨٨ .

ما ذكر عن أمانة الأفغانى وكرمه وقلة حرصه على الدنيا - وهو كلام كتبه في التقديم لترجمة [الرد على الدهريين] عندما أقام في بيروت - بعد وراقه للأفغانى ١٢ - والدكتور لويس يقول إنه « لا أحد يعرف » شيئاً عن هذه الأمور .. ومع ذلك يجمع في « التشكيك » « مستخدماً أدوات » هل « و« لعل » و« لعلهم » على نحو غريب ١٣ ..

وإذا ما قرأ في تقارير الجواميس الانجليز - التي يسميها « وثائق » - كلاماً عن أموال تلقاها الأفغانى من بعض الشخصيات مثل حبر الدين التونسى ، والجنرال حسين باشا - لم يكلف نفسه البحث لمعرفة أن هذه الشخصيات كانوا أعضاء في [جمعية العروة الوثقى] يؤدون لها « الاشتراك » المالى . وإنما نراه متهمها على اتهام الأفغانى بجمع الأموال . لتصب في جيبه . ولينون وحده الانفاق ١٤ ..

تلك نماذج - مجرد نماذج - من « التشكيك » الذى اعتلأت به « دراسة » الدكتور لويس عن جمال الدين الأفغانى !



٤ - أما فيما يتعلق « بالافتراءات » التي اجتهد الدكتور لويس كي يُلصقها بفكر الأفغانى وعقيدته وأسلوب حياته .. فلقد تناثر منها في صفحات « دراسته » الكثير من النماذج . حتى لقد تافست في العدد نماذج « التشكيك » ١ ..

● لقد سبق وأوردنا قول محمد عبده عن الأفغانى : « .. إنه أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه .. وله حمية دينية لا يساويه فيها أحد .. يكاد يلهب غيره على الدين وأهله .. » .. وقول « بلى » عنه : « .. إن كل ما فيه آسوى ، وليس من السهل تأنيبه للعادات الأوربية » ..

لكن الدكتور لويس يتوكل على « فصاحة ورق » كتبها جاسوس انجليزى عن من وصفه « بالسيد الرومى » ، قيمترى على الأفغانى تهمة « التفرنج فى الفكر والسلوك » .. كما يستند إلى إحدى الشهادات التى جمعها الشاه الايرانى ، المعادى لجمال الدين ، والتى تتحدث عن « إفطاره علنا فى شهر رمضان » أيام إقامته فى النجف العراقية .. !^{٢٦} ..

والغريب فى الأمر هو أن الدكتور لويس لا يكتفى بتركية « الرواية » والأكذوبة التى اخترعها من زعموا قرابتهم للأفغانى ، من أهل « أسد آباد » الايرانية .. بل مضى فحمل افتراءاتهم فوق ما حملوها !^{٢٧} ..

فإذا قال قائلهم إن سبب رحيل جمال الدين من « أسد آباد » إلى « قزوین » - وهو فى العاشرة من عمره - « أن فتنة نشبت بين (السادة) هناك » .. « وأنه قد شاع فى النجف - فيما بعد أثناء إقامته بها - أن الفتى جمال الدين هو المهدي المنتظر .. رغم إنكار جمال الدين لهذا الذى شاع عنه .. »

إذا قال قائلهم ذلك ، لم يكتف الدكتور لويس بالتركية والتصديق .. وإنما تطوع بالزيادات والاضافات .. فرجعه يقول إن جمال الدين كان ينسب أسطورة أو « إشاعة » المهديّة المنسوبة إليه .. لكن الدكتور لويس يقول : « ولاشك - [لاحظ مغزى استخدام « ولاشك » !] - أن جمال الدين بأقواله وأفعاله ، صراحه أو بالإنحاء ، بالخداخ أو بالآيمان ، كان يفدى هذه الأساطير التى كانت تنسج من حوله .. ! .. ثم يتطوع ليرجح أن هذه الأساطير هى سبب الفتنة التى حدثت من قبل فى « أسد آباد » فهو يجعل لأسطورة « النجف » تأثيرا ، بأثر رجعى ، فى مرحلة « أسد آباد » !^{٢٨} .. ثم هو لا يطلب من نفسه القليل من الاتساق فى التفكير ، فمن يشيع حول نفسه

(٢٦) [التضا من] العدد ٦ ص ٧٠

أسطورة المهدية .. ومن يغذى الزعم بأنه « يوحى إليه بأنه المهدي المنتظر » . هل يليق به ، وهل يدعم من مسعاه هذا - في بيئة محافظة في تدينها كالنجف - عدم الاهتمام بالمحافظة على شعائر الدين .. والافتقار علنا في رمضان ١٤٠٧ هـ !

لقد كنا ننتظر من الدكتور لويس أن يقف من هذه « الشهادات » التي خصمها كتاب [جمال الدين الأسد آبادي] - والذي سبق لنا الحديث عن قيمته - أن يقف منها موقف الناقد ، المتمثل للحكمة الشعبية المأثورة : « إذا كان المتحدث محونا فليكن السامع عاقلا » ! .. لكن الدكتور لويس - مع الأسف - لم يصنع ذلك .. بل لقد أضاف ، من عنده ، التخرجات والاستنتاجات التي زادت الطين بلة بتدعيمها هذه الافتراءات !

● كان الأفغاني « فليسوفا - متصوفا » و« درويشا - فقيرا » - زاهدا .. لكن الدكتور لويس عوض إمعانا منه في « الافتراء » على الرجل - ولزيادة حرصه على إهالة التراب والوحل على الرمز الأسطوري الذي ارتاد للأمة طريق البعث الإسلامي في عصرها الحديث - قد أراد أن يقدم لقراءه جمال الدين الأفغاني « مكبرا » ١٢٠٧ هـ وفي سبيل بلوغ هذه الغاية لم يكتف الدكتور لويس بالافتراء على جمال الدين ، بل لقد افترى على الذين أرخوا له أيضا ! .. فكتب في دراسته يقول : « .. أما تردد الأفغاني على القهارى والبازات فيشهد به محمد عبده وسليم العنحوري .. » (٢٨) !

فهل - حقا - شهد محمد عبده وسليم العنحوري بتردد الأفغاني على

(٢٧) [التضامن] العدد ٢ ص ٦٩ .

(٢٨) [التضامن] العدد ٦ ص ٧١ .

« البارات » - [بصيغة الجمع . . أى أن الأمر لم يقف عند « التردد » على بار واحد] - ١٤ . . لننظر . .

إن عبارة محمد عبده التى تتحدث عن الأماكن التى كان الأفغانى يستطيب التتره فيها والجلوس بها . وعقد محالسه بين ربوعها . تشير إلى جلوسه فى المنزهات العامة . وفى « المنهى » الحديث الذى بمائل - فى عصره - « الكازينو » - فى عصرنا الحالى - وهى أماكن لم يكن مألوفاً - فى ذلك العصر - من الشيوخ والعلماء ارتيادها . . وليس فى عبارة محمد عبده . مارعته الدكتور لويس . من تردد الأفغانى على « البارات » . . يقول الأستاذ الإمام : « وكان - [الأفغانى] - يتوسع فى إتقان بعض المباحات . كالجلوس فى المنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتخرج المحزونين . لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية . فكان بعيداً من اللغو مترها عن اللهو . وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء - [ضباط الجيش] - وأرباب المقامات العالية وأهل العلم . . .

ثم يخصى الأستاذ الإمام ليرد نقد الناقدين ذهاب الأفغانى إلى هذه المنزهات العامة فيقول : « وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه . لكن الله يحب أن تؤفى رخصه كما يحب أن تؤفى عزائمه . وأى عصاصة على المرء أن يقرج بعض همه بما أباح الله له ١٤ . . (٢٩) »

أما سليم العسحورى . فهو وإن سبى المكان الذى كان يجلس فيه الأفغانى . ويعقد به مستاده : « منهى » . إلا أنه يحدد صراحة أن هذا « المنهى » هو بالتحديد « قهوة مناتيا » المحاورة لمبنى « البريد » -

(٢٩) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٥٣

[البوسطة] - بميدان العتبة الخضراء - بالقاهرة . يقول العنحورى عن مجلس جمال الدين : « وكان مجلس علمه في « ملهى » ، قرب الأريكية . يدعى (فهوة البوسطة) » ^(٣٠)

فهو « مجلس علم » - كما قال العنحورى - .. وهو المنتدى الذى كان ينحلق حول الأفغانى فيه طليعة المجتمع المصرى من المدنيين والعسكريين الذين جددوا حياة الأمة الفكرية والعملية ، وارتادوا بالشرق ميدان الثورة للمرة الأولى في العصر الحديث .. إنه المكان الذى تكون فيه قادة من أمثال محمد عبده والبارودى وعزافى والتديم وسعد زغلول .. الخ .. الخ - لكنه - بمقاييس افتراء الدكتور لويس - « باراز » .. بل و « بارازات » ١٤ ..

● وتعدد الافتراءات التى يقذف بها الدكتور لويس كل من وقف عند الحقيقة في تاريخه لحياة جمال الدين .. وفي مقدمتهم الاستاذ الإمام ! . فإذا ذكر محمد عبده حقيقة أن الأفغانى لم يدرس بالأزهر ، وأنه لم يذهب إليه إلا مضطرا أو زائرا . وأن مجلس علمه كان في منزله .. لم يعجب ذلك الدكتور لويس . ورأيناه يسلط لنقض هذا القول سبلا توقعه في أخطاء لا يقع فيها بصير بكتابة التاريخ ١٤ .. إنه يقول : « وربما كان اهتمام محمد عبده بإبراز أن الأفغانى لم يدرس بتاتا في الأزهر جاء من الأفغانى نفسه . من حيث حرصه على إخفاء صداماته مع علماء الأزهر . حتى لا يجيف تلاميذه من المجاورين ^(٣١) » ..

(٣٠) [تاريخ الاستاذ الإمام] ج ١ ص ٤٤ .

(٣١) [التصامن] العدد ٦ ص ٧٠ .

.. ففي رأيه أن محمد عبده يكذب - نبعاً لكذب الأفغانى - عندما ينفي
تدريس الأفغانى بالأزهر . كى لا يبرز صداماته مع شيوخ الأزهر . فيخاف
منه المخاورون فلا يقبلون على دروسه ١٩ !

ولو كان الدكتور لويس عوض يحترم عقول قرائه لاحترم الحقيقة ولما سود
الصفحات مثل هذا « الكلام » ! .. فلو كانت للأفغانى صدامات مع شيوخ
الأزهر ، عندما كان يدرس فيه ، لعلمها المخاورون - [من طلاب
الأزهر] - ولما أفلح محمد عبده فى إخفائها عنهم . لأنهم مثله شهود
عيان ١٩ ! ثم - وهذا هو الأهم - إن محمد عبده قد كتب هذا الذى كتبه
عن الأفغانى فى تقديمه لرسالة [الرد على الدهريين] . وهو متنى . بيروت
سنة ١٨٦٦ م . وكان الأفغانى فى باريس . فحين كان الأفغانى . يومئذ .
من مصر ومن الأزهر ومن المخاورين . حتى يكذب محمد عبده . فيجنى
تدريس الأفغانى بالأزهر وصداماته مع شيوخه كى يطمئن له المخاورون
فيستلمدوا على يديه ١٩ !

أهذا كلام باعزينا الدكتور لويس ١٩ ! .. على كل حال فنحن نحسد
الله على أن هذا هو مبلغ جهلك فى دعم ما ربيت به الأفغانى من
« الافتراءات » ! .. وعلى قارئ « دراستك » أن يقيس ما لم نشر إليه على
ما أشرنا إليه فى هذه الصفحات .



ولقد راد الطين بلة . وأسهم فى إشاعة الأخطاء الصارخة وغير اللائقة
فى « دراسة » الدكتور لويس : فئة بغضاة الرجل العلمية بالميدان الذى
تصدى « للإفتاء » فيه ! لقد دخل ميدان التاريخ . دون أن يمتلك أياماً من
أدواته . بل واحتار التاريخ للبعث الإسلامى وحركة الإصلاح الإسلامية
بالمذات ١٩ !

والناظر فيما كتبه الدكتور لويس يرى أخطاءً تُحدد قيمة بضاعته العلمية في هذا الميدان ..

● فالرجل الذي دفع إلى المكتبة العربية كتاباً ، يحمل اسمه ، في « فقه اللغة العربية » .. هذا « العالم اللغوي » عندما ينسب إلى « المهدي » يقول « المهديونية »^(٣٢) ولا يقول « المهديّة »^(٣٣) ! ! !

● وهو يزعم أن جهال الدين الأفغانى قد قال عبارة : .. « الشيعة يقولون أنى نصيبى » .. فلا يستطيع تمييز الخطأ ، لأن صحة الكلمة « ناصبى »^(٣٤) .. وبدلاً من أن يسأل أهل الذکر عن معنى الكلمة ، فيصححها ، يتطوع ليفتى ويُفسر . فإذا « بعلمه الغزير » بثّر الضحك والرتاء ! ! لقد فتح « قوساً » ليفسر كلمة « نصيبى » فقال : (من معركة نصيبين ، أى من أعداء على) بن أبى طالب ! ! . والرجل لا يدري أن الإشارة إنما هي إلى فرقة « النواصب » . الذين ناصبوا على بن أبى طالب وبنيه العداء .. وأن المفرد منها « ناصب » . والنسبة إليها « ناصبى » . أما معركة « نصيبين » فلا علاقة لها بالموضوع . اللهم إلا أن تكون علاقتها به مثل علاقة الدكتور لويس بالموضوع الذى تصدى للكتابة فيه^(٣٥) ١٢ - « فنصيبين » مدينة بالشام فتحت في زمن عمر بن الخطاب !

● ونحن نعتذر الدكتور لويس إذا لم يميز بين الآية القرآنية وبين الحديث النبوى الشريف . لكنه إذا جاء فتحدث عن خطابات ، ثم زعم أن الأفغانى هو كاتبه .. ثم وجدنا الخطاب يتحدث عن الآية القرآنية (إنما المؤمنون إخوة) - الحجرات : ١٠ - على أنها « حديث »^(٣٦) .. كان من حقنا أن

(٣٢) (التتبع) العدد ٣ ص ٦٩

(٣٣) أصل : الدراسة ، ص ٩٩

عقوب : إن هذا جهل إن جار لغير الأفغانى فلا يجوز لإمام كجبال الدين ١٢ .

فهل مثل الأفغانى من لا يميز بين الآية وبين الحديث ١٢ . وهل يليق
« بمؤرخ » - ينظر في نصوص مصادره نظرة نقدية . ألا يكشف ريف نسبة
مثل هذا النص إلى مثل الأفغانى ١٢ . وأيضا . فكاتب الخطاب يتحدث
عن نفسه فيقول : « إن كاتب هذا الخطاب رجل وضع المقام لا أهمية
له » ١٢ (٣٤) . فهل مثل الأفغانى من يقول هذا عن نفسه . وهو الذى
هابته الملوك والقباصرة . حتى لقد التزعج منه السلطان عبد الحميد
[١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] عندما طلب منه وقف المحرم
على الشاه الايرانى ناصر الدين [١٢٤٦ - ١٣١٣ هـ ١٨٣١ - ١٨٩٦ م]
فجاءت استجابته فى عبارة : « الآن ، عفوت عن الشاه » !

إن الدكتور بكثرت الحديث عن « عشجية » الأفغانى . ويتحدث عن
« عناده الذى جعله يرفض التبعية للباب العالى . وأقصى مايتصوره هو حالة
من « التعايش » بينه وبين السلطان (٣٥) . فهل يليق بمن هذا مقامه .
ومن هذه مكاتبه . أن يكتب لمن هو دون السلطان فيقول عن نفسه : « به
رجل وضع المقام . لا أهمية له » ١٢ .

أين العلم بنقد النصوص . أخص خصائص من يتضدى الكتابات
التاريخ ١٢ .

● كذلك فنحن لا نعذر الدكتور لويس عندما لا يكلف نفسه مؤنة النظر
فى « أطلس جغرافية » البلاد التى يتحدث عنها . فى معرض اقترائه على

(٣٤) أصل : الدراسة ، ص ١٠٢

(٣٥) أصل : الدراسة ، ص ٢٢٤

الأفغانى . والتدليل على إيراقتهم . بسوق حكاية وعده لأمه . وهو صغير .
بأن يجعلها حاكمة على خراسان !

وإذا صرفنا النظر عن الوقوف عند الفاظ السحرية التى صلبها الدكتور
لويس على الأفغانى . بسبب هذه الحكاية المزعومة . فإننا سألنا
لم لم يسأل نفسه - من باب نقد النص - هل من المألوف فى البيئة
الشيعية المحافظة مثل إيران - أن تكون المرأة حاكمة لخراسان ؟!

تم .. إن خراسان - يا عزيزنا الدكتور لويس - ليست فى إيران - حتى
نستدل بذلك على إيرانية الأفغانى .. وإنما هى فى أفغانستان - ولو نظرت فى
معاجم البلدان القديمة - بل وفى [القاموس الإسلامى] للأستاذ أحمد
عطية الله - لعلمت أنها « اسم تاريخى يطلق على ما يعرف اليوم . بصفة
عامة . باسم أفغانستان . وهو يطلق . بصفة عامة . على الأقليم الذى يحده
فى الشمال نهر جيحون . وفى الشرق حوض السند . ومن الغرب إقليم
فارس . ويضم من المدن الشهيرة : كابل وغزنة وقندهار وترندوجون
وقاراب ونساويورد وسرخس .. » !

● كذلك لا عذر للدكتور لويس عندما يتطوع بالافتاء فيقع فيما لا يليق
من الأخطاء . فهو ينقل عن « بلنت » أن « السيد أمير على » كان يتزعم -
فى كككتا - بالهند - « طائفة مثقفة جديدة » تدعو للأخذ بالحصانة
الغربية .. . فتراد بذلك اسم الرجل « الأمير على » بزيادة « آل » - لكن
هذا لا يهم .. وإنما المهم أنه يتطوع بالتفسير فيفتح قوسا ليقول لنا : إن السيد
الأمير على (هو السيد أحمد خان) (٣٦) .. ولورجع الدكتور لويس إلى أى
قاموس للأعلام . أو إلى كتاب [زعماء الإصلاح فى العصر الحديث]

(٣٦) [التضامن] العدد ١٥ ض ٦٦ .

للأستاذ أحمد أمين . لعلم أن أحمد خان [١٢٣٣ - ١٣١٦ هـ ١٨١٧ - ١٨٩٨ م] غير السيد أمير علي [١٢٦٥ - ١٣٤٧ هـ ١٨٤٩ - ١٩٢٨ م] . ولعلم أن الأول كان ينهج للإصلاح طريق التربية والتعليم فقط . علي حين أضاف الثاني إلى نهجه خطة سياسية تعالج مشكلات المسلمين . . .

● وفي موطن آخر يستعين الدكتور لويس « بقلة العلم » على تشويه صورة جمال الدين الأفغاني . . .

فحتى يُلصق به تهمة التعاون مع الانجليز . في مصر . سنة ١٨٧٨ م . إبان الصراع بينهم وبين الخديوي اسماعيل . يقول « إنهم سمحوا بانتخابه رئيساً لمحفلة « كوكب الشرق » . الذي كان فرعاً من المحفل الماسوني في إنجلترا سنة ١٨٧٨ م » ثم يتحدث عن « طردهم » له من هذا المحفل بعد هذا التاريخ . عندما وقع بينها الخلاف . وانتهت « فترة التعاون الكامل » بينهما ^(٣٧) . كما يقول . . .

ولو رجع الدكتور لويس إلى أي مرجع محترم من المراجع التي تؤرخ للماسونية . لعلم أن المحفل الذي انتخب الأفغاني رئيساً له سنة ١٨٧٨ م - إبان صراع الانجليز ضد الخديوي اسماعيل - وهو محفل « كوكب الشرق » - لم يكن هو التابع للمحفل الانجليزي . بل كان تابعاً للمحفل الفرنسي ^(٣٨) . فهو المحفل الذي أنشأه الأفغاني . كموقف ضد المحفل التابع للانجليز . وهو الذي يسميه سليم العنحوري « جمعية (الماسون) العربية » ^(٣٩) . فلم يكن الأفغاني متعاوناً مع الانجليز . لا يومئذ .

(٣٧) [التضافر] العدد ١ ص ٥٦

(٣٨) صابر طعيمة [الماسونية ذلك العالم المجهول] ص ١٢٨ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م

(٣٩) [تاريخ الأستاذ الإمام] ج ١ ص ٤٦ .

ولا قبل ذلك ولا بعده . فلقد كانت كراهية استثمارهم طبعاً من طباعه لأمره
حتى انتقل إلى رحاب الله .]

ثم .. إن الانجليز ليسوا هم الذين طردوا الأتراك من المحفل الذي
كان ينبع مخفهم .. وإنما الرجل هو الذي استقال . عندما اكتشف حين
هذا المحفل عن التصدي للاستثمار والاستبداد . وعندما تبنت له علاقة هذا
المحفل . ولو بالصمت والمسايرة . بمخطط الانجليز في مصر . وخير دليل على
صدق هذا الذي نقول كلمته التي أدان فيها ماسونية ذلك المحفل . والتي
استقال منه بعد إقائنها .. لقد قال فيها : « أول ما شوقى للعمل في بناية
الأحرار . عنوان كبير خطير : [حرية - مساواة - إخاء] . غرض :
[منفعة الإنسان . سعى وراء ذلك صروح الظلم . تشييد معالم العدل
المطلق] .. فحصل لي من كل هذا وصف للماسونية . وهو : همة للعمل .
وعزة نفس وشمم . واحتقار للحياة في سبيل مقاومة من ظلم .

كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة . ولكن ما كنت
لأخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أسطواني المخافل الماسونية !!

إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون . وفيها كل بناء حر . وإذا آلات
البناء التي بيدها لم تستعمل لهدم القديم . ولتشيد معالم حرية صحيحة
وإخاء ومساواة . وتلك صروح الظلم والعنوا والجور . فلا حملت يد الأحرار
مطرقة حجارة . ولا قامت لبنائهم زاوية قائمة !..

يؤلمني أنني الآن ما عرفت لنفسي . بصفتي ماسونياً . ولا لمطلق الماسونية
تعريفاً يجعل لها صورة في الذهن ووصفاً ينطبق على من ينخرط في تلك
العشيرة !.. ماسونيتكم . أيها الإخوان . اليوم لا تتجاوز : « كبس أعمال »
وقبول أخ . يتلى عليه من أساطير الأولين ما يعمل ويخل في عقيدة الداخل .
ويقطع مكانة الماسونية في عينيه .. فالماسونية . على شكلها هذا .

وتقابلدها . ليست فقط قديمة العهد . بل هي لا تزال في المهد . وسوف .
 إذا أضرت وأصر أنها على الوقوف عند حدود رموز أكثرنا لا يفقه مغزاها
 ولا المراد من وضعها . أنها مستحق في المهد ولا تدرج منه ١٩١١ . . .
 تلك هي قصة الأفغانى مع الماسونية . إنها صفحة من صفحات صراعه
 ضد الاستعمار . والاستعمار الانجليزى على وجه الخصوص . وليست إطارا
 تعاون فيه الأفغانى مع الانجليز . كما ادعى الدكتور لويس .
 لكنها « قلة المعلومات » بميدان البحث وطبيعة مادته ومصطلحاته .
 عندما أضيفت إلى « الغرض الثأرى المبيت » الذى حرك الدكتور لويس
 للافتراء على الأفغانى والتشكيك فى حقائق حياته ونضاله وفكره . أثمر كل
 ذلك ما بلغتته هذه « الدراسة » من مستوى فى السذوذ قل أن يكون له
 نظير !

هل كان الأفغانى ملحدًا .. وزنديقا ؟ !

من كان يتصور أن الدكتور لويس عوض « العلماني » الذي يكثر من الحديث عن المذهب الانساني - « الهيومانيزم » - والمعادي للإحياء الديني . والذي ترتعد فرائضه من التطرف والغلو الديني .. من كان يتصوره مستخدمًا لسلاح « التكفير » يحكم على عقيدة جمال الدين الأفغانى بالتجديف والزندقة والإلحاد . وكأنه أحد غلاة جماعات التكفير في العصر الذي نعيش فيه ؟ ! ..

صورة مأساوية .. لكنها وقعت في « دراسته » عن جمال الدين ! ..

ولقد بخار المرء في تفسير هذا الغلو . غير المؤلف . من الدكتور لويس . هل اثباته نوبة من « الكهنوت المسيحي » فنهض كي يعيد تمثيل مشاهد فرارات « الحرمان » التي كانت تصدرها الكنيسة قديما ضد أحرار المفكرين ؟ ! .. لا أعتقد .. فالرجل منسوب إلى الكنيسة القبطية . التي لم يشتهر في تاريخها هذا التجاوز والعدوان على ضمائر المؤمنين وعقائدهم .. وأغلب الظن أن عداء الدكتور لويس لرمز الإحياء الإسلامي والاستقلال الحضاري عن الغرب : جمال الدين الأفغانى . هو الذي دفعه إلى هذا « الخروج » العصري . الذي جعله يخازن بكل سلاح . حتى ولو كان محرما إسلاميا . وممنوع الاستخدام من قبل كل المستنيرين والانسانيين !

لقد سبقت إشارتنا إلى نماذج من « التشكيك » و « الافتراء » التي أصابت سيرة الأفغانى وفكره في « دراسة » الدكتور لويس . . . والآن نقف لتتظر في فحة هذا « الافتراء » . . . عندما أباح الدكتور لويس لقلمه أن يحكم على « العقيدة الدينية » للأفغانى . . . فيقول : « إنه غير متدين » . . . بل « مجدف » . . . و « ملحد » . . . و « زنديق » ؟ !

في « دراسة » الدكتور لويس - وحتى عندما عرض له « تدليل » الأفغانى و « عقيدته الدينية » لا نجد أية إشارة إلى كتابات الأفغانى الدينية . . . و « الكلامية » منها و « الصوفية » على وجه الخصوص . . . وبدى أن من يكتب عن عقيدة إمام كجبال الدين . لا بد وأن يرجع لما كتبه الرجل في « العقيدة » . . . من مثل [تعليقاته على شرح الدوائى للعقائد العصبية] و [رسالة الواردات في سر التجليات] وما كتبه عن [القضاء والقدر] . . . الخ . . . الخ . . .

ولنحس لا ندري . هل قرأ الدكتور لويس هذا الجانب من أعمال الأفغانى الفكرية . أم لا ؟ . قد يكون قرأه . ولم يجد شيئاً لفقهه . يحكم تكويده الدينى وقدراته الفكرية المحكومة بنخصه الأكاديمى البعيد كل البعد عن هذا الميدان ! . المهم أننا لا نجد أثراً لأعمال الأفغانى « العقيدة » فيما كتبه الدكتور لويس عن « عقيدته » . وهذا خلل منهجى يسقط أحكام الدكتور لويس من الأساس ! . . .

لقد وقف الدكتور لويس . في « دراسته » عن الأفغانى عند حدود الأوراق والكتب التى جمعها له الذين استضافوه في جامعة « لويس أنجليس » . . . وما جمعوه له من كتابات الأفغانى ذات العلاقة بالعقيدة : ترجمة الإنجليزية لرسالة [الرد على المدهربين] و [المقالات الجمالية] التى كتبها باخند عندما نفى إليها في مطلع ثمانينات القرن الماضى . . . وكلا

المصدرين من الكتابات « الجمهورية » . التي تعالج الجوانب السياسية والاجتماعية والحضارية . ولاتفوض عوض المتخصص في ميدان العقيدة الدينية عندما يكتب للمتخصصين ! ..

ومع ذلك .. فلننظر لغرى كيف تعامل الدكتور لويس مع فكر الأفغانى . الذى اطلع عليه . ورجع إليه في هذا الموضوع ..

لقد كتب الأفغانى رسالة [الرد على الدهريين] لتكون سلاحا في الصراع ضد طائفة من مسلمى الهند . يمكن أن نسميهم بـ « المتغربين » الذين تهادنوا مع الاستعمار الانجليزي هناك .. فهم قد تفرغوا في الحضارة والفكر والسلوك . ووقفوا عند « التنوير » بمصاميحه الغربية . ونفضوا أيديهم من مهام الوطنية والنضال ضد الاستعمار .. ولذلك . فلقد تميزت هذه الرسالة بـ « غريزتين رئيسيتين » :

الأولى : حداثتها وعنفها .. لأنها حملت روح الثورة العنيفة التي حكمت موقف الأفغانى إزاء الاستعمار ..

والثانية : التركيز على « العائد » و « المردود » الاجتماعى والسياسى والثقافى . الذى يصيب الأمة إن هي استمكت بالإسلام كهوية حضارية تميزها عن الحضارة الغربية الغازية . فحديث [الرد على الدهريين] عن الإسلام هو حديث عن « البديل الحضارى » الإسلامى لحضارة الغرب المادية العدوانية الاستعمارية .. وليس حديثا عن الإسلام كدين مجرد . بعقائده وأركانه .. لأن [الرد على الدهريين] ليست « في الأساس » كتابا من كتب « علم الكلام » . الذى هو « فلسفة الإسلام » ! ..

أما الدكتور لويس . فإنه - بعد أن أهمل كتابات الأفغانى « الكلامية »

و « الصوفية » - والتي منها يجب أن يستقى الدارس الأمين عقيدته ومذهبه الديني - قد اعتبر رسالة [الرد على الدهريين] هي التجسيد الفكري لحقيقة عقيدة جمال الدين .. فقال : « ... أما من هو الأفغاني الحقيقي فهو في « الرد على الدهريين » . فهو كتابه الخطير .. »^(١)

لقد قرأ [الرد على الدهريين] فوجدتها تتحدث عن « العائد » السياسي والاجتماعي والحضاري للإسلام الدين ... بدلا من أن يلتمس فكر الأفغاني عن الدين ، كعقيدة مجردة ، وأصول وقواعد وأركان وضعها الشارع سبحانه وتعالى .. بدلا من أن يلتمس هذا من مواضعه في أعمال الأفغاني الفكرية ، أباح لنفسه ولقلمه أن يستبيح عقيدة الأفغاني - فيحكم عليه بالتجديف والزندقة والإلحاد - بدعوى أن الدين عنده ليس حقيقة موضوعية ، وإنما هو مجرد مؤسسة اجتماعية ضرورية لتنظيم حياة الجملة من الناس .. فعنده « أن الأفغاني - في [الرد على الدهريين] - لم يكن مهتما بإثبات صحة العقيدة الدينية بقدر ما كان مهتما بإثبات نفعها للوجود الاجتماعي والسياسي »^(٢) . لقد رفض الأفغاني المدرسة المادية في كتابه [الرد على الدهريين] . ورفض موقف المدرسة المثالية في مقاله [شرح أحوال الأغوريين] . ولكن الأفغاني في رفضه للفلسفة المثالية بدلا من أن يعتصم بالفهم التقليدي ، أو بالعقل العام في فهم الدين ، أسس رفضه للمثالية على رأي لا يقل تجديفا عن رأي المثاليين الأوروبيين من الرومانسيين والمتصوفة وأصحاب العقل المتجاوز أو الحقيقة المتجاوزة . أسسه على أن رغبة إيمان المسلمين بالمعجزات وبالعقاب والثواب في الدار الآخرة ، وهم « في حال ضعفهم وشقاقهم الراهنة » كقيلة بأن تجعلهم

(١) [التضمين] العدد ١٥ ص ٦٥

(٢) [التضمين] العدد ١٧ ص ٦٧

يتخلون عن المقاومة القومية وينضمون إلى معسكر مستعمرهم . بل وربما
فرطوا في دينهم واعتنقوا دين جلاذيتهم . ومعنى هذا بصراحة أن الأفغانى لم
يكن ينظر إلى « المعجزات » وإلى « اليوم الآخر » على أنها مقولات دينية
حقيقية . وإنما هي عنده مجرد معتقدات نافعة لحفظ المجتمعات وصيانة
الروح القومية فيها . ومن هنا وجب النظر إلى الدين لاعلى أنه مجموعة من
الحقائق الفكرية والروحية ، ولكن على أنه مؤسسة اجتماعية وقومية .
هذا هو جوهر رسالة الأفغانى في [الرد على الدهريين] . . . فالحق . عند
الأفغانى . هو مايتى اجتماع والباطل هو مايقوضه . ولاداعى بعد ذلك
للبحث في الميتافيزيقا ! (٣) . . إن الأفغانى لم يكن متدينا بالمعنى المفهوم .
ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل
الاستقلال السياسى أو بناء الامبراطوريات (٤) .

ذلك جانب من جوانب التحنى الصارخ الذى مارسه الدكتور لويس
في حديثه عن العقيدة الدينية لجمال الدين الأفغانى .

وهنا نأل : هل إذا حدثنا رجل عن « فوائد ظل الشجرة » . كان
هذا الرجل . بالضرورة . منكرا لأصل الشجرة . كحقيقة
موضوعية ؟ ! . . وهل استمتاع الإنسان « بالثمرة » يعنى جحوده بالشجرة
التي أنثرت هذه الثمرة ؟ ! . . وهل إذا تحدث الأفغانى عن العائد السياسى
والحضارى والقومى للإسلام . بالنسبة للمسلمين في صراعهم ضد
الحضارة الغربية التي جاءت فافتحمت عليهم ديارهم وجاهدت لطمس
معالم شخصيتهم القومية وتشويه ذابنتهم الحضارية . . . هل إذا تحدث
الأفغانى عن هذا الجانب من الإسلام . كان . بالضرورة . منكرا للدين

(٣) [التضمن] العدد ١٧ ص ٦٤

(٤) [التضمن] العدد ٣ ص ٧٠

إن تناول الإسلام ، كوضع إلهي ، والحديث عن عقائده ، كحقائق موضوعية ، والبحث الميتافيزيقي في هذه المقولات الدينية ، قد سبق للأفغانى وأوفاهها حقها قبل أن يكتب [الرد على الدهريين] بعشر سنوات ، ففي مصر كانت له ، أمالى « في علم الكلام الإسلامى تضعه في مصاف كبار فلاسفة الإسلام ! ... فهل إذا تحدث عن الإسلام الحضارى والسياسى والاجتماعى ، في [الرد على الدهريين] ، يكون منكرا للإسلام الدين « ؟ ! .. أم أن الدكتور لويس كان يود للأفغانى أن يقف عند حدود « المباحث الكلامية » و « الصوفية » ، ثم يدع دنيا المسلمين وسياستهم وقوميتهم وحضارتهم فريسة سهلة للحضارة الغربية ، فلا يشهر في وجه « التغريب » الهوية الإسلامية للذين تدينوا بالإسلام ؟ ! ..

أعتقد أن هذا هو السبب الأساسى لتحامل الدكتور لويس ، لما يهمله ليس « تدين » الأفغانى ، الذى يضمن له الجنة يوم الحشر الأكبر ! .. وإنما الذى يهمله أن لا يقف الإسلام الحضارى والثقافى والسياسى والاجتماعى في وجه الحضارة الغربية التى يدين لها بالولاء ؟ ! ..

إن الدكتور لويس مولع بتجزئة الأفغانى إلى مراحل .. مصرية .. وهندية .. وعروية وثقى .. وتركبة .. الخ .. ولذلك ، فنحن نحارة لمنهجه ، سنقف أمام تقويمه لعقيدة الأفغانى في « المرحلة الهندية » ، لنرى رأينا في هذا التقويم ، قبل أن نعرض لفكر الأفغانى الدينى ، والذى يتفحص اتهامات الدكتور لويس من الأساس ..

لقد رأينا تقويم الدكتور لويس لرسالة [الرد على الدهريين] ، التى

وأما الممثلة لحقيقة الأفغانى . . . ورأيها حكمه على الأفغانى ، من خلالها
وبسببها . بأنه « مجدف » و « غير متدين » . وما الدين عنده إلا « دافع
للسجائر الجاهلية لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء
الامبراطوريات . . » !

لكن . يبدو أنه قد استمرأ منهج « التجزئة » . . فبعد أن جعل
للأفغانى « مرحلة هندية » . مسمى « ليجزئ » عشيدته فى ذات « المرحلة
الهندية » الواحدة . بل وفى الكتاب الواحد - [الرد على
الدهرين] - ١٢ . . لقد رأيناه يحكم على الأفغانى . من خلال [الرد على
الدهرين] . . بأنه « مجدف » . ثم هاهو . فى مكان آخر من
« دراسته » . يحكم عليه . من خلال ذات الكتاب . بأنه « تقليدى
محافظ فى تفسير الإسلام » ١٢ . . يقول : « لقد اختار الأفغانى فى سنة
١٨٨١ م . نهائيا . الدفاع عن الموقف التقليدى المحافظ فى تفسير
الإسلام . وحمل حملة شديدة على تجديد الفكر الإسلامى بالفكر العلمى
والفلسفى الذى عنده الطريق المختصر إلى الزندقة وإلى زعزعة الإيمان
الدينى . وقد عبر عن كل ذلك فى « الرد على الدهرين » وفى « مقالاته
الهندية » ١٣ !

وهنا نسأل : كيف تكون رسالة [الرد على الدهرين] . « تجديديا » -
أى كفرا وزندقة وزعزعة للإيمان - وتكون هى ذاتها : « تقليدا ومحافظة فى
تفسير الإسلام . ومعاداة للتجديد والزندقة وزعزعة الإيمان » ؟ ! . . كيف
يتأتى ذلك التصريح لمن يحترم الحقيقة فيحترم عقول القراء ؟ ! .
إن الدكتور لويس يعنى فى هذا التناقض الصارخ والغريب عندما

يحكم على الأفغانى بأنه - من خلال [الرد على الدهريين] - قد أصبح « غيبيا في الفكر » كما هو « عيبى في السياسة »^(٦٦) - [بسبب دعوته للإسلام السياسى والجامعة الإسلامية ؟] - فكيف تكون « الغيبة في الفكر » « تجديفا » ، ياعزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..

* * *

نحن لازلنا في « المرحلة الهندية » للأفغانى ... وحتى الآن صدر على الرجل ، من الدكتور لويس ، حكمان متناقضان :

● فهو « مجدف » أى كافر بالله ... من خلال كتابه [الرد على الدهريين] ! ..

● وهو « تقليدى محافظ في تفسير الإسلام عدو للتجديد والازندقة »

من خلال [الرد على الدهريين] و [المقالات الهندية] ! ..

لكن الدكتور لويس لا يقف عند هذا القدر من « التناقضات » .. بل يمتضى ليصدر على عقيدة الأفغانى - وفي ذات « المرحلة الهندية » - وبسبب ذات الأعمال الفكرية - أحكاما أخرى بينها وبين بعضها أشد التناقضات ! ..

● فبعد « التجديف » .. وبعد « المحافظة والتقليد » .. يذكر أن الأفغانى قد شئ « طريقا وسطا » بين أهل الحمود وبين المشرقيين فيقول : « ... ويبدو أن الأفغانى حاول في كلكتا - [بالهند] - أن يفتح لمسلمى الهند طريقا ثالثا ... » وهو يتقل هذا التقوم لموقع الأفغانى الفكرى عن « بلنت » ، الذى التقى بشاب هندى من أنصار الأفغانى - اسمه « مولاي أ. م. » - تحدث إلى « بلنت » عن التيارات الفكرية بين

(٦٦) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٦ .

مسلمى الهند . وكيف « أن الأمير علي وأصدقائه قد وضعوا أنفسهم خارج إطار المجتمع الإسلامى . بنزهم الانجليزى وعاداتهم الانجليزية . بنز عباء اللطيف وجماعة الموالى [علماء الدين] كانوا مسرفين فى المحافظة . . . وجاء الأفغانى بفكرة قوامها : الجمع بين إصلاح الإسلام والوحدة الإسلامية . وهناك الآن كثيرون يفكرون على طريقته . ويعتقدون فى موقف وسط بين هذين الحزبين المتنافسين . .

إن الدكتور لويس بنفل هذا التقويم على « بلنت » . ويعترف « بتجمع الشباب المعتدل حول الأفغانى . ورفضه طريق علماء الدين المحافظين . ومدرسة السيد « أحمد خان » الليبرالية . التى كانت تجد تناقضها الأول مع التخلف الداخلى وليس مع الاستعمار البريطانى . .

لكن الدكتور لويس لا يزكى هذه « الوسطية » . لأنها تعنى - كما قال الشاب الذى تحدث إلى « بلنت » - « إصلاح الإسلام » أى تجديده ليكون البديل الحضارى للتغريب . و « الوحدة الإسلامية » أى [الجامعة الإسلامية] التى تجمع أمم الإسلام فى رباط تضامنى يعينها على مواجهة الامبريالية والاستعمار . . لا يزكى الدكتور لويس هذه الوسطية . بل يراها « معادلة صعبة . . تريد قبول حضارة العصر ورفض الانجليز »^{١٧} « ١٤ »

وبنن نسال الدكتور لويس : هل كان يريد مسلمى الهند قبول الانجليز كشرط لقبولهم « حضارة العصر » . حتى تكون المعادلة سهلة ؟ ! . إنه واضح الانحياز لموقف « المتغربين » . من أمثال « أحمد خان » . الذين تفرنجوا . ورفضوا « الموروث » . وتعلقوا بأذيال « الوافد الغربى » . بل

(٧) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧

هو أشد حماسا وانحيازاً لهذا الموقف «التغريبى» . لانعدام الصلات التى تربطه بهذا «الموروث» ! ؟ ..

● وبعد الحكم « بالتجديف » .. و « بالمحافظة والتقليد » ..
و « بالوسطية » .. يأتى حكم رابع للدكتور لويس . فيقول : عن الأفغانى - فى ذات المرحلة الهندية - « إن فكره يمثل «الانسانية الإسلامية» - [الهيومانزم الإسلامى] - ؟ ! ... فهو يورد فقرات من محاضرة ألقاها الأفغانى فى قاعة «البرت هول» . انتقد فيها إحتجاج المسلمين عن الاستفادة من علوم العصر التى ازدهرت فى أوروبا . على الرغم من استمرارهم ترديد مقولات أرسطو التى استعان بها أسلافهم . فهم يقبلون على «أرسطو» . وكأنما هو قطب من أقطاب الإسلام » ومع ذلك فإذا جاء ذكر جاليليو وتيوتن وكبلر قالوا : هؤلاء كفار ! ..

والأفغانى هنا - وهذا عالم يلحظه الدكتور لويس - يقول للمسلمين : إن ماحتاجه من الغرب ليس الفلسفة .. وإنما العلوم الطبيعية وتطبيقاتها . أما الفلسفة والثقافة واللاهيات والانسانيات . فسيئنا إليها هو الإسلام وتراثه الثقافى والحضارى ..

ثم يمضى الأفغانى فى محاضرته ليقول : « إن أبا العلم وأمه هو الدليل . والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات . والحقيقة تلمس حيث يوجد الدليل . وأولئك الذين يحرمون العلم والمعرفة . معتقدين بذلك أنهم يصونون الدين الإسلامى ، هم فى الواقع أعداء ذلك الدين . إن الدين الإسلامى هو أقرب الأدبان إلى العلم والمعرفة . وليس هناك أى تعارض بين العلم والمعرفة وبين أسس العقيدة الإسلامية .. » .

والدكتور لويس يعلق تعليقا إيجابيا على كلمات الأفغانى هذه .

فيقول : « والحق أن المرء لا يستطيع أن يقرأ هذا المنطق المتناسك . إلا
وبغف باحترام عسيق أمام فكر الأفغانى الساطع . الذى كان يمكن أن
يكون دعامة قوية من دعائم « هيومانيزم الإسلامى » . واستكمالاً لتلك
الثورة الثقافية التى بدأها رفاعة الطهطاوى ... »

وهنا . وعند هذا الحد . عز على الدكتور لويس أن بصمت . فيكون
قد قال فى الأفغانى كلمة حق لم يفسدها بتشكيك ولم يطمسها بتثوية
فعقب على كلماته هذه بقوله : إن الأفغانى قد أفسد فكره الإنسانى هذا
عندما « شغل نفسه بمفاسف السياسة ومفاسف الفكر السياسى التى
طمست فى آثاره مبادئ هيومانيزم . أو المذهب الإنسانى . ولم تبرر
للأجيال التالية إلا دعونه السلفية ودعوته الشيوعية ... » (٨) .

فإذا ما بحثنا عن « مفاسف السياسة ومفاسف الفكر السياسى » . التى
لا تعجب الدكتور لويس . وجدناها متمثلة فى : تأسيس التمدن الحديث
على أسس إسلامية ، وإحياء الجامعة الإسلامية ، كرابطة تجمع شعوب
الشرق وعالم الإسلام فى الصراع ضد الاستعمار ! ..

على كل . فقد قال الدكتور لويس عن الأفغانى - فى هذا الموضع من
دراسته - وعن فكره فى ذات المرحلة الهندية - إنه « إنسانى » -
[هيومانيزم] - بعد أن حكم على عقيدته وفكره بـ « التجديف » ..
وبـ « المحافظة والتقليد » .. وبـ « الوسطية » .. فإلى هنا . وحتى الآن قد
صدرت على الأفغانى . من الدكتور لويس أربعة أحكام ! ..

● أما الحكم الخامس فهو إيجابى . ومما يحمى للدكتور لويس . - فبعد
أن رأيناه يحكم على الأفغانى - من خلال مقالاته الهندية - « بالمحافظة

والنقليد « (٩) - هاهو يحكم عليه - من خلال إحدى هذه المقالات الهندية - مقال [فرائد الفلسفة] - بأنه : « إنساني - تقدمي - جدلي - وفيلسوف اجتماعي من طراز عظيم .. » ! ..

لقد تحدث الأفغانى إلى أهل الجمود من معاصريه ، الذين أضاعوا قدراتهم العقلية فيما لا يفيد الأمة في صراعها ضد التحديات التي تطبق على مستقبلها ونضيق على ذاتيتها الخناق . تحدث إليهم فقال : « لم تستخدمون آراء هذه العقول الشائعة في حل سقاسف المشكلات ؟ ومع ذلك فأنتم لا تشكرون لحظة في هذا الموضوع الخطير الذي ينبغي على كل إنسان ذكي أن يفكر فيه . ألا وهو : ماسب الفقر والعجز واليأس بين المسلمين ؟ وهل هناك علاج لهذه الظاهرة . وهذا الخطب الويل ؟ أم أنه لا علاج لها ؟ ... فما من شك أوريب في أن امرءا لا يتفق حياته كلها في حل هذه المشكلة . ولا يجعل من هذه الظاهرة الخطيرة محور تفكيره إنما يضيع حياته هباء ويتلفها . ولا يصح أن يلقب بفيلسوف . فالفيلسوف هو من يعرف جوهر الأشياء .. »

هنا ، عقب الدكتور لويس فأنصف الأفغانى بقوله « هذه المواقف الفكرية ، عند الأفغانى ، لاشك كانت مواقف تقدمية في عصره .. بل هي تقدمية حتى في عصرنا هذا ، لأنها تجعل غاية كل علم وكل فلسفة الرقي بالجنوع البشرى . ولا سيما بإلغاء الفقر والجهل والمرض وضعف الإنسان أمام الطبيعة وأمام أخيه الإنسان ، فهي فلسفة اجتماعية من طراز عظيم ، بل هي فلسفة جدلية . ترفض للعالم الإسلامى ما رفضه فلاسفة النهضة الرليسانس للعالم المسيحي من منطق العصور الوسطى .. » (١٠)

(٩) [التضافن] العدد ١٥ ص ٦٦

(١٠) [التضافن] العدد ١٦ ص ٦٨ و ٦٩

لقد قال الدكتور لويس كلمة إنصاف للأفغانى ، لكنها جاءت في إطار التناقضات الصارخة التي اتسمت بها أحكامه على فكره وعقيدته في السنوات الثلاث التي قضهاها بأفند . بعد نفيه من مصر سنة ١٨٧٩ م . وهي الأحكام التي تراوحت ما بين « التجديف » .. و « المحافضة والتقليد » .. و « الوسطية » .. و « التقدمية » والانسانية - والجدلية - والفلسفة الاجتماعية ذات الطراز العظيم » .. ؟ !

* * *

لكن هذا التناقض . الذي اتسم به تقوم الدكتور لويس لفكر الأفغانى في « المرحلة الهندية » . على ما رأيناه به من الجحاف وافتراء . هو مما يهون عندما يقاس بالافتراء الذي وجهه الدكتور لويس إلى العقيدة الدينية للأفغانى فيما سماها « المرحلة المصرية » .. فلقد بلغ هنا قمة الافتراء عندما اتهم الرجل . بـ « الزندقة » .. وبـ « الإلحاد » ؟ ! ..

لقد نظر الدكتور لويس فيما كتبه ثلاثة من الذين ترجموا للأفغانى : محمد عبده . وأديب اسحق . وسليم العنحورى .. فوجد الأول يتحدث عن اعتقاد الأفغانى باعتباره « عالم الدين القويم الايمان » .. ووجد الثانى يصنعه مع « المفكرين الأحرار » .. أما الثالث - سليم العنحورى - فلقد قال عنه ما يعنى أنه « متفلسف ملحد » ! .. فتعلق الدكتور لويس بهذا الوصف الأخير ؟ ! .. وساق العبارة التي أوردها العنحورى وقال فيها عن جمال الدين : « .. إنه قد برز في علم الأدبان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدومية العالم ، راعيا أن الجرائم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بترق وتخوير طبيعيين .. » ..

لقد كانت عبارة العنحورى هذه هي طلبية الدكتور لويس . فدافع عن العنحورى . ونفى عنه كل شبهة أو غرض يدعو به إلى الافتراء على

الأفغانى .. ثم عقب قائلا : إن حديث الأفغانى عن تطور الفكر الدينى قبل ظهور أديان التوحيد هو مما يستقيم مع العلم والدين معا .. « وإنما يبدأ الإلحاد - [إلحاد الأفغانى] - حيث يبدأ الحديث « بقدمية العالم » . وليس بخلقه . وحيث تنسب الصورة المجردة لذات الله المطلقة فى الزمان والمكان والوجود والصفات إلى خيال الإنسان . وليس إلى إدراكه للحقيقة . سواء بالعقل أو من رسالات السماء (١) .. » ١

ونحن - قبل أن نسوق من أعمال الأفغانى الفكرية ما ينفى عنه هذا الافتراء - وقبل أن نعرض رأيه فى « قدم العالم وحدوثه » . وفى « الذات الالهية » . وفى « النبوة » . وفى « الخلق أو النكون الطبيعى والذاتى للكائنات الحية » .. قبل أن نجلو للقارئ أولا . وللدكتور لويس ثانيا ! رأى الأفغانى وعقيدته . من خلال كتاباته « الكلامية - الفلسفية » - نود أن نقوم آراء سليم العنحورى وقيمتها ومصداقيتها . ليعرف القارئ وزنها ومقدار ما تستحقه من ثقة . وخاصة إذا ما قورنت بآراء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . أو أديب اسحق عن جمال الدين . وذلك حتى يعرف القارئ لماذا رجح الدكتور لويس قول العنحورى عن أقوال محمد عبده وأديب اسحق !

لقد كتب العنحورى ترجمته للأفغانى ونشرها فى مقدمة ديوانه [سحر هاروت] .. ولقد أعاد رشيد رضا نشر هذه الترجمة فى الجزء الأول من [تاريخ الاستاذ الامام] .. ونحن إذا تأملنا ما كتبه العنحورى عن جمال الدين ملنا إلى إسقاط روايته . كمصدر ثقة للتاريخ . لأن روايته قد اعتلت بالأخطاء والأكاذيب والمفارقات ... فعلى سبيل المثال :

(١١) [التصانيف] العدد ٦ ص ٦٩ . ٧٠

١ - يقول العنحورى عن خطبة الأفغانى فى « دار الفنون » العثمانية :
بالآستانة : إن الأفغانى قد « غاى فيها إلى حد أن أدمج النبوة فى عداد
الصنائع المعنوية .. »^{١٢٢}

والحقيقة غير ذلك . وكلام الأفغانى مشور وموثق - وسببى إبراده
بعد قليل - والذين ادعوا ذلك هم خصوم الأفغانى من شيوخ الآستانة
الرجعيين .. فالعنحورى إما أنه قد نقل كلام هؤلاء الخصوم .. أو أنه فهم
كلام الأفغانى بمنطق اللاهوت المسيحى الذى تنقصه عقلانية
الإسلام !

٢ - وهو يقول عن الأفغانى : إنه زار مكة « لمدة عام » بعد مغادرته
الآستانة . عقب أزمة محاضرة « دار الفنون » .. وليس هذا بصحيح ..
فلقد غادر الآستانة إلى القاهرة . كما يزعم العنحورى أن الأفغانى قد تعلم
اللغة العربية بمكة فى هذه الزيارة المزعومة ! .. والثابت المتواتر الشهير أنه
قد تعلمها فى صباه . وأنه قد شرح للطلبة السوريين الذين كانوا يدرسون
بالأزهر بعض كتب النحو العربى فى زيارته الأولى لمصر سنة
١٨٦٩ م !^{٢٣}

٣ - ويقول العنحورى إن رياض باشا [١٢٥٠ - ١٣٢٩ هـ - ١٨٣٤
م] قد ألزق الأفغانى بحجرة فى الجامع الأزهر - [أى أنه قد
سكن فى أروقة الجامع الأزهر] - وأنه - [أى رياض] - قد عين له
راتب مدرس بالأزهر .. والثابت تاريخياً أن الأفغانى لم يسكن بأروقة
الأزهر .. ولم يدرس فيه .. كما لم يكن لشيوخ الأزهر « رواتب » فى ذلك
التاريخ !^{٢٤}

(١٢) [تاريخ الاستاذ الامام] ج ١ ص ٤٤ .

٤ - ويقول العنحوري : إن الأفغانى قد غادر مسكنه بالأرهر إلى منزل « حارة اليهود » . والثابت أن مسكنه كان فى « خان الخليل » . وليس فى « حارة اليهود » !

٥ - ويَزعم العنحوري أن الأفغانى قد أراد تحويل مصر إلى « جمهورية » يتولى إدارتها ! .. وفضلا عن تهافت هذا الزعم ، فإن رأى الأفغانى فى « الحكم الجمهورى » معروف .. فلقد كان يرى أن بلاد الشرق لم تنهيا لمثل هذا اللون من الحكم فى ذلك التاريخ .. فهو القائل : « أما الحكم الجمهورى فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأهله » (١٣) .

٦ - ويقول العنحوري : إن نقي الأفغانى من مصر سنة ١٨٧٩ م كان على طريق « بورسعيد » .. والصحيح أنه كان على طريق « السويس » .. ويقول : إن خادما الأفغانى « أبو تراب » قد سجن بمصر .. والثابت أنه قد نفي معه !

٧ - ويقول عن الأفغانى : إنه عندما أصدر « العروة الوثقى » - بباريس - « عاود الاستمساك بالدين الحنيف » ! .. وكأنما كان الأفغانى فى بلاد المسلمين لا يتدين ، ثم يعاوده التدين فى باريس ؟ !

٨ - ثم .. إن العنحوري هو أقل الثلاثة - محمد عبده - وأديب اسحق - وهو - صحبة لجمال الدين - فمحمد عبده قد عاشه ولازمه وكان أقرب الناس إلى فكره وحياته التى عشر عاما .. أما أديب اسحق فلقد صحبه لسنوات .. على حين لم تزد صحبة العنحوري للأفغانى عن العام .. فلقد جاء إلى مصر سنة ١٨٧٨ م ولما لم يطق تبعات العمل السياسى والفكرى الذى كان يقوده جمال الدين عاد إلى فواعده فى الشام !

(١٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٩

٩ - وأخيراً . فلقد راجع العنحورى نفسه . عندما لقيه الامام محمد عبده فى الشام ، وأوضح له خطأ قوله بإلحاد الأفغانى .. وبين له أن الأفغانى كان يورد حجج الماديين ليرد عليها . فمن غير المقبول أن تنسب إليه هذه الحجج باعتبارها آراءه وعقيدته .. فاقنع العنحورى . ورجع عن اتهمه للأفغانى بالإلحاد . وكتب نقدا لما سبق أن نشره بالصحف السبارة - الأفغانى . وأذاع هذا النقد على الملأ . حتى لقد نشره بالصحف السبارة - من مثل صحيفة [لسان الحال] وصحيفة [الجنة] - .. وذكر فى هذا التصحيح أن المصدر الذى جعله يقول ما قال هو ما تلقاه « عن بعض المصريين والسوريين .. » - فلم يكن الرجل كاتباً لما كتب أولاً بناء على السماع المباشر من جمال الدين .. كما هو حال محمد عبده . الذى كتب ترجمته للأفغانى بناء على « طول العشرة وكمال الخبرة » .. فهو - بشهادة العنحورى ذاته ، بل وبألفاظه : « أعز أخلاء الحكيم » الأفغانى ! - .. ولقد أعلن العنحورى فى تصحيحه لما سبق وكتبه عن عقيدة الأفغانى .. أعلن : أنه « لم يبق محل للريبة فى كمال اعتقاد الأفغانى وجلاء يقينه .. » (١٤)

لكن الدكتور لويس لا يقيم وزناً لكل هذه الحقائق الناصعة الواضحة .. إنه يتعلق بالرواية المعيبة . المليئة بالأخطاء والمفارقات . ويعتمد على أقل المصادر ثقة وخبرة وعشرة للأفغانى بل ويتشبث بالرأى الذى رجع عنه صاحبه : وانتقد نفسه على ابدائه ، وأذاع نقده هذا على الملأ من الناس ١٩ ..

ذلك هو الدكتور لويس فى الموقف من الأفغانى .. وفى أى

(١٤) [تاريخ الامتاز الامام] ج ١ ص ٤٢ - ٥١ .

القضايا ٤ .. في الأخطر منها .. في الحكم على الضمائر والسرائر والعلاقة الخاصة بين العبد ومولاه ! ..

وإذا كان هذا هو مكان الرواية التي اعتمد عليها الدكتور لويس في اتهام الأفغاني بالزندقة وبالاحاد .. فإن حظها الوافر من التهاوت - ورجوع صاحبها عنها - لا يجعلنا نكتفي بما قدمناه .. إذ لابد من جلاء موقف الأفغاني - من خلال أعماله الفكرية وكتابات « الكلامية » - من القضايا التي اتهمه بسببها الدكتور لويس بالزندقة وبالاحاد ...

فما هو موقف الأفغاني من : « قدم العالم أو حدوثه » ؟ .. ومن مقولة « التكون الذاتي والطبيعي للكائنات الحية » ؟ .. ومن « الدين » كوضع إلهي وحقيقة موضوعية ؟ .. ومن « النوة » وعلاقتها بالحكمة - [الفلسفة] - ... ما رأى الأفغاني في هذه القضايا . التي هي - في الفكر الديني - أمهات في صدق المتدين . وركائز في سلامة الاعتقاد ؟ ..

● لم يقل الأفغاني « يقدم العالم » . بل قال « بحدوثه » ! .. ورأيه هذا ثابت ومعلن وشهير .. أوضحه بجلاء في مجلس علمه الذي شرح فيه أمهات كتب المنطق والتصوف والكلام والأصول ثلاثمئة . في السنوات الأولى لإقامته بمصر .. والناظر في تعليقاته على [شرح الدواني للعقائد العضدية] - وهي [التعليقات] التي تمثل نصا « كلاميا - فلسفيا » عالى المستوى ، يضع الأفغاني في مصاف عظماء فلاسفة الإسلام - إن الناظر في هذه [التعليقات] - التي فرغ الأفغاني من إتمامها أواخر ذي الحجة سنة ١٢٩٢ هـ - أوائل سنة ١٨٧٦ م - والتي دونها محمد عبده - يجد موقف الأفغاني المنحاز إلى « حدوث العالم » واضحا ومحددا وجليا وحاسما لا يحتمل اللبس أو الغموض أو التأويل .. فهو - بعد أن عرض آراء الفلاسفة والمتكلمين في هذه القضية - ص ٢٢٣ وما بعدها - أعلن اختياره

إلى جانب القائلين بحدوث العالم ، بما يستلزمه هذا القول من إيمان بالخالق . الذي أحدث هذا العالم .. يقول الأفغانى : « وافق أهل الحق على أن للعالم - الذى قد ثبت حدوثه - محدثاً أزلياً ، أبدياً ، لم ينقطع وجوده فى آن من الآتات الماضية . ولا ينقطع فى آن من الآتات المستقبلية واستدل أصحابنا على ذلك بأن العالم مُحدث - بالفتح - وقد سبق دليله - وكل مُحدث فله مُحدث - بالكسر - بالضرورة . إذ من البديهي أن المعدوم لا يوجد إلا بوجود ، فوجوده إما أن يكون ذاته ، أو ينتهى إليه ، فيدور ، أولاً يكون ذاته ، ولا ينتهى إليه . بل يذهب حادثاً عن مُحدث . لا إلى نهاية ، فيتسلسل ، أو ينتهى إلى ما ليس بحادث . وهو القديم . والدور باطل . بالضرورة . والتسلسل . بالبرهان . ثبت الثالث . فالعالم ينتهى إلى مُحدث قديم . فهو أزلى . وما كان أزلياً . استحال أن لا يكون أبدياً » (١٥١) .

إنه . هنا . يقطع بحدوث العالم وموافيه . عن مُحدث أحدثه وموافيه . هو الله . سبحانه . الأزلى الأبدى .. فأين قوله المرغوم « يقدم العالم » . و « بالتكون الذاتى للكائنات الحية » ؟ . الذى رعبه الدكتور لويس ؟ ! ..

ليس من حق الدكتور لويس أن يتعلل بأنه لم يقرأ [تعيقات] الأفغانى على شرح الدوائى للعقائد العضدية . ولا بأنه قد قرأها فلم يستطع فقه مضامنها . كنص إسلامى كلامى متخصص ! .. فالكتاب لديه . قد أهديته نسخة منه منذ سنوات .. وكان عليه أن يسأل أهل الذكر إن استغلق عليه فقه هذه النصوص ! ... ثم . ماعذره . وهو الذى رجع -

(١٥١) [الأيمان الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ١ ص ٣٠١ .

كما يشير في «دراسته» - إلى رسالة [الرد على الدهريين] - ماعذره .
 عندما ينهم الأفغانى بالقول « يقدم العالم » و « بالتكون الذاتى والطبيعى
 للكانات الحية » . وفى [الرد على الدهريين] نصوص للأفغانى تنقض
 هذا الاتهام من الأساس ؟ ! .. فى [الرد على الدهريين] يعرض الأفغانى
 لآراء القائلين يقدم العالم ويتكون الجراثيم بالترقى والنحوير الطبيعيين ..
 يعرض لها بالنقد والنقض والتفنيد .. فيقول : « وذهب فريق آخر إلى أن
 الأجرام السماوية والكرة الأرضية كانت على هيئتها هذه من أول الأزال
 ولا تزال . ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات . وزعموا أن فى كل
 بذرة نباتا مندجحا فيها ، وفى كل نبات بذرة كامنة .. الخ ... »

ثم يمضى ليرد هذا الزعم بقوله : « وغفل أصحاب هذا الزعم عما
 يلزمه من وجود مقادير غير متناهية فى مقدار متناه . وهو من المحالات
 الأولية » .

وبصدد تكون الجراثيم . يعرض رأى الماديين فيقول : « ولما كشفت
 علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بتقديم الأنواع ، رجع
 المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث . ثم اختلفوا فى بحثين :
 الأول : بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية . فذهب جماعة إلى أن
 جميع الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عندما أخذ التهاب الأرض فى
 التناقص . ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضى . وذهب
 أخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكون إلى اليوم . خصوصا فى خط الاستواء
 حيث تشد الحرارة . وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك
 الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية » ! ..

ثم يمضى الأفغانى فيفند كل مذاهب الماديين والطبيعيين والدهريين .
 ناقضا « مزاعمهم » . ساخرا من « أوهامهم » ومن « مذهبيهم العاطل »

فيستغرق «تفنيده» هذا في أعماله الكاملة ست صفحات . بعد أن عرض
مذهبهم في صفحات ثلاث^(١٦) ١٤

فلم لم نلعت هذه النصوص - في [الرد على الدهريين] - نظر الدكتور
لويس ١٤ . أم ، يا ترى . قد حلت منها الطبعة الانجليزية التي أحضرها له
الأمريكان في جامعة «لوس أنجلوس» . ضمن ما أحضروا له من أوراق
ليكتب ما كتب عن جمال الدين ١٤ ! . أم تراه قد قرأ هذه النصوص .
ومع ذلك مضى في رمي الأفغانى بالزندقة وبالإلحاد . متقولا عليه وناسبا
إليه عكس الذي كتبه الرجل في [الرد على الدهريين] ١٤ .

وإذا كانت هناك حاجة لمزيد من التوضيح لرأى الأفغانى بصدد هذه
القضية - قضية وجود الخالق ، واستناد الحياة والأحياء إلى «حلقه» لها
فإن في أعمال الأفغانى الفكرية المزيد من النصوص . ففي نقضه لمذهب
الطبيعيين الماديين من أنصار دارون Darwin [١٨٠٩ - ١٨٨٢ م] ومذهب
النشوء والارتقاء ووحدة أصل الأنواع . يقول الأفغانى : «إن الغاية من
مذهب الطبيعيين : إنكار الخالق . وإسناد الأعمال إلى الطبيعة . . . ولقد
قال دارون بالنص الواحد : «إني أرى أن الأحياء التي عاشت على هذه
الأرض جميعها من صورة واحدة أولية . نفع الخالق فيها نسمة
الحياة . . . ولكن قوله هذا لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين . واتهموه
بالخوف من أهل دينه ، وقالوا : إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصا . بل
ينقضه من أساسه . . . فالنقطة الجوهرية هي (موجد نسمة الحياة)»^(١٧)
هكذا حدد الأفغانى مواطن خلافه مع الماديين . فالعالم عنده

(١٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٣٢ - ١٣٩ .

(١٧) المصدر السابق - ص ٢٥٢ .

محدث . صدر عن محدث . أزلى أبدى . ولم تتكون الحياة فيه ولا الأحياء بالنشأة والتجوير الذاتيين الطبيعيين ، كما زعم الماديون ! ..

ورغم أن الأفغانى قد انحاز - كما أشرنا - إلى القول بحدوث العالم . فإنه لم يحكم « بالكفر » ولا « بالزندقة » ولا « بالإلحاد » على الذين قالوا إن العالم قديم ... فالرجل كان متخلقا بأخلاق الفلاسفة والعلماء .. ولم يكن أسيرا لتعصب « الخوارج » ولعصبية « جماعات التكفير » ؟ ! .. ثم إنه ابن حضارة تميزت بالعقلانية ، حتى لقد تدبنت فلسفتها . كما تفلسف فيها الدين . فلم تعرف الفصام الحاد بين علوم الشرع وعلوم العقل .. وهو وارث تراث فكرى قال كثير من أعلام فلاسفته ومتكلمييه بقدم العالم وبخالق قديم . أزلى وأبدى . لهذا العالم القديم ! ! ! - إنها قضية معقدة وصعبة حقا .. لكنها مطروقة في فكرنا الإسلامى . أفاض فيها ابن رشد .. وانحاز إليها المعتزلة ... ولمسقطها في تراثنا بناء شامخ يقصده الطالبون والراغبون (١٨) ! ..

لم يقل الأفغانى بكفر من ذهب إلى أن العالم قديم .. وأقرأ . معنى . كلامه - الذى باتى درسا فى أدب البحث والنظر والحوار ! .. يقول الأفغانى : « واعلم أئى وإن كنت برهنت على حدوث العالم . وحققته القول فيه . على حسب ما أدى إليه فكرى . ووقفنى عليه نظرى . فلا أقول بأن القائلين بالقدم قد كفروا بمذهبهم هذا . وأنكروا به ضروريا من الدين القويم . وإنما أقول إنهم أخطأوا فى نظرهم . ولم يسددوا مقدمات أفكارهم . ومن المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد . ولم يعول على التقليد فى الاعتقاد . ولم تجب عصمته . فهو معرض للخطأ . ولكن

(١٨) انظر كتابنا [المادية والثلاثية فى فلسفة ابن رشد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ .

خطأه عند الله واقع القبول . حيث كانت غايته من سيره . ومقصده من تمحيص نظره . أن يصل إلى الحق . ويدرك مستقر اليقين . وكل من اعتقد بالالوهية التامة . وتره الحق عن جميع النقائص . واعتقد بربنا محمد . صلى الله عليه وسلم . وبما جاء به . ولم يكذب شيئا مما نقل عنه . مع علمه بأنه قد نقل عنه . فهو مؤمن ناج . عدل رضي عند الله تعالى [لا يكلف الله نفسا إلا وسعها] ^(١٩) . وعلى المرء أن يسعى إلى الخير جهده . فإياك أن تنهج نهج التعصب فهلك ! ^(٢٠) .

فأصول الدين . عند الأفغانى . هي : الألوهية . والنبوة . والمعاد . وهو قد دعا إلى تزامن « العقل » و « النقل » وتعاونهما على تحصيل الإيمان البقى . هذه الأصول . فكذب يقول . بعد أن عرض آراء الفرق المختلفة في سبيل تحصيل الإيمان : « . . . والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل . أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود . ثم منه إلى إثبات النبوات . ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم بدون فحص فيما تكنه الألفاظ . إلا فيما يتعلق بالأعمال . على قدر الطاقة . ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده . بالبراهين الصحيحة . كأن ما أدت إليه ما كان . لكن بغاية التحري والاجتهاد . ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه . فوجد بظواهره ملائما لما حققه . فليحمد الله على ذلك . وإلا فليطرق عن التأويل . ويقول [آمنا به كل من عند ربنا] فإنه لا يعلم مراد الله وبه إلا الله ونبيه . . . ولا بد في كمال النجاة . ونيل السعادة الأبدية من أن ينضم إلى ذلك : التخلي عن الرذائل . والتخلي بالأخلاق الكاملة . والأعمال

(١٩) النقرة : ٢٨٦ .

(٢٠) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ١ ص ٢٨٠

الفاضلة ومن تلك الأخلاق والأعمال : تكميل قوة النظر ، وارتكاب طريق العدل في كل شيء . إذ لا ريب أن كل من خالف ما كان عليه النبي وأصحابه فهو في النار...» (٢٢١)

نرى هل يمكن أن يكون هذا كلام من يرى أن الدين ليس إلا مجرد مؤسسة اجتماعية وقومية ، يتحضر نفعها في دفع الجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسي أو بناء الامبراطوريات ١٢ . كما قال الدكتور لويس عوض عن عقيدة جمال الدين ١١٩ .

وهل يمكن أن يكون هذا كلام من لا يؤمن بالدين كحقيقة موضوعية ١٢ .

وهل يمكن أن يكون هذا فكر «مجدف» و«ملحد» و«زنديق» ١١٩ .

لكن .. ما بالنا نلجأ إلى التساؤل . ونطلب من القارئ أن يلجأ إلى الاستنتاج .. وللأفغانى نصوص واضحة وحاسمة في أن «الدين» وضع إلهي - وهو تعريفه الأخص عند المؤمنين - يقول الأفعالي : في هذا الموضوع : «... أقول كلمة حق في الدين . ولا أظن منكراً يحجبها - الدين وضع إلهي . ومعلمه والداعي إليه البشر . تتلقاه العقول عن المشرىين المنذرين . فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي . ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين . وهو عند جميع الأمم . أول ما يخرج بالقلوب ويرسخ في الأفئدة ويصطبغ النفوس بعقائده . وما يتبعها من الملذات والعادات . وتتمرن الأبدان على ما ينشأ من الأعمال وما يطاوعها من العزائم والارادات . فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به يدها .

(٢٢١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢١ . ٢٢٢ .

وكأنما الإنسان في نشأته لوح صقيل . وأول ما يخط فيه رسم الدين ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده . وما يطرأ على النفوس من غيره فإنما هو نادر شاذ . حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات ، بل تبقى طبيعته فيه كأثر الخرج في البشرة بعد الاندمال ! .. » (٢٢)

هكذا الدين . عند جمال الدين ... وضع إلهي ... وليس مجرد مؤسسة اجتماعية ... وحقيقة موضوعية مجردة ... وليس مجرد غائد يفيض السعادة على الفرد والمجموع ... ولا بد من تزامن العقل والنقل في تحصيل الإيمان اليقيني بأصوله . التي هي : الألوهية التامة المنزهة ... والنبوة ... والمعاد ... فهل بعد ذلك حاجة للمزيد من الإيضاح لفكر الأفغاني عن الدين « ٢ » . وهل يوجد - مع هذا الفكر - مجال لاتهام الرجل بالتحذيف والزندقة والإلحاد ؟ ! ..

غير أن هناك جزئية من جزئيات افتراء الدكتور لويس على عقيدة الأفغاني لا بد وأن نعرض لها فنجلو وجه الحق فيها . فالدكتور لويس لم ينهم الأفغاني « بإنكار » النبوة .. وإنما اتهمه بوضعها مع « الحكمة » - [الفلسفة] - على قدم المساواة ، أو التشابه على أقل تقدير .. وزعم أن الأفغاني يفترض وجود التناقض بين الشريعة الإلهية التي تأتي بها النبوة . وبين العقل والحكمة المستفادين من قبل الحكماء . واتهم الأفغاني - لذلك - بـ « الزندقة » .. بل وذهب إلى أن « هذا النوع من الزندقة ليس جديدا في الأفغاني ولا مستغربا منه » ! .. ثم مضى في الافتراء فادعى أن

(٢٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٨٣ .

« محمد عبده » وسواه » قد قالوا إن هذا هو رأى حمال الدين ؟ ! .. (٢٣)
فما هو وجه الحق في هذا الموضوع ؟ ..

لقد بدأت القصة بمحاضرة الأفغانى عن « الصناعات .. وفلسفتها » في « دار الفنون » العثمانية . بالآستانة في رمضان سنة ١٢٨٧ هـ - ديسمبر سنة ١٨٧٠ م .. وفي هذه المحاضرة تحدث الأفغانى عن دور كل من « النبوة » و « الحكمة » في تحريك « جسم السعادة الإنسانية » . بعد أن تحدث عن « الصناعات » باعتبارها الأعضاء لبدن المعيشة الإنسانية الخى .. ولكن الرجل لم يساو بين « النبوة » و « الحكمة » . وإنما تحدث عن « الفروق » بينها . فقال : .. ويفرق بينها بأن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب . يختص الله بها من يشاء من عباده . والله أعلم حيث يجعل رسالته . أما الحكمة فما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات .. وبأن النبي معصوم من الخطأ . والحكيم يجوز عليه الخطأ . بل يقع فيه .. وأن أحكام النبوات آتية على ما في علم الله . لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فالأخذ بها من عروض الإيمان . أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها إلا من باب الأولى والأفضل . على تهيئة أن لا تخالف الشرع الإلهي .. » (٢٤)

لكن شيخ الإسلام العثماني . حسن أفندي فهمي . انتبهزها فرصة للتشجيع على الأفغانى . فزعم أن الرجل قد تحدث عن « النبوة » كصناعة . لأنه عرض لها في محاضرة عن « الصناعات » ؟ ! .. وحدثت . لذلك تلك الأزمة التي سبقت إشارتنا إليها

(٢٣) [التضامن] العدد ٥ ص ٦٩

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٤٨

أغلب شؤون الدنيا بشرعها « العقل » الإنساني ، في ضوء روحها ، وبما يحقق مصلحة مجموع الأمة ، ويلائم الزمان والمكان ... فوجود « الشريعة » الصالحة لكل زمان ومكان ، لا يغني عن « العقل » اللازم لتطبيق روحها ، وللتشريع وفق مقاصدها ، وللإبداع في الميادين والمشكلات التي لم تعرض لها نصوصها ... تلك بديهة إسلامية .. وهي واضحة كل الوضوح .. لكن ، تعالوا لنرى تعليق الدكتور لويس على تلك البديهة الإسلامية التي تحدث بها الأفغانى في محاضراته ... يقول في تعليقه : « وهذا أيضا زندقة بالنسبة لمن يعتقد أن أصول الدين والشريعة صالحة لكل عصر ولكل بيئة . لأنه قول يفترض تناقضها مع العقل في بعض العصور وفي بعض البيئات » ١٢ !

هكذا « فهم » الدكتور لويس ! ! ثم عقب ، فقال : « وعلى كل فهذا النوع من الزندقة ليس جديدا في الأفغانى ولا مستغربا منه » ١٣ ! وفي اعتقادي أن المرء يحتاج إلى « حلم الحكماء » ، بل وإلى « صبر أيوب » كي لا يغضب ويثور من هذا الذي « فهمه » وكتبه الدكتور لويس ! .. إذا كان الحديث عن « الشريعة الإلهية » وعلاقتها « بالعقل » ، كما يراها الإسلام ، من المباحث الصعبة على بعض الأفهام ، فسأضرب للدكتور لويس مثلا من حياتنا الحديثة والمعاصرة والمدنية

إذا كان وجود « الدستور » لا يغني عن ضرورة وجود « الفقهاء الدستوريين » ، الذين يفسرونه ويفسرونه ويرعون تطبيقه .. فإن وجود « الشريعة الإلهية » لا يغني عن ضرورة وجود « العقلاء الحكماء » الذين يفسرونها ويطبقونها على شؤون الحياة .. ولما كانت الشريعة قد وقفت عند « الكليات » وتناهت نصوصها على حين لم ولن تنهني المشكلات المستحدثة في الحياة ، فإن وجود « الحكماء » وضرورة « العقل » للتشريع

وللابداع فيها لا نصوص فيه هو ضروري . ومن ثم فلا تناقض بين
« الشريعة » وبين « الحكمة » . وضرورة « العقل » لا تنفي خلود الشريعة
وصلاحياتها لكل زمان ومكان ! ..

كذلك .. فإن وجود « الدستور » - الذي هو أبوالقوانين .. وقانون
القوانين - لا يعني إنكار ضرورة وجود « المشرعين القانونيين » ، الذين
يشرعون روح الدستور قوانين تحكم جزئيات الحياة ..

وبالمثل .. فإن وجود « الشريعة الإلهية » ، لا يعني إنكار ضرورة
« العقل » و« الحكمة » ، فيها أداة المؤمنين بالشريعة إلى تطبيق روحها على
جزئيات الحياة ! ..

والأفغانى ، عندما قال بضرورة « الشريعة » و« العقل » .. ولزوم
« النبوة » و« الحكمة » ، إنما كان مسلما يعنى حقيقة الإسلام .. ومثدينا أعمق
التدين .. بل ومتأسيا سنة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى قال ،
في تعريف « الحكمة » : إنها « الإصابة في غير النبوة »^(٢٦) ؟ ! .. كما قال :
« الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »^(٢٧) ! .. صدق رسول الله ..

فهل بعد ذلك مجال لاتهام الأفغانى بـ « التجديف » و« الزندقة » ..
و« الإلحاد » ؟ ! !

هل ، بعد ذلك ، مجال - يا عزيزنا الدكتور لويس ؟ !

(٢٦) رواه البخارى .

(٢٧) رواه الترمذى وابن ماجه

هل كان الأفغاني

إيرانيا ؟ .. شيعيا ؟ .. بل وبابيا ؟ ! ..

إذا شئنا الدقة فإن «وطن» حمال الدين الأفغاني هو كل «عالم الإسلام» .. فهو لا يشرف إلا إذا انتسب إليه جميعه - لا إلى إقليم واحد من أقاليمه - وبالمثل ، فليس هناك - فيما اعتقد - إقصاع من أقاليم «عالم الإسلام» إلا ويشرفه أن يكون له من شرف الأفغاني وعظمته حظ ونصيب ! ..

ولقد كان للجدل والخلاف حول «وطن» حمال الدين - وهل هو إيران ؟ أو أفغانستان ؟ - وكذلك حول مذهبه - هل هو الشيعة ؟ أم السنة ؟ - لقد كان مثل هذا الجدل أن يظل في إطاره الطبيعي والمفصول والمألوف - فعظماء الرجال - عادة - تتجادلهم وتدعيهم المذاهب والأجناس والأوطان ! .. وفي تراثنا العرفي والإسلامي عشرات الشواهد والأمثلة في هذا المقام ..

● فالإمام علي بن أبي طالب [٢٣ ق. هـ - ٤٠ هـ - ٦٠٠ - ٦٦١ م] والأئمة من بعده تتنازعهم الفرق - كلامية وصوفية - بل وطوائف الحرف والصناعات ! ..

● والحسن البصري [٢١ - ١١٠ هـ - ٦٤٢ - ٧٢٨ م] يتنازعه المعتزلة والأشعرية والصوفية - وعامة الزهاد ! ..

● وكثير من علمائنا وأعلامنا تجد لهم مكانا في معاصم أعلام المذاهب
السنية . في ذات الوقت الذي تختص بهم وتزدان بهم كتب الأعلام عند
الشيعة ! ..

ذلك أمر مألوف في تراثنا وتاريخنا . وفي غيره من موارث الأمم
والخصارات ..

ثم إن الإسلام قد غدا لأهله جنسية ووطنا . وصار كل بلد تعلقه
راية التوحيد جزءا لا يتجزأ من وطن الموحدين لله . فهو قد أقام لأهله
«ألمية» ضمت الأجناس واللغات والأقاليم التي دانت لله بالوحدانية
وصدقت بنبو محمد بن عبدالله . عليه الصلاة والسلام .

والإيرانيون إذا تعلقوا بحمال الدين . وقالوا إنه من مواليد «أسد
آباد» . طلبوا لأن يشرفوا به . فذلك مفهوم . حتى وإن حالهم
آخرون . وكذلك الأفغانيون . إذا هم قالوا : بل هو من مواليد «أسعد
آباد» الأفغانية . فذلك مفهوم . حتى وإن اختلف معهم الإيرانيون ! ..
وكذلك «السنة» . إذا قالوا : إنه منا . . . و«الشيعة» . إذا قالوا :
لقد كان على مذهبا . كل ذلك مفهوم . والخلاف فيه مألوف
ومشروع ! ..

أما الرجل . فلن يعيبه أن يكون إيرانيا أو أفغانيا . ولن ينقص من
قدره أن يكون شيعيا أو سنيا . لأنه «مسلم» تشرف به كل أقاليم الإسلام
وجميع مذاهبه . كما شرف عالم الإسلام ويشرف بالأعلام البارزين من
السنة والشيعة . أفغانيين وإيرانيين . وقبلا وراء إيران وأفغانستان ! ..

لكن الذي جعل قضية الخلاف حول «الموطن» الذي ولد فيه جبال
الدين الأفغاني . وحول «المذهب» الديني الذي تمذهب به تأخذ بعدا

آخر . أخرجها من هذا الإطار المؤلف . هو أن الذين ادعوا إيرانيته وشيعيته قد أرادوا . من وراء هذه الدعوى . إثبات « كذب » الرجل . فلقد قال عن نفسه إنه أفغانى . ونطقت أفكاره وكتاباته بأنه سنى . ثم جاء منشأ الادعاء بأنه إيرانى شيعى من خصومه وخصوم دعوته التجديدية التحريرية - فى السنوات الأخيرة من حياته - وهى تأتى اليوم . أساسا . من الذين يتاصبونه العداء . باعتباره الرمز والرائد لحركة « الصحة الإسلامية » التى يكرهون ! ؟ ..

فالمقصد الأساسى من وراء دعوى إيرانيته وشيعيته لبس إضافة محده وشرفه لتختص بهما إيران والشيعة الاثنى عشرية - ولو كان الأمر كذلك لما استحكمت القضية نقاشا - بل ولما كان هناك قضية للنقاش ! .. وإنما المقصد هو هدم « الرجل - الرمز » . ومن ثم فإنها دعوى معادية لثراث إيران المسلمة . ولمجد الشيعة الاثنى عشرية . كما هى معادية لثراث أفغانستان المسلمة ولمجد المذهب السنى . لأنها معادية . فى الأساس . « للرجل - الرمز » الذى يعتز به الجميع ! ..

تلك هى الوضعية التى جعلت وتجعل « جنسية » الأفغانى و « مذهب » قضية تستحق البحث الذى يحلوجه الحقيقة فيها للقارئ العربى والمسلم . من كل الأقاليم وجميع المذاهب وسائر القوميات ..

كذلك . فإن موطن الخلاف وموضع الجدل محدد ومحصور فى « موطن » ميلاده .. وفى « المذهب » الكلامى الذى تمذهب به . أما « الوطن » الذى تتعلق به الرجل . وناضل فى سبيله . فهو - كما قلنا - كل عالم الإسلام . فهو - كما يقول الشيخ مصطفى عبدالرازق [١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م] - : « لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن . ولم تدخل فكرة الوطنية . بهذا المعنى . فى مذهبه الاجتماعى

وللممالك الشرقية الإسلامية حب في نفسه ينظمها جميعاً .. « (١) .. وعندما تحدث الأفغانى عن « موطن » اهتمامه . التى وهب لها حياته التضالية . تحدث عن الشرق كله . فقال : « الشرق ! الشرق ؟ ! .. لقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ونحوى دوائه ! .. » ثم أخذ يعدد بلادده . فذكر أفغانستان .. والهند .. وإيران .. وجزيرة العرب .. والصين .. والهند .. والعراق .. والشام .. ومصر .. والأندلس .. وكل صقع ودولة من دول الإسلام .. « (٢)



ومن الطبعى - الذى استقر عليه الباحثون وتعارفت عليه مناهج التاريخ - أن المصدر الأول في « الترجمة » هو ما قال صاحب هذه « الترجمة » - إذا لم تقم الأدلة الوثوق بالتشكيك فيما قال - . ولحسن الحظ فإن جمال الدين الأفغانى . ومع كل الأثمة والأعلام والعلماء الذين عاصروه وحاموا من بعده فأرخوا لحياته . قد أجمعوا على أن « الموطن » الذى ولد فيه هو قرية « أسعد آباد » الأفغانية . إحدى قرى مقاطعة « كتر » . بالقرب من « كابل » ، عاصمة أفغانستان .

● جمال الدين : عندما تحدث عن حياته التضالية . وعن اهتماماته قال : « لقد نظرت إلى الشرق وأهله . فاستوقفتنى الأفغان . وهى أول أرض مس جسدى قراها . ثم الهند - وفيها تنقف عقلى - فإيران . بحكم الجوار والروابط . وإليها كنت صرفت بعض همى . فجزيرة العرب . من حجاز مهبط الوحى ومشرق أنوار الحضارة . ومن يمن وتباعتها وأقيال

(١) مقدمة طبعة مجموعة [العروة الوثقى] ص ١٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٩٥ - ٢٩٦

حمير فيها ، ونجد ، وعراق وبيداد وهاروسها ، ومأمونها . والشام ودهاة
الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها . . ومصر روح الممالك الإسلامية وباب
الحرمين الشريفين . . وهكذا ، كل صقع ودولة من دول الإسلام في
الشرق . . » (٣)

ففي هذا النص يتحدد الأفغاني أن أفغانستان « هي أول أرض مسر
جسمه ترابها . . فهي « الموطن » الذي ولد فيه . . ومن ثم فهو « أفغاني »
بشهادته هو . كمرجع أول في الترجمة ، ومصدر أول في التأريخ . .
وفي نص آخر ، يتحدث جمال الدين عن سيرته الذاتية ، فيقول - في
معرض المسائل عن جدوى ومنفعة كتابته - أو إملائته - هذه السيرة
الذاتية - يقول : « وأي نفع لمن يذكرني ولدت سنة ١٢٥٤ هـ .
وعمرت أكثر من نصف عصر . واضطرت لذلك بلادى « الأفغان »
مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض ، وأكرهت على مبارحة الضد .
وأجبرت على الابتعاد عن مصر . أو إن شئت فقل نقيت منها ، ومن
الآستانة ، ومن أكثر عواصم الأرض ! . . » (٤)

ففي هذين النصين يقطع الرجل بأن أفغانستان هي موطنه الأصلي ،
وأن إيران هي جارة موطنه ، تربط بينهما الروابط .

● وكل الأعلام الذين أروخوا حياتهم ، المتعاصرون له منهم
واللاحقون ، غربا كانوا أو عجم . مسلمين كانوا أم غير مسلمين - باستثناء
من جعل خصوم الرجل ، بدلا منه . المصدر الثقة في التأريخ له - كما

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٤١

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٣٧

سنفصل القول فيه وفيهم بعد قليل - قد أجمعوا على أنه « أفغاني » المولد والنشأة .

فالإمام محمد عبده . وهو العمدة والحجة الثقة في التاريخ لجمال الدين . يقول : « وإنا لنذكر محمداً من خبره . نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة : هذا هو السيد محمد جمال الدين . من بيت عظيم في بلاد الأفغان . ولد السيد جمال الدين في قرية « أسعد آباد » . من قرى « كتر » . من أعمال « كابل » ... » (٥)

ومع محمد عبده . في هذه القضية . اتفق : رشيد رضا . وحسن البنا . وعبد الحميد بن باديس . وعبد القادر المغربي . ومحمد باشا الخزومي . وشكيب أرسلان . وعبد الله النديم . ومصطفى عبد الرازق . وأديب اسحق . ومحمد الفاضل بن عاشور . وسليم نقاش . وسليم العنحوري . وجرجي زيدان . ومحمد المويلحي . وإبراهيم اللقاني . وإبراهيم الطباوي . وسعد زغلول . ومحمد إقبال . وعباس العقاد . وأحمد أمين . وعبد الرحمن الرافعي . ومالك بن نبي . والدكتور محمود قاسم . والفيلسوف فيليب دي طرازي . وجمهرة علماء وأعلام العرب والمسلمين الذين أرحوا لجمال الدين أو عرضوا لسيرته فيما كتبوا عن تجديد الإسلام .

وكذلك صنع أغلب المستشرقين . من « بلنت » إلى « رينان » . إلى « جولدميهر » . إلى « تشارلز آدمز » . إلى « لوثراب ستودارد » . الذي قال عنه : « إنه أفغاني الأرومة . لا فارسي » (٦) . إلى المستشرق

(٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٤٤ - ٣٤٥

(٦) [حاضر العالم الإسلامي] جلد ١ ج ١ ص ٣٠٥

السوفيتي «لوتسكي» . صاحب كتاب [تاريخ الأقطار العربية الحديث] .. الخ .. الخ ..

هذا هو الإجماع .. إجماع العلماء والمؤرخين والمفكرين على «أفغانية» جمال الدين ..

لكن الدكتور لويس عوض - كما هي العادة - جاء ليرفض هذا الإجماع . لا لأن «إيرانية» الأفغاني - التي قال بها - أحب إليه من «أفغانيتة» - التي أجمع عليها العلماء والمفكرون والمؤرخون . وإنما ليظهر الرجل بمظهر «الكاذب» . الذي يخدع العالم أجمع عندما أخفى «إيرانيته» و«شيعيته» . وأوهم الجميع أنه «سنى» من «أفغانستان» ! ..

ولقد كان لابد للدكتور لويس . وهو يرفض إجماع العلماء والمفكرين . من أن يتخذ لنفسه مراجع أخرى غير أعمالهم العلمية . فكان صريحاً عندما قال لنا إن مراجعته هي تقارير الجواسيس التي ضمتها الملفات السرية لأجهزة الأمن والاستخبارات في عواصم الاستعمار التي حاربت جمال الدين ؟ !

قال الدكتور لويس في «دراسته» عن الأفغاني : «لقد أوهم كل من عرفهم . في مصر وأوروبا . أنه أفغاني بالمولد والنشأة . فلا نجد إشارة إلى إيرانيته إلا في الملفات السرية الأوروبية . وفي جوازات السفر التي كان يزودها بها قناصل إيران . وهي مصورة في الوثائق البريطانية» .

ورغم أن الدكتور لويس ناقل لوجهة النظر هذه عن الكتابات الاستشراقية الحديثة . التي كتبها صهيانية وأشباه صهيانية . والتي أشرت إلى

فيمتها عند تفويتنا ثقيمة «المصادر» التي استند إليها في «دراسة» ... ورغم
الشذوذ الذي يبدو في موقف من يأتي ليعارض المصادر التاريخية التي كتبها
العلماء والمفكرون والمؤرخون بتقارير الحواسيس وملفات أجهزة الأمن
والاستخبارات الاستعمارية .. رغم كل ذلك فإننا مستصني لننظر فيما استند
إليه الدين قالوا «إيرانية» جمال الدين ، ليزي هل هذه «الأوراق» حفظ
من الصدق بكسبها شيئا من الاحترام ! ..

في دراسة الدكتور لويس هناك تركيز على «أوراق» أربعة نقول إن
جمال الدين ليس أفغانيا .. أو تشكك في أفغانيته .. فلننظر في هذه
«الأوراق» ..

١- «الورقة» الأولى هي ذلك «التقرير الذي كتبه موظف في حكومة
كابول سنة ١٨٦٨ م كان يعمل جاسوسا لحساب الانجليز ، والتقرير بعنوان
[سجل بأوصاف السيد الرومي] .. وكما سبق وتحدثنا عن هذا
التقرير ، فليس فيه ما يدل على أن المعنى به هو جمال الدين ، فهو يتحدث
عن «سيد رومي» ، أي «شريف تركي» .. وهذا تناقض ، لأن «السيد»
هو العربي من آل بيت الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، ولا يمكن أن
يكون «التركي» عربيا من آل بيت الرسول ! .. ثم إن هذا التقرير يصف
«السيد الرومي» سنة ١٨٦٨ م بأنه «بتكلم التركية بطلاقة» .. ومعروف -
كما ذكر الدكتور لويس - أن جمال الدين عندما رار الأمثلة - بعد ذلك
التاريخ - لم يكن باستطاعته أن يلقى محاضراته في «دار الفنون» باللغة
التركية ، لأن معرفته باللغة التركية كانت ناقصة ! .. فكيف هذه المحاضرة
التي ألقاها في سنة ١٨٧٠ باللغة العربية^{١٤} .. ثم .. أليس من البديهي أن

(٨) [التصامن] العدد ١ ص ٥٤ .

(٩) [التصامن] العدد ٥ ص ٦٧ .

يكون كاتب التقرير - وهو أفغاني الجنسية - أقدر على اكتشاف «إيرانية» من يتحدث عنه - إذا كان إيرانيا - والأفغانيون والایرانيون أبناء أرومة واحدة - ومتجاورون - يتكلمون لغة واحدة - من قدرته على اكتشاف «روميته» - عثمانيته وتركيبته - ؟ !

إن هذه الورقة ليس فيها ما يدل على أن المعنى منها هو الأفغاني - وما بها من أوصاف لا ينطبق عليه - ثم إنها تتحدث عن «رومي» - وليس عن «إيراني» - فهي ساقطة - بكل المقاييس - من قائمة الأوراق التي بسوقها أصحابها للتدليل على «إيرانية» جمال الدين -

٢ - والورقة الثانية هي «تقرير لجاسوس آخر لحكومة الهند الانجليزية - يظن أنه أفغاني - منشور في «موجز وثائق كابول» - وحظ هذه الورقة من الاختصاص بالأفغاني كحظ سابقتها - فهي الأخرى تتحدث عن «الحاج السيد الرومي» (١٠) - وليس فيها ما يدل على أن المعنى هو جمال الدين !

٣ - أما الورقة الثالثة - فيشير إليها الدكتور لويس بقوله : «إن قنصل إيران في القاهرة رود الأفغاني في يوليو سنة ١٨٧١ م بجواز سفر إيراني ليؤمر به استانبول [والجواز مصور في وثائق وزارة الخارجية البريطانية] - ثم يوحى بأن الأفغاني - رغم التحاليل لقب الأفغانية - كان محافظا على جنسيته الإيرانية» (١١) -

وهذه الورقة - جواز السفر - تستحق منا وقفة - تكشف ريفها مثل باقي الأوراق التي تساق للدلالة على «إيرانية» جمال الدين -

(١٠) [التضامن] العدد ٣ ص ٧١

(١١) [التضامن] العدد ١٥ ص ٦٤

وبادئ ذي بدء ، فنحن نقول : إن حصل الإنسان المفكر والمناضل
جواز سفر من دولة ما لا ينهض دليلا على أنه من مواليده تلك الدولة بأي
حال من الأحوال . فكثيرون من الذين تسوء علاقاتهم بموطنهم الأصلي .
والذين يناضلون ضد النظم السياسية السائدة في مواطنهم الأصلية يحصلون
جوازات سفر مستخرجة من بلاد أخرى . دون أن يكونوا مواطنين فيها .
فصلا عن أن يكونوا من مواليدها ؟ ! .. ذلك أمر شهير . وكثير ! ..
ثم إن لدينا على هذه « الورقة » - جواز السفر - الذي لم يقدم لنا
الدكتور لويس صورته .. ولكننا نقلناها عن [دائرة المعارف الشيعة
الإسلامية] ^(١٢) . وألحقناها بدراستنا هذه ليرى فيها القراء ما رأيناه بها من
أدلة التزيف ! - إن لدينا على هذه « الورقة » ما يثبت أنها « مزورة
ومرفقة » . أو مقطوعة الصلة بجبال الدين الأفغانى ؟ ! .. فهى

(أ) مكتوبة بالفارسية . ومطبوعة بالمطبعة . والاسم المستخرجة له -
وهو مكتوب بالقلم - هو : « السيد المحترم جمال الدين » . وليس في
التذكرة ما يثبت أن جمال الدين هذا هو جمال الدين الأفغانى ؟ ! .. ولقد
كان الأفغانى أحرص ما يكون على ذكر لقب « الحسينى » عقب اسمه « جمال
الدين الحسينى » .. فلقب « الحسينى » كان عنوان انتساب جمال الدين إلى
آل البيت .. ولقد كان الرجل - كما يقول محمد عبده - : « فخورا بهذا
النسب .. لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أرفع من كونه من سلالة ذلك
البيت الطاهر » ^(١٣) .. فما الذى يثبت أن هذه الورقة مستخرجة لجمال
الدين الأفغانى ؟ ! .. ولم لا تكون خاصة بآخر اسمه جمال الدين ؟ ! ..

(١٢) صنفها الأستاذ حسن الأمين . انظر المجلد الثانى ج ٦ ص ١٤ .

(١٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

(ب) في هذه « الورقة » ، وأسفل الاسم ، عبارة : « متوجه إلى
 اسلامبول » .. الأمر الذي يعنى أنها قد استخرجت « جواز سفر » و « تذكرة
 مرور » لـ « جمال الدين » المتوجه إلى عاصمة الدولة العثمانية .. فإذا علمنا
 أن تاريخ استخراج هذه « التذكرة » - كما هو ثابت عليها - في أسفلها -
 هو : « في يوم السبت ١٣ جماد أول سنة ١٢٨٨ هـ » .. ونحسب في سيرة جمال
 الدين الأفغانى عن حاله في ذلك التاريخ ، تأكد لنا أن لا علاقة للأفغانى
 بهذه « التذكرة » ، التى إما أن تكون « مزيفة » ، أو خاصة بآخر يحمل اسم
 « جمال الدين » ! .. فى ذلك التاريخ - ١٣ جماد أول سنة ١٢٨٨ هـ -
 وهو الذى يوافق ٣١ يوليو سنة ١٨٧١ م - كان الأفغانى قد استقر بمصر ،
 التى جاءها في أول محرم سنة ١٢٨٨ هـ (٢٣ مارس سنة ١٨٧١ م) .. وهو
 قد جاء مصر ، في ذلك التاريخ ، منفيا بأمر صادر من الصدر الأعظم
 وبإرادة سلطانية من السلطان عبدالعزیز .. والمعركة ضده كانت لا تزال
 قائمة في الآستانة .. ولجنة من هيئة كبار العلماء لازالت تجتمع لتؤلف
 ضده الكتب ولتصدر الفتوى بأنه « مرتد يجب قتله إذا لم يتب » عن آرائه
 في محاصرة « دار الفنون » ! .. فهل من المعقول أو المقبول أو المتصور أن
 يستخرج الأفغانى جواز سفر إیرانى ليذهب إلى « اسلامبول » في ذلك
 التاريخ ، وفي ظل تلك الظروف والملابسات ؟ ! .. ثم إن الثابت ، في
 سيرة الرجل ، أنه قد لازم مصر ثم بغادرها ، لا إلى « اسلامبول » ولا إلى
 غيرها منذ جاءها منفيا من الآستانة حتى نفى منها سنة ١٨٧٩ م ..

(ج) ثم إن الرجوع إلى حسابات الشهور القمرية بوجه إلى هذه
 « التذكرة » طعنا جديدا « بالترفيف والتزوير » .. فهى تقول إن يوم الثالث
 عشر من جماد أول هو يوم السبت ، بينما كان هذا التاريخ موافقا ليوم
 الاثنين ، فلقد بدأ شهر جماد أول ، ذلك العام ، يوم الأربعاء - ١٩ يوليو

سنة ١٨٧١ م - ١٣ أبيب سنة ١٥٨٧ قبطية^(١٤) - .. ووجود فارق يومي بين حسابات الشهر الثابتة وبين ما في «التذكرة» يقطع بزيفها ونهايتها .. وهو ليس بالفرق الذي يمكن أن يعزى للاختلاف - بسبب الاعتماد على رؤية الهلال - بين «المواقع والمطالع» وبين «الحساب الفلكي» للشهور . فذلك الاختلاف لا يتعدى اليوم الواحد ، عادة ، عندما يحدث ، ثم يعود الاتفاق في الشهر التالي ! ..

(د) وأيضاً .. فإن كل الذين قالوا ويقولون «إيرانية» جمال الدين ، قد عللوا انتسابه إلى أفغانستان ، واشتباره بالأفغاني .. عللوا ذلك بأن الرجل كان حريصاً على إخفاء «إيرانيته» ليخفى «شييعته» . حتى يستطيع أن يلعب الدور الذي أراد في إطار العالم السني .. فإذا أخذنا منطقهم هذا ، كان من حقنا أن نسألهم : هل يتسق مع هذا المنطق أن يستخرج جمال الدين جواز سفر إيراني ليذهب به إلى اسلامبول ، عاصمة الإسلام السني والخلافة السنية ، في تاريخ كانت المعركة قائمة على أشدها بينه وبين مشيخة الإسلام السني ؟ ! ..

هل هذا معقول ، يا عزيزنا الدكتور لويس ؟ ! ..

(هـ) وأخيراً .. فإذا كان الأفغاني قد حمل في سنة ١٨٧١ م جواز سفر ثبتت إيرانيته .. وأنه كان في ذلك التاريخ - وفق عبارة الدكتور لويس «محافظاً على جنسيته الإيرانية» .. فلم ظل الجميع . في الشرق والغرب ، يصدقون «أفغانيته» ؟ ! .. ولم لم تظهر دعوى «إيرانيته» إلا في سنة ١٨٩٦ م ؟ ! ..

(١٤) انظر تفريغ ذلك العام في «كتابات التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الفجرية بالقبطية والأفريقية» ص ١٣٣٦ - وهو من تأليف محمد مختار باشا المصري - الطبعة التي حققناها ، بيروت ، سنة ١٩٨٠ م

إن من « يحرص على جنسيته الإيرانية » . ومن يحمل « جوازات سفر إيرانية » . ليس هو الذي يخفى إيرانيته .. وليس هو الذي يجمع الناس على تصديق انتسابه إلى أفغانستان .. فهذه الأوراق - على فرص صحتها - ليست خاصة بجمال الدين ! ..

٤- أما الورقة الرابعة . فيقول الدكتور لويس : إنها « رسالة في الصلوات » . من تأليف الشيخ أحمد الأحسائي . نسخها جمال الدين بيده أيام إقامته ببغداد . ووقعها - كناسخ - بإمضائه : « جمال الدين الحسيني » . ويذكر الدكتور لويس أن الأفغاني وضع كلمة « الاستانبولي » بعد اسمه .. وأن هذه الكلمة قد شطبت . ووضع عليها - بالحبر الأحمر - كلمة « الكابولي » - نسبة إلى « كابول » - عاصمة أفغانستان - كما أن كلمة « بغداد » قد شطبت هي الأخرى واستبدلت بكلمة أخرى غير مقروءة .. ثم يعتقد الدكتور لويس على هذا الموضوع فيقول - بعد أن نسب عمليات الشطب والاستبدال إلى الأفغاني - : يقول . « وهكذا بدأ جمال الدين الأسد آبادي الإيراني . لأمر ما . يخفى منشأه الحقيقي ويتحلل جنسية غير جنسيته .. » (١٥)

ولو كان الدكتور لويس على دراية « بالخطوط » وما يصنع « النساخ » بها .. ولو استشار أهل الذكر من ذوي الدراية « بالخطوط » لثبت قبل أن يقول ما قال .. ذلك أن المتصور . من خلال كلامه . أن الأفغاني قد وقع على المخطوطة - كناسخ - باسمه : « جمال الدين الحسيني » - كما كانت عادته في التوقيع - ثم جاء القراء للمخطوطة فثار عوا . كل منهم يريد أن يشرف موطنه نسبة جمال الدين إليه .. فالبغدادى منهم قد كتب

(١٥) [التضامن] العدد ٣ ص ٦٨ .

«البغدادى» .. ثم جاء من شطب ما وجد وكتب «الاستانبولى» .. ثم جاء من شطبها وكتب «الكتابولى» .. فهذه أمور مألوفة من القراء الذين يسيحون لأنفسهم العبث بالمخطوطات .. وحرام أن تتخذ هذا «العبث» سبيلا إلى ما هو أشد منه فى تاريخ الرجال ؟ ! ..

تلك هى «الأوراق» الأربع التى ضمتها «الملفات السرية الأوربية» . التى اعتمد عليها الذين ادعوا «إيرانية» جمال الدين .. وهم الذين نيعهم على درجهم هذا . الدكتور لويس ..

لكن هذه «الملفات السرية الأوربية» قد ضمت تقارير أخرى وأوراقا كثيرة . كتبها ساسة وفناصل وصحفيون . وأيضاً جواسيس - قالت إن جمال الدين : «أفغانى بالمولد والمنشأ» .. ولقد جاء ذكر هذه التقارير والأوراق فى دراسة الدكتور لويس .. فلم لم يقف عندها ؟ ولم لم يقارن بينها وبين «الأوراق» الساقطة المتهاقطة التى اعتمد عليها فى تقرير «إيرانية» جمال الدين ؟ ! .. على الأقل فإن التقارير والأوراق التى تقول إنه أفغانى . كانت تتحدث صراحة عن الرجل - عن جمال الدين - ولم تكن تتحدث عن «السيد الرومى» . ذلك المجهول ؟ ! .. ثم إنها محفوظة فى ملفات المباحث وأجهزة الأمن والاستخبارات ووزارات المستعمرات فى عواصم الاستعمار . ومن ثم فإنها من النوع الذى يحظى باحترام الدكتور لويس حتى ليسمى «وثائق» ١ .. فلم لم يعر انتباهه لهذه التقارير والأوراق .. من مثل :

(أ) تقرير «السير فرانتك لاسينز» . قنصل إنجلترا العام فى مصر . الذى كتب لوزير خارجيته اللورد سالسبورى . عن جمال الدين الأفغانى . بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٩ م . بمناسبة نفي الأفغانى من مصر .. وفيه يقول : «أبلغنى الأمير نوفيق أنه قد نبه : منذ فترة . إلى نشاط رجل أفغانى

اسمه جمال الدين . يعرض الشعب على الثورة ..»^(١٦) .

(ب) رسالة مراسل «التايمز» بالقاهرة لجريدته - التي كتبها في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٧٩ م . والتي نشرت في ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٩ م . وهذا المراسل قد عرف الأفغانى عن قرب . ولقبه . وأجرى معه حديثا لجريدته .. وهو يتحدث عنه . في هذه الرسالة . فيقول : «... فهو . بالبلاد ، أفغانى من كابول ...»^(١٧)

(ج) تقارير الجواميس الانجليز عن تحركات جمال الدين سنة ١٨٨٧ م .. وهى تتحدث عنه كأفغانى ..

(د) تقرير حكومة الهند إلى الحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ م عن جمال الدين .. وهو يتحدث عنه . أيضا . كأفغانى^(١٨) .

إنها - هى الأخرى - تقارير وأوراق . ضمتها «الملفات السرية الأوربية» . ولذلك كانت جذيرة بالاعتبار من الدكتور لويس !



لقد كانت معركة الأفغانى الكبرى ضد الاستعمار . الخطر الرئيسى الذى تهدد الشرق العربى والإسلامى فى ذلك التاريخ .. وكان تركيزه الأساسى ضد الاستعمار الانجليزى . لما كان يمثل كراسى حربى للاستعمار الأوربى يومئذ .. ولذلك فإن صراع الأفغانى مع الانجليز ، فى أفغانستان ، والهند . ومصر . وإيران . والسودان . والعراق . وتركيا . قد جعل الانجليز أعرف الأوربيين بجمال الدين .. فإذا كانت تقاريرهم وكتاباتهم عنه حتى سنة ١٨٩٦ م - أى إلى ما قبل شهر من وفاته - تتحدث عنه

(١٦) [التضامن] العدد ١ ص ٥٥ . (١٨) [التضامن] العدد ١٥ نص ٦٥ .

(١٧) [التضامن] العدد ١ ص ٥٥ .

«كافغاني المولد والنشأ» .. فمن أين ؟ .. ومنى ظهرت دعوى «إيرانية»
جمال الدين ؟؟

لقد جاءت هذه الدعوى من خصوم الأفغاني في إيران . وبالتحديد
من الشاه الايراني مظفر الدين [١٢٧٠ - ١٣٢٥ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٧ م]
ما متى ظهرت هذه الدعوى . فبعد مقتل الشاه الايراني ناصر الدين
[١٢٤٥ - ١٣١٣ هـ - ١٨٣١ - ١٨٩٦ م]

في ١٧ ذي القعدة سنة ١٣١٣ هـ - ٣٠ إبريل سنة ١٨٩٦ م - تقدم
بـ «دعوى ميرزا رضا» قبل إنه كان من تلاميذ الأفغاني - تقدم من
الشاه ناصر الدين . وهو يزور «مشهد عبد العظيم» - المكان الذي طرد منه
هذا الشاه جمال الدين الأفغاني . قبل سنوات . على نحو مهين وبالغ
القسوة - تقدم ميرزا رضا من الشاه فصرعه بخجروه . وهو يصيح :
«خذها من يد جمال الدين» ؟ ! ..

وكان الأفغاني يعيش يومئذ بالآستانة .. فأراد الشاه الجديد
مظفر الدين . استحضاره إلى إيران لمحاكمته والقصاص منه . بتهمة
التحريض والتدبير لمقتل الشاه ناصر الدين . لكن - كيف السبيل إليه .
وهو بالآستانة . في ضيافة السلطان السني عبد الحميد ؟ ! .. هنا تفنق
ذهن البلاط الايراني عن حيلة الادعاء بأن جمال الدين ايراني الأصل
والمولد .. بل وشيخي المذهب .. ومن ثم فمن حق إيران أن تطلب من
الدولة العثمانية تسليمه لها لمحاكمته كمحرض ومدير لاغتيال الشاه
ناصر الدين .. ولقد أوعز الشاه مظفر الدين إلى حاكم «أسد آباد»
الايرانية أن يكتب «عريضة» يوقع عليها نفر من أهل المدينة . تشهد
بإيرانية جمال الدين .. ثم أرسلت هذه «العريضة» إلى الآستانة . ورفعت

إلى السلطان عبد الحميد بواسطة «علاء الملك» - السفير الإيراني في تركيا ..

تلك كانت بداية الدعوى .. وهذا هو مصدرها .. ومنها بدأت عملية التلفيق والجمع لشهادات نفر من الناس - بعضهم زعم أنه من أقارب جمال الدين القاطنين في «أسد آباد» الإيرانية - ثم طبعت هذه الشهادات في الكتاب الذي حمل عنوان [جمال الدين الأسد آبادي - المعروف بالأفغانى] - وهو الكتاب الذى سبق وأشرنا إلى ما يحمله من تناقضات وقصص واهية نجعله أدخل في «العيب» وأبعد ما يكون عن ما يقرم المراجع والمصادر من تماسك يكسبها الاحترام ! ..

وكما كانت تلك هي بداية الدعوى .. فقد كان هذا «الكتاب» عمدة الذين زعموا «إيرانية» جمال الدين ! .. أما قبل هذا التاريخ - الذى سبق وفاة الأفغانى بأقل من عام - فلم تكن هناك «ورقة» أو دعوى تتحدث عن «إيرانية» جمال الدين .. بل إن كتاب [جمال الدين الأسد آبادي] ذاته يحدد ويعلن أن مقتل الشاه ناصر الدين كان السبب الذى أدى - كما يقول - إلى كشف حقيقة جمال الدين .. وأنه إيراني المولد والمنشأ .. شيعي العقيدة والمذهب .. « .. بل ويعترف أن هذه الدعوى قد مثلت أمضى أسلحة خصوم جمال الدين في صراعهم ضده .. ذلك «أن خصوم جمال الدين - حينما أخذوا يناوئونه ويدسون له - لم يجدوا شيئا يغمزونه به إلا كونه إيرانيا شيعيا - وأنه يكذب ويدعى أنه أفغانى سنى حتى يجد له طريقا في تركيا والأقطار الإسلامية التركية ! ..»^(١٩)

(١٩) [جمال الدين الأسد آبادي] ص ٢٥ - ١٦

.. لقد أراد الشاه مظفر الدين ، - هذا الادعاء ، «إعدام جسده جمال الدين الأفغاني» ..

.. وأراد خصومه الفكريون ، من شيوخ الرحبية العثمانية ، وعلى رأسهم الشيخ أبو الهدى الصيادي [١٢٦٦ - ١٣٢٧ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٩ م] - بئلقفهم هذا الادعاء - «إعدام حركة البعث والتجديد الاسلامي» التي قادها وجسدها جمال الدين ..

.. ثم جاء الخصوم الألداء لتيار «الصحة الإسلامية» وحركة «الاحياء الاسلامي» ، قتلقتوا ، هم أيضا هذا الادعاء لتشيويه هذه «الصحة» وهذا «الاحياء» بإهالة التراب على الرمز الذي ارتاد ميدانها .. وذلك بإظهاره في صورة «الكاذب - الأفاق» !

لقد بدأ الشاه مظفر الدين القصة بالعريضة - التي تشبه «شهادة شيع الحارة» - تلك التي كتبها «عمدة» «أسد آباد» .. وتلقف أبو الهدى الصيادي الخيط ، فكتب إلى رشيد رضا ، عقب وفاة الأفغاني ، يقول : «إني أرى جريدتك - [المنار] - ضافحة بشقائق المتأففين جمال الدين الملققة . وقد ندرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها . وقد ثبت في دوائر الدولة رسميا أنه مازندراني - [نسبة إلى مقاطعة مازندران الايرانية] - من أجيال الشيعة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية ..» (٢٠) ! .. ثم جاء نفر من صبية المستشرقين - صهيانية وأشباه صهيانية - فساروا على درب الادعاء «بإيرانية» جمال الدين .. حتى كانت الطبعة العربية لدعواؤهم هذه ، تلك التي عرج عليها الدكتور لويس عوض .. والتي جعل عنوانها : [الايراني الغامض في مصر] ٢ !

(٢٠) [تاريخ الامتاف الإمام] ج ١ ص ٩٠

تلك هي قصة «إيرانية» جمال الدين .. وذلك هو حظها العظم من
التهاوت والسقوط !



وكما أن «إيرانية» الأفغانى - لو كانت حقيقة - ما كانت لتعيده
فكذلك «شيعته» - لو كانت هي مذهب - ما كان لها أن تنقص من قدره
في نظر المسلمين المستنيرين ! فتراث الإسلام الفكرى والعلمى
والخضارى يزدان بأعلام الشيعة ، في كل الميادين ، وعلى مر العصور ..
لكن .. كما كان الهدف من دعوى «إيرانية» هو إظهاره في صورة
«الكاذب» .. كذلك كان الهدف من دعوى «شيعته» !

ومن البداية ، نريد أن نؤكد أن جمال الدين لم يكن متمذبا بالمعنى
الضيق لمصطلح «المذهب» .. كما شاع ويشيع في حياتنا الفكرية
والعملية .. وإنما كان مسلما مجتهدا .. لقد كان يأخذ إسلامه من المصادر
الأصلية للإسلام .. ولا يقلد في ذلك مذهبا من مذاهب المسلمين .. كان
يشرب الماء من النهر ، لا من الساقية ! .. لكن الرجل لم يكن شيعيا
بحال من الأحوال .. وإن ربطته بمجتهدى الشيعة علاقات كالتي ربطته
بعلماء السنة في العصر الذى عاش فيه .. كان مسلما مجتهدا .. لكن نشأته
وتكوينه الفكرى .. واختياره قد جعل «السنة» - بالمعنى العام - الإطار
الذى مارس فيه الاجتهاد !

ولنا على هذا الرأى أدلة كثيرة .. منها ما أخذناه من شهادات العلماء
العدول الذين عاشوا جمال الدين وزاملوه وشاركوه فكره ونصائه
وحبروه - ونموذجهم الذى نختاره هو الأستاذ الامام محمد عبده - ومنها
ما استقيناه من المصدر الأوثق والمرجع الأول .. وهو فكر جمال الدين
ذاته ، الذى يحدد الإطار المذهبى الذى عاش فيه ..

● [فالعروة الوثقى] - الجمعية السرية - كانت رئاستها للأفغانى .
وكان محمد عبده نائبه فى رئاستها .. وعندما سأل أحد أعضائها محمد عبده
عن « مذهب » [الجمعية] كتب إليه يقول : « إنا سنيون ، أشعريون أو
ما تريديون . وإنا فى أعمال العبادات دائرون على المذاهب الأربعة ..
وفى المعاملات على مذهب حاكم البلاد . إن وافق واحدا منها . فإن كان
على غيرها توقينا المرافعة إليه ما أمكننا .. » (٢١) .

فهى جمعية سنية المذاهب . إن فى العبادات أو المعاملات ..

● وعندما ترجم الاستاذ الامام لأستاده جمال الدين . كتب - انطلاقا
من « كمال الخبرة وطول العشرة » .. - حسب تعبيره - عن مذهب جمال
الدين يقول : « ... أما مذهب الرجل فحنيفى - [أى مسلم موحد]
حنفى . - [والمذهب الحنفى هو السائد فى أفغانستان] - وهو وإن لم يكن
فى عقيدته مقلدا . لكنه لم يفارق السنة الصحيحة . مع ميل إلى مذهب
السادة الصوفية .. » (٢٢) .

● وحتى كتاب [جمال الدين الأسد آبادى] - الذى يزعم « إيرانية »
جمال الدين .. نراه قد ضم « شهادة » لأحد الأحرار الإيرانيين المشتغلين
بالمعارف فى أذربيجان - وهو الميرزا السيد حسين خان عدالت - تثبت أن
جمال الدين كان مجتهدا . لم يضع نفسه فى الإطار المذهبي الضيق ... يقول
صاحب هذه « الشهادة » : « وكان كل من يسأل عن مذهب السيد .
يجيبه : « بأنى مسلم » ! . وحدث أن سأل أحد علماء السنة السيد قائلا
ما عقيدتك ؟ فأجاب : « إنى مسلم ! » . فسأله ثانية : من أى المذاهب

(٢١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ١ ص ٦١٤ .

(٢٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٥١ .

أنت ؟ فأجاب السيد : إني لم أعرف في أئمة المذاهب شخصا أعظم مني حتى أسلك طريقته ! إني أوافق بعضهم في أمر . وأخالفهم في أمور ! ... (٢٣)

فرغم اتسام الإجابة بخدة الجدل ، إلا أنها تم عن الاجتهاد الذي يرفض التمسك بالمعنى الضيق - ويأبى التقليد !

● وهناك الكتب التي شرحها الأفعاني لتلاميذه في سنوات إقامته بمصر . وهي التي تعكس تكوينه الفكري واختياره المذهبي . بالمعنى العام ... وهذه الكتب - التي ضمت مجموعة من عيون كتب المنطق والهيئة والتصوف والفقه وأصوله - هي من مصادر الفكر السنّي - وهي ، لذلك ، شاهد على أن « السنة » كانت « خياره الفكري والمذهبي » ، وليس الشيعة والتشيع ... فمن هذه الكتب :

١ - [الرسالة الزوراء] - في التصوف - للإمام السنّي حلال الدين الدواني .

٢ - [شرح القطب الرازي على الشمسية] - في المنطق - والشارح - وهو القطب الرازي - سنّي .. وصاحب « المتن » - [الرسالة الشمسية] - هو المفكر السنّي نجم الدين أبو الحسين علي بن عمر القزويني الكاتب ، المعروف بدبيران ..

٣ - [مظالم الأنوار] - في المنطق - للمفكر السنّي سراج الدين أبو الثناء محمود بن أبي بكر الأرموي ..

٤ - [سلم العلوم] - في المنطق - للعالم السنّي محب الله بن عبد الشكور البهاري .

(٢٣) [جمال الدين الأمد آبادي] ص ١٦٢

- ٥ - [الهداية] - في المنطق - للعالم السني أثير الدين المفصل بن عمر الأبهري ..
- ٦ - [الإشارات] لابن سينا ..
- ٧ - [حكمة العين] - في الألفي والطبيعي - للعالم السني الكاتبي القزويني ..
- ٨ - [حكمة الاشراف] - في التصوف - للسهروردي المقتول ..
- ٩ - [شرح الدواني للعقائد العنصرية] - في علم الكلام - للإمام السني جلال الدين الدواني ..
- ١٠ - [التوضيح - بحاشية التفتازاني] - في فقه الأحناف - لـصدر الشريعة الأصغر عبيد الله بن مسعود بن تاج الشريعة ..
- ١١ - [التلويح في كشف حقائق التنقيح] - في أصول الفقه - للعالم السني سعد الدين التفتازاني
- ١٢ - [من الجعيني] - في اهيئة - للعالم السني أبو علي محمود بن محمد ابن عمر شرف الدين الجعيني ..
- ١٣ - [العقائد النسفية - بشرح التفتازاني] - وهو من أهمات كتب السنة (الأشعرية) في العقائد ..
- ١٤ - [تذكرة الطومى] - في اهيئة - للعالم الشيعي نصير الدين الطومى .. (١٢٤)

(٢٤) [الأعمال الكاملة لحاج الدين الأفغاني] ج ١ ص ٣٢ و [معجم المصنفات العربية والمعربة] لسركيس - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م . و [كشف الطومى عن أسامي الكتب والنون] لحاجي خليفة - طبعة استنبول سنة ١٩٤١ م . و [التفسير ورجاله] محمد الفاضل بن عاشور - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م . و [القاموس الإسلامى] لأحمد عطية الله - طبعة القاهرة .

فهذه الكتب السنية ، في أغلبيتها الساحفة ، وفيها أمهات لكتب العقائد السنية - والأشعرية بالذات - دليل على التكوين الفكري والخيار المذهبي - السني - لجمال الدين الأفغانى ..

● وفي شرح الأفغانى وتعليقاته على أحد هذه الكتب [شرح الدوائى للعقائد العضدية] تشيع العبارات التى تقطع « بالخيار السنى » لجمال الدين .. من مثل قوله ، فى الحديث عن مشايخ « مذهبه » : « ... وهذا هو دأب مشايخنا ، كالشيخ الأشعرى ، والشيخ أبى منصور - [الماترىدى] - ومن مثلهم . لا يأخذون قولاً حتى يسدوه ببراہیم القوية ، على حسب طاقتهم ! ... » (٢٥١) ..

● وكذلك تعبيره ، الذى يتكرر كثيراً فى تعليقاته على [شرح الدوائى للعقائد العضدية] ، عندما يشير إلى أئمة السنة - والأشعرية بالذات - فيقول عنهم : « أصحابنا ! ... »

تلك بعض من الأدلة التى تركى الرأى القائل بأن الخيار المذهبي لجمال الدين الأفغانى كان « السنة » .. وأن اجتهاده كان فى ميدانها ... وأن الرجل لم يكن شيعياً بحال من الأحوال ...

ثم .. إن هناك أدلة أخرى ، يمكن أن تضاف إلى هذه الأدلة ، وهى التى وردت فى فكر الأفغانى عندما عرض لفكر الشيعة وآرائهم .. فنبذة النقد فيها ، وموقف الرفض لها دليل ، هو الآخر ، على خياره السنى .

● فالذين رغبوا أن جمال الدين شيعى - قالوا عنه - كالدكتور لويس عوض - إنه باطنى .. يتخلق بخلق « التقية » ، الذى يجعل الانسان يظهر

(٢٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ١ ص ٢٢٢ .

غير ما يظن ! .. لكتنا واجدون للأفغانى فكرا واضحا وحاسما يرفض «التقية» ويستقد كتمان ما يجب أن يعلن من الآراء والأحلاق .. يقول : «إني لا أرى في هذا الكون من القول أو الفعل ما يكون كتماناً لارماً . إلا ما كان في علانيته شيئاً ومعة . ولا يكون الكمال النسي في البشر إلا إذا كثر إعلانهم وقل كتمانهم . فدولة تكتم عن أمتها كل أمورها لا خير فيها . ولا هي بالدولة الأمينة من أمانتها وحسن تصرفها . ورجل يرى كل شيء يقال له . أو يجب أن بقوله سرا مكتوما . لا يرجي إلا نفاقه . وما هو بالرجل الرجل ! . ولا يشبه رجل . [ومن أحب فليعلن] والحجة هنا على مطلق المعنى . لكل شيء حق ومستحسن بالفطرة من أقوال وأفعال وصفات وذات . فمن أحب الصدق من القول لا يكتم به . ولا يحشى بأما من إعلانه . بالعكس . إذا أحب الكذب والكاذب فحقيق به أن لا يعلن ذلك ! » (٢٦) .

هذا عن رفضه «للتقية» - التي يعتبرها الشيعة ديناً يتدينون به . ويقولون إن الإمام جعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ - ٦٩٩ - ٧٦٥ م] قد قال عنها : «التقية ديني ودين آبائي» ! - لقد رفضها الأفغانى . بل ورفض فلسفتها ! ..

● وأي قلم يتحلى بالأمانة يتهم جمال الدين «بالباطنية» . ويرغم أنه «باطنى» .. وفي فكر الرجل إدانة صريحة . بل وحادة «للباطنية» - وهي من فرق الشيعة - الاسماعيلية - ٤ ! .. لقد صنفهم في عداد الماديين - الطبيعيين - وعد ظهورهم بالعالم الإسلامى من أسباب الانهيار الحضارى الذى أصاب حضارة المسلمين . فكتب في رسالة [الرد على الدهريين]

(٢٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٥٣٦ .

يقول : إنه « لما كان القرن الرابع بعد الهجرة ، ظهر النشيريون (الطيعيون) بمصر تحت اسم الباطنية - [يشير إلى الشيعة الاسماعيلية ودولتهم الفاطمية بمصر] - وخزنة الأسرار الإلهية . واثبت دعائهم في سائر البلاد الإسلامية . خصوصا بلاد إيران .. وكان إذا سقط الساقط من المغرورين في حباله مرشدهم الكامل فأول ما يلقنه المرشد قوله : إن الأعمال الشرعية الظاهرة (كالصلاة والصيام ونحوها) إنما فرضت على المحجوبين دون الوصول إلى الحق . والحق هو المرشد الكامل . فحيث أنك وصلت إلى الحق فأليك أن تلقى عن عاتقك ثقل الأعمال البدنية ! .. فإذا قرر المرشد أصول الإباحة في نفوس أتباعه التمس لهم سبيلا لإنكار الألوهية وتقرير مذهب النشيرية (الدهريين) ! .. »^(٢٧)

هذا هو رأى الأفغانى فى الباطنية .. فهم . عنده . إباحيون . منحللون من تكاليف الإسلام . بل ومسكرون للألوهية . ماديون . دهريون ! .. وهذا هو نسفيته « لنظرية المرشد الكامل » . التى لا يتورع الدكتور لويس عوض عن القول بأن الأفغانى قد اعتنفها فى « صدر شبابه »^(٢٨) .. دون أية إشارة إلى أى دليل أو مرجع ، حتى ولو كان « ورقة » من الأوراق التى كتبها الجواميس والخبرون ، والتى تحولت إلى « مصادر » يتقضى بها إجماع العلماء فى « دراسته » عن جهال الدين ! ! ..

● أما نقد الأفغانى للشيعة . بوجه عام . ورأيه فى غلوها بأن البيت .. وفى بعض من أصولها الاعتقادية .. فنحن نسوق لإثباته نصوصا ثلاثة من كتاباته :

(٢٧) المصدر السابق . ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢٨) [التضامن] العدد ١٤ ص ٧٨ .

أولها : ذلك الذي يلقي فيه نظرة تاريخية على نشأة التشيع . ويستفاد به علو الشيعة . ويشير إلى خطر الانقسام الذي شطر المسلمين إلى سنة وشيعة على صمود الأمة أمام ما يواجهها من تحديات . وفي هذا النص يقول : « لقد ظهر آل البيت النبوي . في أوقات وأزمنة مختلفة . أحزاب وشيع . فمنهم من ضل [كالمثوثة] ، وهم قوم يقولون بالوهمية على بن أبي طالب . ومنهم (المفضلة) و(الغلاة) في محبة أهل البيت . وقد دخل الاثنان تحت حكم من قال : « يهلك فينا أهل البيت : محب . وغال . وعدو قال : - [أي كاره] - . »

أما المفضلة من الشيعة . وهم يقلدون في المذهب الإمام جعفر الصادق . فهذا الجمهور من المسلمين . مجرد تقليدهم للإمام جعفر . ومغالاتهم في حب آل . وتفضيلهم للإمام على . لا يجب أن تخرجهم من عداد المسلمين .

ولقد نجس أمر هذه الفروق في الفروع . وصارت واسطة للتفرقة والتراخ . فللخصام قلة قتال . تلك الأمور سهل وجودها جهل الأمة . وسفه الملوك الطامعين في توسيع ممالكهم .

أما مسألة تفضيل الإمام على . والانتصار له يوم قتال معاوية . وخروجه عليه . فلا سلمنا أنه كان في ذلك الزمن مفيداً . فالיום نرى أن بقاء هذه النعمة ليس فيها إلا محض الضرر . وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية .

يا قوم ! وعزة الحق . إن أمير المؤمنين على بن أبي طالب لا يرصني عن المعجم . ولا عن عموم أهل الشيعة إذا هم قاتلوا أهل السنة . أو افتروا عنهم مجرد تفضيله على أبي بكر . وجميعهم لا يحسون أمر دينهم . « والتاسع أبناء ما يحسون . » وكذلك أبو بكر . فلا يرضيه أن تدافع أهل

السنة عنه . وأن تقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مرزوها ، والتي تخالف روح القرآن الأمر أن يكونوا [كالبنيان المرصوص] . أما قضية التفضيل ، فلو استحضت البحث ، بعد تلك الأحياء ، لكفى أن يقال لحل إشكالاتها : « إن أقصر الخلفاء عمراً تولى الخلافة قبل أطولهم عمراً ! » فلو تولى الخلافة ، بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب ، لما ت أبو بكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الإسلام والمسلمين عما استطاعوا أن يقدموه به . رضوان الله عليهم أجمعين . حكمة الله في خلقه ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم .. » (٢٩)

ففي هذا النص الهام نرى جمال الدين

١ - يضع الشيعة الاثني عشرية - الجعفرية - بسبب تفضيلهم الإمام علي - ضمن اهل الكين بالغلو في محبة آل البيت .. وإن كان ينهى عن إخراجهم من عداد جمهور المسلمين بسبب هذا الغلو وهذا التفضيل

٢ - ينتقد فكرة تفضيل الإمام علي في المقارنة بينه وبين الصحابة من خلفاء الراشدين ، ويرأها « مخالفة لروح القرآن الكريم » .. بل وينتقد بقاء تفضيله حتى على معاوية بن أبي سفيان - لمرور زمن هذا التفضيل وانقضاء مبرراته .. فهو اليوم « نعمة ليس فيها إلا محض الضرر وتفكيك عرى الوحدة الإسلامية .. »

ونقد « مسألة التفضيل » هو نقد لصلب المذهبية الشيعية .. والدعوة إلى تجاوزها تعني الدعوة إلى إلغاء المبرر الذي يميز الشيعة عن السنة ويقننهم

(٢٩) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأنباري] ص ٣٢٤ - ٣٢٦

وحدة المسلمين في العصر الذي نعيش فيه !

فأين هي «شيعية» جمال الدين التي يزعمها الذين لا يفقهون !
وثانيها : أي ثافي النصوص التي لسوقها مثالا لنقد الأفغانى للشيعية وعقائدها - فهو ذلك النص الذي يرجع فيه «عقيدة الرجعة» - التي هي من عقائد الشيعة الاثني عشرية - مع عقيدة التناسخ - إلى فكر «الباطنية» - الذين سبق ورأينا حكمه عليهم بإنكار الألوهية وإسقاط التكاليف ، وبأنهم طبعيون دهيون - بقول الأفغانى عن «عقيدة الرجعة» الشيعية : «ولما كانت الرجعة - أي رجوع بعض الأئمة السابقين وتابعيهم - من الأصول الثابتة في مذهب الإمامية ، والتناسخ من اعتقادات طائفة الباطنية الذين تسلطوا في بلاد العجم مدة طويلة ، كان له بقايا في النفوس ...» (٣٠)

وهو يسوق هذا النقد في معرض نقده لعقائد «البابية» - التي جاءت فحملت عقائدها الكثير من الموارث الباطنية والأفكار الإمامية !
وثالثها : ذلك النص الذي يدعوه فيه جمال الدين إلى إلغاء «العقيدة المحورية» للمذهب الشيعي ، وهي «عقيدة الإمام المعصوم» ! - فمن المعروف أن الفرق الإسلامية غير الشيعية قد رأت أن مصدر الدين هو الشرع ، وأن الحجة في إجماع الأمة ، على حين انفرد الشيعة بالقول إن المصدر هو الإمام المعصوم ، لأن الأمة من المسكل أن تجتمع على الضلال أو النسيان ، ولأن الشرع - بما فيه القرآن - لا بد له من «قيم» معصوم .

(٣٠) [دائرة المعارف] لبطرس البستاني - مادة «البابية» - وهي من تحرير جمال الدين الأفغانى

وهو الإمام !؟ ... (٣١)

وفي نقد هذه العقيدة الشيعية المخورية ، بل ورفضها ، يقول الأفغانى : « كفى بالإيمان والشرع معلما ، فيكفى ما نتيقنه من القرآن . فلا حاجة إلى المعلم الخصوص . وهو الإمام المعصوم . ولنا نحتاج إلى نائب عن الشرع إلا في مجرد التبليغ . ثم من الشرع نفسه يكون العلم والأخذ ... » (٣٢)

تلك هي بعض نصوص جمال الدين الأفغانى ، التى تستند عقائد الشيعة الإمامية ، والجعفرية الاثنى عشرية ، بل وتنقض بعض الأصول الجوهرية فى تلك المعتقدات .. وهى نصوص لو دعاها وفقهها الدين زعموا أنه « شيعى » يتظاهر بأنه « سنى » . لأراحولاً من نقد ما كتبوا وتفنيد ما زعموا وأشاعوا عن جمال الدين ! .

بلى ، لست أمر الدكتور توبس غرض قد وقف عند ترديد زعم الدين زعموا « شيعية » جمال الدين الأفغانى .. فلقد ذهب فزعم أنه كان « بابيا » فى فترة من فترات حياته (٣٣) . وأنه قد « تعلم عند البهابيين .. كما تعلم عند الشيعة .. » وهو ينسب هذا الادعاء إلى « الوثائق » . لكنه لا يشير - مجرد إشارة - إلى أى من هذه « الوثائق » (٣٤) . ولذلك فليس أمامنا إلا أن نقدم للمقارئ فكر جمال الدين الذى يستند البابية والبهائية . والذي يحسمه

(٣١) الطومى (أبو جعفر) [تلخيص السائق] ج ١ ق ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ . دمشق

تحقيق السيد حسين بحر العلوم . طبعة التجف سنة ١٣٨٣ - ١٣٨٤ هـ

(٣٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ١ ص ٣٠١

(٣٣) [التضا من] العدد ١٤ ص ٧٨

(٣٤) [التضا من] العدد ١ ص ٥٣

من آرائها وعقائدها . . والذي يرجع بعض هذه العقائد إلى فكر « الباطنية »
المادى الدهرى . . والذي ينتهى إلى نقض مذهبهم من الأساس . .

ولحن نعجب من إغفال الدكتور لويس الإشارة إلى فكر الأفغانى هذا
الذى جسد عداءه البابية . . ففى « دراسته » يورد اسم المستشرق احدى
جولد سيهر . . فيرفض روايته عن الأفغانى ضمن ما رفض من روايات
العلماء والمؤرخين وكبار المستشرقين . . وذلك يعنى أنه قد اطلع على ما كتبه
جولد سيهر عن الأفغانى . . ومعروف أن هذا المستشرق قد كتب مادة
« جمال الدين الأفغانى » فى [دائرة المعارف الإسلامية] . . وفى هذه « المادة »
قال جولد سيهر : إن جمال الدين « هو صاحب مادة البابية فى دائرة معارف
البستانى » . . فلم لم يقرأ الدكتور لويس ما كتبه الأفغانى عن « البابية » فى
[دائرة المعارف] التى أصدرها « المعلم بطرس البستانى » ؟ ! . . إن الأفغانى
يقول فيها عن [البابية] إنها « دين ظهر فى بلاد العجم نحو سنة ١٨٤٣ م
بدعوة رجل من أهل شيراز يعرف بالسيد على محمد . . وهو خليط من
عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية ووثنية . . وكتابتها (البيان) يحنو على كثير
من العربى المسجع وبعض الفارسى . . إلا أن العربى منه كان ملحوظاً . فلما
سئل السيد على محمد عن سبب وقوع اللحن فى هذا الكتاب المنزول -
[بزعمه] - مع أن اللحن نقص ؟ أجاب بأن الحروف والكلمات كانت قد
عصت واقتربت خطبته فى الزمن الأول . . فعوقبت على خطيبتها بأن قيدت
بسلال الإعراب . . وحيث أن بعثنا قد جاءت رحمة للعالمين . . فقد
حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين . . حتى الحروف والكلمات .
فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللحن والغلط ! . .
ولقد فشا بين البايين التعدى والغدر . . ففكوا دماء كثيرة . . وكانوا أساءوا
الناس بالفداوية الذين اشتروا أمرهم على عهد القاضيين . . ومن لوازم

مذهبهم أن كل من خالفهم قدمه هدر .. والبابية تقرب من قول النصارى بحلول اللاهوت في الناسوت .. ووحدة اللاهوت مؤلفة ، على زعمهم . من ١٩ أقنوما .. ورئيسهم الباب ، عندهم ، أعظم من محمد .. عليه الصلاة والسلام .. (٣٥)

فهل هو « بابي » ، ذلك الذي يراها « ديناً » - أي أنها ليست بمجرد فرقة في إطار الإسلام - وأن هذا الدين « خليط من عناصر إسلامية ونصرانية ويهودية وثنية .. » وأن المتدينين به أهل « غدر وتعد وسفك للدماء » . وأنهم أقرب إلى عقيدة النصارى ، في الألوهية ، منهم إلى عقيدة الإسلام ! ؟ .. هل هو « بابي » ذلك الذي يقول هذا القول في دينهم ، ويسخر كل السخرية من كتابهم (البيان) ! ؟ ..

وإذا جاز للدكتور لويس أن يعتذر بعدم إطلاعه على ما كتب الأفغانى عن « البابية » في [دائرة معارف البستاني] - وهو عذر غير مقبول بالطبع - ، فهل يجوز له أن يحاول الاعتذار - مجرد المحاولة - عن تجاهله المتعمد الإشارة إلى ما كتبه الأفغانى ضد « البابية » و« البهائية » في ذلك الكتاب الذي هو « عمدة » مراجعه في القول بأن جمال الدين « إبرانى » وليس « بأفغانى » .. كتاب [جمال الدين الأسد آبادى] ! ؟ ..

لقد جاء ذكر هذا الكتاب مرات عديدة في « دراسة » الدكتور لويس .. وهو في هذه « الدراسة » قد اتهم الأفغانى بـ « البابية » .. وصمت عن أن يقول لقراءه شيئا عن رأى الأفغانى في « البابية » وفي « البهائية » . وهو الرأى الذي جاء بهذا الكتاب في صورة « شهادة » السيد الفاضل ميرزا حسين خان دانش ، الأصفهاني ، تريب

(٣٥) [دائرة المعارف] - لتعلم بطرس البستاني - مادة « البابية »

الآستانة .. يقول هذا « الشاهد » . الذي عاش مع الأفغانى فى الآستانة :
.. وعندما كان الحديث يدور حول الباب والبابية ، كان السيد - [جمال الدين] - ينبرى لتجريح عقيدتهم علنا . ومع أنه كان يطالب بتيسير فهم الدين الإسلامى ، فلم يكن يرى فائدة أو مزية للبابية . فهو يقول : « ما مبلغ ما أبدى البابية من الهمة لتسهيل تكاليف الديانة الحمديدية . وأى خدمة أدوها للمسلمين . إلا إبداهم « القرآن » « بالبيان » . وتغييرهم مكة » بعكة ؟ ! ومثل هذا لا يمكن عمله . فى الحقيقة . إصلاحا . إذ لم يكن المسلمون بحاجة إلى دين جديد . فالدين الإسلامى . بمقتضى الزمان والمكان . لم يكن بحاجة إلا إلى نوع من التبسيط والتيسير فحسب ولم تؤد معتقدات البابية إلى هذا الهدف أبدا . ببغنى أن تمشى أحكام الإسلام وتتلاءم تعاينه مع ظروف كل زمن وحاجته . خوفا عليه من الزوال . وهذا معنى ما قيل من أن الله يبعث على رأس كل قرن رجلا ليصلح أمر هذه الأمة .. »^(١٣٦)

فكما لم يكن جمال الدين «إبرانيا» .. كذلك لم يكن «شيعيا» .. وهو .
أيضا . لم يكن «بابيا» - كما زعم الزاعمون بغير دليل - .. وإنما كان
الرجل : «مسلمًا .. مجتهدًا .. مجددًا» .. يسعى إلى تجديد «دنيا» المسلمين
بواسطة تجديد «ديانهم» . وذلك بتأسيس قدامهم على أساس متين وأصيل
من الإسلام ..

فالاتجاه والتجديد هو مفتاح شخصية هذا الرائد الذي ارتاد لأمتنا
ميدان البعث والإحياء الإسلامي .. وليست المذهبية الضيقة الأفق .. كما
زعم الزاعمون ..

(٣٦) [جاء في الأسد آبادي] ص ١٣٦ - ١٣٧

يقول الأفغانى عن الاجتهاد .. وضرورته .. وعن أهميته فى تجديد حياة الأمة : «يا سبحان الله ! إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وثناوله فهمه . وناسب زمانه . فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه . وأصح من قول القاضي عياض وغيره من الأئمة ؟ ! .. وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس - [هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم] - قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا . وقالوا . وأدلو دلوهم فى الدلاء فى ذلك البحر المحيط من العلم . وأتوا بما ناسب زمانهم . وتقارب مع عقول جيلهم ؟ . وتبدل الأحكام بتبدل الزمان .

ما معنى : «باب الاجتهاد مسدود» ؟ ! وبأى نص سد باب الاجتهاد ؟ ! وأى إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليثقة بالدين ؟ ! أو أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث ؟ ! أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منها . والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية . وحاجيات الزمان وأحكامه ؟ ! ولا ينافى جوهر النص ؟ ! ..

لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة . ومالك . والشافعى . وأحمد بن حنبل . وعاشوا إلى اليوم . لداموا مجدين مجتهدين . يستنبطون لكل قضية حكماً من القرآن والحديث . وكلما زاد تعمقهم وتعمقهم ازدادوا فيها وتدقيقاً .. لقد اجتهدوا وأحسنوا .. لكنهم لم يحيطوا بكل أسرار القرآن .. وما وصلنا من علمهم الباهر إن هو . بالنسبة إلى ما حواه القرآن والحديث . إلا كقطرة من بحر ، وثانية من دهر [والفصل بيد الله يؤتیه من يشاء من عباده] وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ..

لا بد من حركة دينية .. تهتم بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم

الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والبصووص الشرعية على غير وجهها
الحنيفي . وبعث القرآن وبث تعالجه الصحيحة بين الجمهور . وشرحها على
وجهها الثابت . من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم . دنيا وأخرى
ولا بد من تهذيب علومنا وتنقيح مكتبتنا . ووضع مصنفات فيها حرية
المأخذ سهلة الفهم . نستعين بها على الوصول إلى الرق والتجاح . « (٣٧)

ذلكم هو جمال الدين الأفغاني . أكبر من أي إقليم من أقاليم عالم
الإسلام . وأعظم من أن يأمره إطار المذهبية الضيقة الأفق .

إنه حكيم الشرق . وموقفه . وفيلسوف الإسلام . وداعية تجديد
« دنيا » المسلمين بواسطة تجديد « الدين » ! .

(٣٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٣٢٩ . ٣٣٠ . ٣٢٨

الجامعة الإسلامية

إذا كانت « الثورة الثقافية » - في الفكر الإسلامي - التي دعا إليها جمال الدين الأفغاني ، هي التي جلبت عليه عداوة أهل الجحود من المسلمين ... فإن دعوته إلى « الجامعة الإسلامية » كانت « الجريمة الكبرى » في نظر « المتغربين » من « الإقليميين » و « العلمانيين » ...

فدعوة « الجامعة الإسلامية » تعني : أن للإنسان المسلم انتماء إسلاميا يحدد هويته وهوية الكيان السياسي والحضاري الذي يمنحه الولاء ... وهذا الانتماء الإسلامي له مردود يتجسد في خيارات :

● فهو يعني رفض الوقوف بفكرة « الوطن » عند حدود دائرة « الاقليم » . بل ويتجاوز دائرة « الوطن القومي العربي » إلى « عالم الاسلام » . الذي يضم الأقاليم « والقوميات » .

● وهو يعني وجود « طابع حضاري » لهذا « الانتماء الإسلامي » . فعلاقات الأقاليم الإسلامية والقوميات التي يضمها عالم الاسلام لا تنقف عند حدود حسن الحوار . أو المصالح الأمنية والاقتصادية ... وإنما تعني : فوق ذلك . وجود « وحدة في الحضارة الإسلامية » . تجعل من عالم الاسلام هذا . بأقاليمه وقومياته منظومة حضارية متميزة بين الحضارات

العريقة القائمة على ظهر الكوكب الأرضي في العصر الذي نعيش فيه .
 ● وهذا الانتماء الاسلامي . يعنى أن « العلمانية » . بمعنى فصل الدين عن الدولة . هي خيار أوروبي لا يمكن قبوله في عالم الاسلام . ذلك لأن الاسلام . وإن رفض « الكهنوت » و « السلطة الدينية » . على النحو الذي عرفته أوروبا في عصرها الوسيط . إلا أنه دين ودنيا . بمعنى أنه لم يدر ظهره لشئون الحياة المدنية وتنظيم المجتمع وسياسة الدولة وعمران الأرض . وإنما وضع لذلك الأطر والفلسفات والمثل والمقاصد والغايات . ثم ترك للأمة . بالعقل والتجربة . حرية الابداع في شئون دنياها . في حدود هذه الأطر وفي ضوء روح الشريعة التي سماها الشارع سبحانه وتعالى . . .

● ومن ثم فإن هذا الانتماء الاسلامي يعنى أن مشروعنا الحضارى المستقبلى وتعدتنا المستهدف والنهضة التي نسعى لتخرج بها من « التخلف الموروث » ومن « الغزوة الأوربية » . لا يمكن أن يكون هو المشروع الحضارى الغربى . لا لأنه قد شاخ وشاعت في أوصاله الأمراض الحضارية . فقط . وإنما لتمايز أمتنا . بالاسلام . في القسمات الحضارية والسمات الثابتة التي طبعت ولا بد أن تظل طابعة لشخصية هذه الأمة الحضارية والقومية . ليس نخرد التمايز . ولا نخرد بعث الأصالة . ولا حبا في « الكبرياء القومى المشروع » . وإنما - فوق ذلك ومعه - لكي يبرأ مشروعنا الحضارى المتميز من هذه الأمراض الحضارية التي تقترب بالحضارة الغربية من هاوية الاحتضار . . . وأيضا . لىأتى هذا المشروع الحضارى المتميز . ملائما لطبيعة الأمة وقيمها واعتدالها الذي جعلها أمة وسطا ترفض الخنوع والتطرف والظلم والغلو . وتسعى كى تولف - في حضارتها - بين ما هو عند الآخرين متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها .

فضلا عن التأليف والتوفيق ! ..

هذا بعض ما يعنيه « الانتماء الاسلامى » من رفض « للإقليمية » والتمزق والتشردم .. والوقوف - باسم « الوطنية » - عند حدود الكيانات الصغيرة . فى عصر الدول الكبرى والتكتلات العملاقة ... ومن رفض « للعلمانية » التى تفصل الدين عن الدولة . فتقطع حاضرا الأمة عن تراثها وإبداع سلفها فى التشريع والتقنين ... ومن رفض « للخيار الحضارى الغربى » الذى يشر به الاستعمار والاستشراق . ولازال يبشر به « المتغربون » ! ..

ولذلك . فليس غريبا أن يصب العلمانيون محزون حقدهم . بل وكل أكاذيبهم ومفترياتهم على الرجل الذى ارتاد ميدان « الخيار الاسلامى » . بدعوته إلى « الجامعة الاسلامية » : جمال الدين الأفغانى ! .. وهذا هو ماحمله الدكتور لويس عوض - نموذج « الإقليمية » و « العلمانية » و « التغريب » فى الثقافة المصرية المعاصرة - عندما خرج علينا « بدراسته » عن جمال الدين ..



لقد كانت « الأمة الاسلامية » التى يشر بها الأفغانى تحت شعار « الجامعة الاسلامية » - وهى « أمة » لائغى « الوطنية » ولا « القومية » . بل تبعثها ونحيتها . وإن رفضت الوقوف عند تقويمها وحدودها - كانت هذه « الأمة الاسلامية » - مما يعنيه من « انتماء اسلامى » - له تجسدى فى المشروع الحضارى المستهدف . إن فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الفكر - « الأيديولوجية » - كانت هذه « الأمة الاسلامية » هى « الحرية العظمى » للأفغانى . بنظر الدكتور لويس وكل « الإقليميين » « العلمانيين » « المتغربين » ..

فالدكتور لويس ينص أن لو كان الأفغان - مع توريته - إقليسيا -
 يفت بالتائه وغاباته عند الحدود الاقليمية لمصر ، مثلا ١٩٧٨ ، فيقول : « آه
 لو كان الأفغان مصريا ! اذن لحدد انتاوزه غاباته فلم يخلق هكذا بين
 النجوم والسحاب ، ولرما ولما شقته نحو التقدم والقوة والثبات - فقد كان
 طريقه طريق الثورة الثقافية ، وليس طريق التطور الثقافي ، كما هو الحال
 عند « محمد عبده الجبان »^(١) !!! ، [كذا] ١٢

وكما رفض الدكتور لويس الانتماء القومي العربي لمصر ، ووصف
 الدائرة القومية العربية والقومية العربية - في مقالاته التي هاجم فيها عروبة
 مصر - بأنها « أسطورة من الأساطير »^(٢) - فإنه يصف « الدائرة
 الاسلامية » التي فتح آفاقها أمام الانسان المسلم شعار « الجامعة
 الاسلامية » بأنها « سفايف »^(٣) وهو ينص : لو أن الأفغان لم يشغل
 نفسه بسفايف السياسة وسفايف الفكر السياسي التي طمست في الكاره
 مبادئ اصولها ، أو للذهب الانساني ، ولم يبرز للأجيال التالية إلا
 دعوتة السلفية ودعوتة الشيوعية^(٤) ، فدعوتة « الجامعة
 الاسلامية » ، لما تعنى من « انتماء اسلامي » ، ومن « أسلمة المشروع
 الحضاري » هي - ينظر الدكتور لويس - « سلفية وليبرالية » مع أن
 السلفية - عند الأفغان كالت ثورة تجديدية - لأنها تعني رفض
 التخلف الموروث ، والعودة للمابع ، لا بهدف حب حاصرنا في
 قوالب السلف ، وإنما بهدف استلهام « الأصون » و « الثوابت » ، والنظر

(١) أصل « دراسة » الدكتور لويس ص ١٩٢

(٢) [الأهرام] أعداد ٧ - ٤ - ٢٠ - ٤ - ١٩ - ٥ سنة ١٩٧٨ . و « الساسة الدولية »
 عدد أكتوبر سنة ١٩٧٨ .

(٣) [المقتضى] العدد ١٦ ص ٦٨

فيها « بعقل معاصر » ، والمزاوجة بين الصالح منها وبين الجديد والعصرى لمواجهة التحديات والانطلاق إلى الأمام . ومع أن « الشيوعية » هي مرض أوربي أفرزته الكهانة الكنسية الكاثوليكية في العصور الوسطى . ولا شبه لها في الإسلام . ولا علاقة بينها وبين فكر الأفغانى . اللهم إلا أن تكون علاقة الرفض والعداء ١٢ .

وبقدر ما عناه شعار « الجامعة الإسلامية » من إحياء « الانتماء الإسلامى » ، وتأسيس التمدن الحديث على الأصول الإسلامية . بحيث تسعى الأمة إلى علوم العصر الطبيعية وتطبيقاتها . لأنها بنت الدليل - وفق تعبير الأفغانى - ولأنها مؤسسة على « قوانين » علمية تجعلها تتجاوز حدود الأوطان والقوميات والحضارات . فهي ثمار إنسانية وميراث إنسانى . وفي ذات الوقت تبعث الأمة من تراثها وتطور . بالتجديد . تلك العلوم والفنون والقيم والثقافات التى تتلون . عادة . في كل بيئة حضارية بنوع خاص أو متميز . مثل الفلسفات . والعلوم الإنسانية . والقيم . والعقائد والآداب . والشائلى والأخلاقيات . . بقدر ما عناه شعار « الجامعة الإسلامية » من هذا الموقف الاستقلالى فى الانتماء الحضارى . ومن هذا « الخيار الحضارى الإسلامى » . . كان غضب الدكتور لويس . . فهو يرفض « تفتيت وحدة الحضارة العربية » . ويدعو إلى احتضانها جميعها . فكرا وقيما وعلوم . ويرى أن « نقطة الضعف » عند الأفغانى هي الدعوة إلى تفتيت وحدة هذه الحضارة . بحيث تأخذ منها « العلوم وتطبيقاتها » ولبعث من محروبا الثقافى والحضارى المتميز والقيم والفلسفات ١٣ .

إن موقف الدكتور لويس - ومعها كل « العلمانيين المتغربين » - ضد

(٤) أصل « دراسة » الدكتور لويس . ص ١٨٢

دعوة « الجامعة الإسلامية » هو موقف « العلمانية والتغريب » ضد « أسلمة » المشروع الحضارى للعرب والمسلمين .. هذا هو « الحذر الفكرى » للخلاف ! ..

تقد سعى الغرب الاستعمارى . ولا يزال . إلى تفتيت وحدة المسلمين . حتى ولو كانت شكلية ورمزية . ولم تكن إزالة الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ م إلا مجرد إزالة رمز فقد كل المضامين . وذلك بحافة النهضة التى يمكن أن تملأ هذا الوعاء وذلك الرباط بالمضامين من جديد . .. كان الخوف من محيى « التوحيد » - الذى بدأه الأفغانى - هو الداعى لإزالة الرمز الاسلامى وتعتيق آثارها وإزالة ذكرها - بالعلمانية والاقليمية والتغريب - من أذهان المسلمين . .. وفى هذا الضوء وحده يمكن فهم غضب الدكتور لويس على الأفغانى . لأنه رأى أن لا منقذ للعالم الإسلامى إلا بالتحادة فى جامعة اسلامية . داخل إطار خلافة تجعل الدين والدولة شيئاً واحداً . وتسير على نهج الخلفاء الراشدين .. (١٥) .

وتقد سعى الغرب الاستعمارى . ولا يزال . وسعى « المتغريبون » . ولا يزالون . إلى أن يبدأ العرب والمسلمون من حيث انتهى الأوروبيون . إن مرادهم هو أن تنسخ الحضارة الغربية موروثنا الحضارى .. هذا الموروث الذى يمثل الإسلام السياسى والحضارى والفكرى فيه دور الحكم والمعيار والمشروعية . ومن هنا يأتى عداؤهم لأسلمة نهضتنا الحديثة ووسع مشروعنا الحضارى بصيغة الإسلام . وفى هذا الضوء وحده يمكن فهم غضب الدكتور لويس على الأفغانى . الذى دعا إلى استقلال حضارى مؤسس على أصول الإسلام .. وقوله : « إن الأفغانى كان مفكراً ذليلاً

(٥) أصل « دراسة » الدكتور لويس ص ١٨٣ .

يشغل السياسة بقدر ما كان مفكراً سياسياً يشغل بالدين . لقد كان يريد كل شيء ، الدين والدنيا جميعاً . ولا كانت « العنانية » ترفض الجمع بين السياسة والدين ، فلقد اعتبر الدكتور لويس أن « مأساة » الأفغانى قد تمثلت في هذا الجمع بين السياسة والدين ! . ولذلك فهو ، في نظره ، « رجعى في السياسة » . لم يوفق إلى حل ذلك الصراع المريب داخل نفسه بين شخصية المصلح الدينى ، الذى يسعى لتجديد الاسلام بالفكر الحديث ، وبين شخصية الزعيم السياسى الذى يسعى لإنقاذ المسلمين من براثن الاستعمار الأوروبى . لقد كان على الأفغانى أن يختار بين شخصية المصلح الدينى والتأثر الاجتماعى الذى يتقود معسكر الثوار .. (١٦) .

فبالمنطق العلمانى ، هذا « تناقض » يقضى إلى « مأساة » لكن المنطق الاسلامى يرى في هذا الجمع الأمر الطبيعى المنسجم مع طبيعة الاسلام وعلاقته بشؤون الدنيا . فابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] كان المصلح الدينى ، والمقاتل لتحرير الأرض من التتار . وكذلك كان « المهدي » فى السودان ، « السنوسى » فى ليبيا ، و « ابن باديس » فى الجزائر . وكذلك جمال الدين !

إن هذه الثنائية ، وذلك الفصل بين « الدين » و « السياسة » .. بين الإصلاح والتحديد الدينى ، وبين قيادة الأمة فى معركة التحرير والبيعة الخضارية - وهم من لوازم « العقلية العلمانية » - هما اللذان جعلتا الدكتور لويس يخطئ الخطأ المحورى فى تقديره وتقويمه لعلاقة دعوة جمال الدين الأفغانى وحركته الثورية والإصلاحية بالدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد

(٦) أصل « دراسة » الدكتور لويس ، ص ١٠٦ . [انظر التضمن ٢ العدد ٦ ص ٦٨ ، والعدد ١٧ ص ٦٧]

الثاني [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ - ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] فحكم تلك الأحكام الظلمة والعشوائية على دعوة « الجامعة الإسلامية » عندما قال : « لقد كانت رسالة الأفغانى فى (العروة الوثقى) هى نصف الشعور القومى . وتدعيم الشعور الدينى كأساس لمقاومة الاستعمار والانحراف بالحكام . ولم يكن هناك مستفيد . مباشرة . من هذا التيار يومئذ إلا الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد . أما المستفيد . بطريق غير مباشر . فقد كان الاستثمار فى الخارج وأصحاب الحكم المطلق فى الداخل . كذلك كانت سياسة الأفغانى لمصر والسودان قائمة على إعادة مصر والسودان إلى حظيرة الدولة العثمانية . والقضاء على كل حركة استقلالية فيها عن الباب العالى ! » (٧) .

فهذه « الثنائية العثمانية » - التى لا ترى علاقة مابين الدين والسياسة - هى التى جعلته يتوهم أن « تدعيم الشعور الدينى » لا بد وأن يستلزم « نصف الشعور القومى » . وأن « الحفاظ على الانتماء الإسلامى » - الذى مثلته دعوة « الجامعة الإسلامية » - إنما « يعنى » القضاء على الحركات الاستقلالية . فالمنطق العلمانى . ومعاييره أعجزت الدكتور لويس عن أن يبصر . فى فكر الأفغانى . كيف كان الرجل داعية إلى « الوطنية » وإلى « القومية » وإلى « الجامعة الإسلامية » . فى ذات الوقت . وكيف وضع توائى ونآزر هذه « الدوائر » فى فكره . دونما تناقض أو تعارض . وكيف - أيضا - كان الرجل داعية . للاستقلال . الذى تدعم إمكاناته ويشند عوده بتنمية روابط الانتماء الأوسع . لابقطع هذه الروابط . الذى - كما قد ثبت - كان عامل ضعف لهذا « الاستقلال » !

هنا يمكن « جذر الخطأ الفكرى » فى تقوم دعوة « الجامعة الإسلامية »

(٧) أصل « دراسة » الدكتور لويس . ص ١٧٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ .

عند جمال الدين . وهي قضية تستحق المعالجة القصيرة والموضوعية . لا
لإقناع الدكتور لويس . وإنما بهدف الحوار الفكري الخلاقي مع تيار
العلمانية في وطن العروبة وعالم الاسلام .

* * *

أنا لست مع الدولة العثمانية . ورأى أن استيلائها على مصر والعالم
العربي في العقد الثاني من القرن السادس عشر الميلادي قد مثل عاملاً
سلبياً ، أطال ليل التخلف المملوكي . وراذ فوضى الإدارة ، وأحر نكوب
الدولة ، بالمعنى الحديث . وأثقل الانسان العربي بالمظالم الاجتماعية .
وأطال سباتها الحضاري . بينما كان العدو الأوربي يهض . حتى هوجنا
به . في صورة بونايرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] وحملته الفرنسية سنة
١٧٩٨ م بقتحم علينا عالم العصور الوسطى !..

وعواظي الكاملة والخسارة مع « الغوري » [٨٥٠ - ٩٢٢ هـ - ١٤٤٦ -
١٥١٦ م] وطومان باي [٨٧٩ - ٩٢٣ هـ - ١٤٧٤ - ١٥١٧ م]
والفرمان الدين قاتلوا جيش السلطان سليم [٨٧٥ - ٩٢٦ هـ - ١٤٨٠ -
١٥٢٠ م] وهي كذلك مع ابن إيباس [٨٥٢ - ٩٣٠ هـ - ١٤٤٨ -
١٥٢٤ م] الذي رثى مصر والوطن العربي - سيب الفتح العثماني - في
رائعته [بدائع الزهور] ١٢ ..

وكذلك . فأنا لست مع أية رابطة تجعل من مصر « ولاية تابعة » - لا
لأفئ ، فقط . مصري عاشق لمصر - وإنما لأفئ أو من أن نهضة وطن
العروبة وعالم الاسلام رهن بأن تلعب مصر دورها « القائد الطيعي » في
محيطها العربي وعالمها الاسلامي .. وأوقن أن أعداء العروبة والاسلام .

تاريخيا وفي الحاضر . قد كان ولا يزال سبيلهم لإضعاف العرب والمسلمين هو عزل مصر أو إضعافها . أو العزل والإضعاف كليهما . فهذا من رابطان !

وفي رأي أن هذا الدور « القائد » لمصر هو « طبيعي » . بقدر ما هو « رسالة » . وعبء . ومسئولية . وليس فخرا قبليا ولا نعمة إقليمية ولا تعصبا وطنيا بأي حال من الأحوال . وهو أيضا ليس طارئا ولا حدثا . فحقبة الخلافة الراشدة . والأموية . وشطر من خلافة بني العباس - عندما كانت مصر « ولاية » تابعة « للمدينة فدمشق وبغداد » في هذه الحقبة كانت مصر تعيش « فترة النفاهة » بعد مأساة القهر البيزنطي . الذي لم ينقذها من سحقه القومي ومسحه الحضاري إلا جيش عمرو بن العاص ! . وبعد فترة النفاهة هذه التي قنعت فيها عركز « الولاية » المتحيزة « - عادت إلى دورها « الطبيعي » - القائد » : « دار خلافة » . فلسطين » . حتى فأجأها غزو العثمانيين سنة ١٥١٧ م .

ذلك هو رأي في دور مصر . وطبيعة علاقتها بقوميتها العربية وعالمها الإسلامي . وفي أثر السلطنة العثمانية وتسلطها على تطور مصر والوطن العربي وعالم الإسلام . وهو رأي يختلف فيه وبسبه مع إخوة وأصدقاء من الإسلاميين الذين أكن لهم كل التقدير والاحترام .

لكن . هل من الحق ومن المنطق أن نضع الفتح التركي والتسلط العثماني . مع الاستعماريين الإنجليزي والفرنسي على قدم المساواة - كما يصنع الدكتور لويس عوض - ١٩ . أم أن الموضوعية والإنصاف - خصوصا إذا أخذنا ملايسات العصر الذي تم فيه هذا الفتح في الاعتبار - تجعلنا نرى في الدولة العثمانية :

● رابطة ظالمة . شدتنا إلى سلطة فقيرة في الحضارة والابداع الحضارى إلى حد العدم ! فزادت تخلفنا في الحكم والكيف .. وأخبرت بقتلنا وتقدمنا وبعثنا الحضارى عدة قرون ..

● وهى في ذات الوقت . بما مثلته من قوة عسكرية كاسحة . قد أخافت الغرب الاستعماري - عدونا الأول والرئيسي - فكانت جدارا من القوة آخر غزوه لبلادنا حينما طويلا من الدهر ..

● وأيضا فهي قد حفظت للأمة هويتها . وإن في صورتها الحامدة والمحافظة ..

● ثم ظلت حاملة لرمز الوحدة - الخلافة - الأمر الذي حفظ الإطار والوعاء . فأعطى الأمل للمصلحين والثوار في إنجاز مشاريعهم الإصلاحية مع الحفاظ على « الوحدة » . التي كان أعداؤنا . ولا يزالون . أحرص الناس على تفكيك عراها . ليلتهموا عالمنا الاسلامي إقليبا بعد إقليم !

دنكم هو تقويم لدور الدولة العثمانية في تاريخنا العربي والاسلامي الوسيط .. ومنه - كمدخل - ننتقل إلى مضمون شعار « الجامعة الاسلامية » عند جمال الدين الأفغاني ، لنسائل :

هل كان الأفغاني يريد - « الجامعة الاسلامية » - إحكام قبضة السلطنة العثمانية على رقاب العرب والمسلمين - بما يعنيه ذلك من كبت الحركات القومية والاستقلالية - والتخلى عن دعوة الثورة والتجديد . لتجاور التخلف القائم - كي لا تغضب السلطة العثمانية أو تتفكك رابطتها - لأن الخطر الرئيسي . المتمثل في العزوة الاستعمارية الغربية كان يتطلب

تسخير كل الجهود وجميع الطاقات للحرب على هذه الجبهة وحدها ؟ ١
هل كان هذا هو مفهوم ومضمون « الجامعة الإسلامية » عند جمال
الدين الأفغانى - كما يقول الدكتور لويس - ٢٢ ؟

أم أن الأفغانى - مع تركيزه على خطر الاستعمار الغربى - لم يتخل عن
ثورته الإصلاحية التجديدية ؟ .. ومع دعوته « للوحدة » وراء الخلافة
الواحدة .. لم يغفل « الصراع » ضد عوامل التخلف والرجعية والضعف
والجمود ، التى كانت تحرسها وتمثلها هذه الخلافة ! ٢٣ ..

هل كانت « الجامعة الإسلامية » ، عنده ، تعنى « الوحدة » التى
تغض الطرف عن التناقضات ، وتدير الظهر للثورة والإصلاح والتجديد ،
كى لا تتبدد الجهود فتضعف المقاومة للمخطر الرئيسى : الاستعمار ٢٤ ..
أم أن هذه « الوحدة » كانت تتطلب - فى فكر الأفغانى - الدعم
« بالصراع » ضد عوامل التخلف ، وبالثورة والتجديد لتنمية طاقات الأمة
فى صراعها ضد الاستعمار ٢٥ ..

إننا مع التصور الثانى والتفسير الثانى لمفهوم « الجامعة الإسلامية » عند
الأفغانى .. ولنا مع المفهوم الأول الذى تصوره الدكتور لويس -
إن أهمية هذه القضية تتعدى حدود إنصاف الأفغانى من خصومه ! ..
فنطاقها يتجاوز تقويم دعوة « الجامعة الإسلامية » فى النصف الثانى من
القرن الماضى ، إلى مضمون هذه الدعوة ومفهومها اليوم وغدا ! ٢٦ ..
.. « جامعة إسلامية » لماذا ؟ .. ولأية أهداف ؟ .. وبأى مضمون ؟ ..
ولحساب من من القوى الاجتماعية والسياسية فى واقعنا الراهن ؟ ..
ومعلاقتها بالتمايز القومى فى المحيط الإسلامى ؟ .. وماهى « طبيعة » السلطة
السياسية فى « الدولة » عند دعاة « الجامعة الإسلامية » ؟ .. الخ .. الخ ..

إنه مبحث هام وضروري ، تتجاوز أهميته وضرورته نطاق التاريخ .
والآن .. لنبدأ بأولى الخطوات التي تجيب على هذا السؤال :

هل كان مضمون شعار « الجامعة الاسلامية » واحدا عند كل الدعاة
الذين رفعوا هذا الشعار ؟... بحيث يمكن تصور قيام الاتفاق ، حول هذا
المضمون ، بين كل من الأفغان والسلطان عبد الحميد . لمجرد أنها قد رفعا
معا شعار « الجامعة الاسلامية » ؟! ..



إن « الجامعة الاسلامية » قد عنت ونعت - في الأساس - ذلك التيار
الفكري والسياسي العريض ، الذي أبصر قاداته وأتباعه أن هناك عددا
من التحديات التي تواجه الفكر الاسلامي والشعوب والأمم الاسلامية ،
سواء أكانت تلك التحديات آتية من داخل الأوطان الاسلامية ،
كالتخلف الفكري والروحي والانحदार الحضاري والسياسي والصراعات
الاقليمية والقبلية . أو آتية من الخارج في شكل المد الاستعماري والامبريالي
الذي زحف من أوروبا على الشرق ، وخاصة في القرن التاسع عشر .. تيار
الجامعة الاسلامية هو الذي أبصر أصحابه هذه التحديات ، ثم آمنوا بأن
تشخيصها ، في مختلف هذه البلاد ، له كذلك طريق واحد يؤدي إلى تلك
الغاية الواحدة المنشودة ، وهي التغلب على هذه التحديات ، والعودة
بالمسلمين ، ثانية ، إلى دائرة التأثير الانساني والعطاء الحضاري ، كما كانوا
قبل أن تقهرهم هذه التحديات ..

ذلك هو الوصف العام لتيار « الجامعة الاسلامية » ، الفكري
والسياسي ، كما عرفه الشرق في ذلك التاريخ ..

ولكن وحدة هذا الشعار لم تحف ، في يوم من الأيام ، عن عين
الباحث المتأمل تلك الفروق الجوهرية التي جعلت ، في الحقيقة والواقع من

تيار « الجامعة الإسلامية » عددا من « المدارس » و« الفصائل » ، بينها من عوامل الاختلاف والتباين ، أحيانا ، الشيء الكثير ، بل والخطير ! . ومن هنا كانت ضرورة إلقاء نظرة على « خريطة » « الجامعة الإسلامية » ، لتمييز أهم ماضى هذا التيار من « المدارس » و« الفصائل » التي رفعت هذا الشعار .

● فنحن نستطيع أن نذكر الحركة الوهابية ، التي أسسها إمامها محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] كأقدم تيار إسلامي وسياسي يمكن أن يندرج تحت شعار « الجامعة الإسلامية » في عصر الحديث . فلقد كانت الوهابية - في الفكر - حركة ودعوة ترمي إلى تجديد مبادئ الإسلام والمسلمين عن طريق طرح ركام البدع والخرافات التي دسست في عقائد المسلمين . وهي البدع والخرافات التي كونت الجزء الأساسي من تصور السلطة العثمانية ومؤسستها الفكرية عن عقائد الإسلام . ومن ثم كانت الوهابية - سياسيا - حركة مناهضة للعثمانيين (٨)

● ولقد كانت الحركة السنوسية . التي أسسها بالمغرب العربي إمامها محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م] هي الامتداد الوهابي إلى بلاد الشمال الأفريقي . بعد أن أدخلت في بنيتها الفكرية ونشاطها العملي حصائص المكان وتعدبات الاستعمار الغربي . وخاصة الفرنسي ، التي كانت تزحف على تلك المنطقة في ذلك الحين . ومن ثم فإن السنوسية . كذلك ، بطابعها الصوفي تميزت به عن الوهابية .

(٨) | حاصر العالم الإسلامي | مجلد ١ ج ١ ص ٢٩١

كانت هي الأخرى تياراً يعمل ويتناضل تحت شعار « الجامعة الإسلامية »^(٩) ..

● وكذلك الدعوة والحركة المهدية ، التي أسسها ، بالسودان ، إمامها محمد أحمد « المهدي » [١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ - ١٨٤٤ - ١٨٨٥ م] بما مثلت - في الفكر - من تجديد .. وفي السياسة من تصد للغرب وللأتراك .. ومن دعوة لتحرير عالم الاسلام « من غانة إلى فرغانة » - كما قال المهدي - كانت هي الأخرى فضيلة من فصائل « الجامعة الإسلامية » . تلاهمت مع ظروف السودان وواقعه في ذلك التاريخ^(١٠) ..

● ثم .. هناك التيار الذي قاده الأفغانى ، والذي كان - بحق - أبرز تيارات « الجامعة الإسلامية » في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .. والذي تميز بامتداده إلى مختلف بقاع عالم الاسلام ، على عكس الوهابية والسوسية والمهدية .. كما تميز عنها بعدد من الخصائص في مقدماتها :

١ - الإصلاح الدينى من منطلق العقلانية - إيماناً بأن الشرق لن يتنصر في صراعه مع الغرب إلا إذا تسلح بعقل . ذلك السلاح الذى ضمن للغرب تفوقه في هذا الصراع .

٢ - تجديد الصلات الحضارية مع الغرب ، واقتباس المناسب من حضارته - كما صنع العرب والمسلمون في العصر العباسى - حتى يتمكن الشرق من العودة إلى التأثير والعطاء الحضارى مرة أخرى

٣ - المحافظة على بقاء السلطنة العثمانية . وتنمية جوانبها الإيجابية .

(٩) المصدر السابق مجلداً ١ ص ٢٩٠ .

(١٠) انظر دراستها في كتابنا [العرب والتحدى] ص ١٧٥ - ١٩٩ طبعه الكويت

سنة ١٩٨٠ م

والعمل على تجديد شبابها . لا من منطلق الإيمان بها كخلافة اسلامية وإمارة للمؤمنين . وإنما من منطلق الضرورات التي يجتهد التصدي للعدو الرئيسي وهو الاستعمار الغربي الزاحف على ديار الاسلام . فهو يحافظ عليها سياسيا . ويحاول تنمية قواها السياسية . ويهاجم فكريتها الرجعية المتخلفة بهدف تطويرها وتجديد شبابها . ومن أجل ذلك لم ينصر هذا التيار حركات الانفصال القومي العربي عن الامبراطورية العثمانية . لأنه كان يبصر نوبت الاستعمار الأوربي كى يكون هو الفائز الأول . وربما الوحيد . من وراء الصراع القومي وحركات الاستقلال القومية ضد العثمانيين .

لقد كتب الأفغانى فى ١١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م - فى صحيفة « الانتراسيجان » الفرنسية - ليكشف المخطط الانجليزى - الذى استطاعت إنجلترا تنفيذه . مستخدمة الشريف حسين سنة ١٩١٦ م . . أى بعد كتابة الأفغانى لما كتب بأربعة وثلاثين عاما ١٩ - كتب الأفغانى يقول : « إن بريطانيا لديها مخطط لإقامة خلافة صغيرة فى مكة لصالح أسرة بنى عون . التى يتقلد أحد أفرادها حاليا منصب شريف مكة . وغرض بريطانيا من ذلك هو التخلص . من خلاله . من وجود قوة عظمى - [الخلافة الاسلامية الواحدة] - للسيطرة على جميع المسلمين » . . .

و « قلت » يحكى أن الأفغانى . حتى فى لحظات يأمره من إصلاح القيادة التركية للسلطنة العثمانية . كان يفكر فى تغيير هذه القيادة - « تعريب الخلافة - مع المحافظة على وحدتها . بل وعلى غايتها » . فهو « الصراع » فى إطار « الوحدة » . الذى جعله يفكر فى إحلال « مهدي السودان » أو « الشريف حسين » أو « إمام صنعاء » محل السلطان

عبد الحميد . مع لقاء وحدة الخلافة ، وفتح الطريق - بإزالة عقبة
 الخلف التركي - لتجديده شيئا . يقول « بلنت » - فيما دونه بيومياته
 في ٨ أكتوبر سنة ١٨٨٥ م - : « حديث طويل مع جمال الدين حول
 آمال المستقبل في استانبول . إنه يؤيد فكرة أن المهدي . أو خلف المهدي
 يحتل مكان السلطان . أو أن يفعل ذلك الشريف عون . أو إمام صنعاء .
 فأى من هؤلاء - كان في رأيه - يمكن الآن أن يتولى القيادة . ولكن
 استانبول يجب أن تبقى مقر الخلافة .. » (١٢)

وعندما عرض « بلنت » الفكرة الانجليزية حول استقلال شبه الجزيرة
 العربية عن الدولة العثمانية . عارضها محمد عبده . قائلا : « إن العرب
 أهل لذلك الاستقلال . ولكن الترك لا يمكنهم منه . وعندهم من القوة
 العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب . فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره
 قاتلوهم . حتى إذا وهنت قوة الفريقين ولبت دول أوربة الواقعة لها
 بالمرصاد . فاستولوا على الفريقين أو على أضعفها . وهذان الشعبان -
 (العرب والترك) - هما أقوى شعوب الاسلام . فتكون العاقبة إضعاف
 الاسلام وقطع الطريق على حياته ! .. » (١٣)

إن بصيرة الأفعلى ومحمد عبده - وتيار « الجامعة الإسلامية » - كانت
 تبصر حتى تفاصيل المخطط الذي نفذ الاستعمار بعد سنوات طويلة من وفاة
 هذين الإمامين - [التلخيص يصف الدكتور لويس عوض فكرهم السياسي
 هذا بأنه « مفاسف » و« منكرة » (١٤)] - . ومن هنا كان حرص هذا
 التيار على « وحدة » الخلافة . ومحاولة « الإصلاح » داخل إطارها . حتى

(١٢) أصل « دراسة » الدكتور لويس . ص ٢٢٩ . وهو ينقل عن كتاب « بلنت »

[جورجون في الخرطوم] ص ٤٩٢

(١٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ١ ص ٧٣٥

لو تطلب الإصلاح تعريبها . واستبدال خليفة عربي بالخليفة العثماني !
 إن الخيار أمام تيار « الجامعة الإسلامية » لم يكن بين طريقين
 منفصلين - كما يرى الدكتور لويس عوض - طريق : « نسف الدولة
 العثمانية » أو طريق « مواجهة العدو الخارجي . الأكثر خطرا من العدو
 الداخلي » .. والأفغانى لم يختار الطريق الثانى وحده (١٤) .. ذلك أن
 الأفغانى وتياره قد ركز على مواجهة الخطر الخارجى . وسعى . « بالثورة
 التجديدية » إلى إصلاح الدولة العثمانية . لتعويض التخلف . وتحقيق
 التقدم . ولضمان النصر فى مواجهة العدو الخارجى أيضا ! ..

لقد كانت المحافظة على وحدة الدولة موقفا سياسيا يمل به الاشياء
 الاسلامى ويدعو إليه الصراع مع الاستعمار .. وكان « تعاون » تيار
 « الجامعة الإسلامية » - كما تمثل فى الأفغانى وحركته - مع الدولة العثمانية
 فى إطار معنى هذا التيار « لإصلاح » هذه الدولة .. لقد كان - إذا جاز
 التعبير - « تعاوننا مخططا وهادفا ومشروطا » ! ..

● كان الأفغانى واضحا تماما فى إدراكه وإعلانه عن أن « التحالف
 الحضارى » الذى يعانى منه العثمانيون . قد أضر بالميزة التى مثلوها تاريخيا .
 وهى كونهم قوة عسكرية أقضت مضاجع الغرب الاستعمارى وأخرت غزوه
 لوطن العربيه وعالم الإسلام .. فهذا « الجدار العسكرى » . الذى مثله
 العثمانيون أمام الغرب قد افتقر إلى « الإبداع الحضارى » الذى يدعسه
 ويطوره ويرمم ما يظهر فى ثنياه من ثغرات . الأمر الذى فتح فى هذا
 « الجدار العسكرى » للغرب أبوابا أخذ ينفذ منها لالتهام ثروات المسلمين .
 بالامتيازات أولا . ثم لالتهام الأوطان عما فيها من ثروات !

(١٤) [التضامن] العدد ١٧ ص ٦٧ .

كانت عين الأفغانى على هذا « التخلّف الحضارى » . يسعى لتجاوزة بالنهضة - لا على النمط الغربى - وإنما بالمشروع الحضارى الإسلامى الخاص . الذى يستفيد من عناصر القوة فى حضارة الغرب بإضافتها إلى المميزات الحضارية للإسلام والمسلمين . لقد أعلن الرجل أن « الدولة العثمانية .. قد بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الأخط بأسباب الحضارة ومخاراة الأمم الراقية فى مدنيّتها وعلومها وصناعاتها .. »^(١٥) . ومن هنا كان « مشروعه » لإصلاح الدولة . بتجديد فكريّتها وإدارتها وتنظيماتها وفلسفة الحكم فيها . كى تتاح الفرصة للشعوب التى تحكمها فتأخذ بأسباب المدنية والعلوم والصناعات لتطلّت من شرك الاستعمار ..

● والتعاون الذى قام بين الأفغانى وبين السلطان العثمانى عبد الحميد ، والذى وجه الأفغانى . فى إطاره . رسائله إلى قادة الأمة للتصامن والتعاقد - تحت رايات « الجامعة الإسلامية » - خلف السلطان . هذا التعاون لم يكن بلا شروط ولا تحفظات .. ومن ثم فلم يكن مؤمسا على مفهوم السلطان الخاص لمضمون « الجامعة الإسلامية » . ولا قائما على « أرض السلطان » وحدها ! .. وإنما كان تعاونا هادفا إلى تحقيق ..

- ١ - فعالية أكبر فى مواجهة الخطر الرئيسى : الاستعمار ..
- ٢ - الإصلاح الدستورى لنظام الحكم وفلسفته فى الدولة ..
- ٣ - تطوير أجهزة الدولة القيادية من الخونة والمعجزة والمتخلفين ..
- ٤ - استبدال « اللامركزية » - التى تتيح فرص النمو والازدهار للخصائص القومية والامكانيات الوطنية والمادية - فى أقاليم الدولة وولاياتها ،

(١٥) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

«المركزية» القائلة للخصائص الذاتية للأقاليم والولايات ..

٥- تعريب « الدولة » - بل وتعريب « الشعب التركي » - لتصبح الدولة تجسيدا « لأمة عربية » ، حتى تستفيد من فعاليات العرب والعروبة في مواجهة مايفرضه عليها خصومها من تحديات .. وليعود للأمة العربية دورها القائد في المحيط الاسلامي . الأمر الذي يحقق للرابطة الاسلامية قيادة يرضاها المسلمون غير العرب . أولئك الذين لم تكن قيادة « الترك » مؤهلة ولا جديرة بأن تجلبهم في هذا الطريق ..

٦- الإلحاح على ما لمصر - تاريخيا وحضاريا وواقعيا - من دور متميز في المحيط العربي والاسلامي .. هو - دونما لبس - دور القائد في هذا المحيط .

نذك هي أبرز ملامح « مشروع الأفغانى » لـ « تأييد الدولة العثمانية - وإصلاحها » .. لـ « جمع المسلمين حولها » ولتجاوز السلبات التي كانت تمثلها في واقع المسلمين » ! ..

● إن الأفغانى يحدثنا عن « مواهب » السلطان عبد الحميد .. وكيف سعى إلى تسخير هذه المواهب جميعها في الصراع ضد الاستعمار .. وكيف دعا السلطان إلى الإصلاح الدستوري وتطهير دولته من العناصر المعوقة عن انجاح في هذا السبيل المقترح لتحقيق هذا « المشروع » .. يقول الأفغانى : « إن الممالك الاسلامية في الشرق لاتسلم من شرارك أوروبا ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها . وفي الأخير ازدرادها واحدة بعد أخرى . إلا ببقطة وانتباه عمومي . وانصواء تحت راية الخليفة الأعظم .. »

فهو هنا يحدد ، بوضوح ، أن مواجهة الاستعمار - الخطر الأعظم - لاتتحقق بتأييد الدولة العثمانية فقط . بل لايد مع ذلك . وقبله . من

«اليقظة العامة» .. أى النهضة التى تحققها خطوات الإصلاح فى «مشروع جمال الدين» ..

ثم يواصل الأفغانى حديثه فيقول : «إن السلطان عبد الحميد . لو ورث مع أربعة من نوابغ العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة .. ولاعجب إذا رأيناه يذلل مايقام لملكه من الصعاب من دول الغرب .. رأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ، وموامى الدول الغربية . وهو معد لكل هوة تطرا على الملك مخرجا وسلا . وأعظم ما أدهشنى . ما أعد من خفى الوسائل . وأمضى العوامل . كى لاتتفق أوربا على عمل خطير فى الممالك العثمانية . ويرىها . عيانا محسوسا . أن تجزئة السلطنة العثمانية لايمكن إلا بخراب الممالك الأوربية بأسرها ..

ولقد رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ماذكرته له من محاسن الحكم الدستورى . وأن الاسلام أول من عمل به فى سلطانه ..

إن ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذرى وإعدادة العدة اللازمة لإبطال مكاييد أوربا . وحسن نواياه واستعداداه للنهوض بالدولة (الذى فيه نهضة المسلمين عموما) هو الذى دفعنى إلى مد يدى له . فبايعته بالخلافة والمملك ! .. (١٦٦) ..

ذلك هو «إطار التعاون» بين الأفغانى وبين السلطان عبد الحميد ! ..

ولم يكن الأفغانى «حالما» ولا هو «بالغافل» عن غيوب السلطان عبد الحميد ذاته . ولا عن العقبات التى يمثلها أركان الدولة أمام نجاح مشروعه «لايقاظ الدولة والأمة» لمواجهة خطر الاستعمار .. لقد كان يلج على السلطان كى يظهر جهاز حكم الدولة .. ويشكو من تردد السلطان فى

(١٦) المصدر السابق . ص ٢٤٥ . ٢٤٦

انحاز هذا الأمر .. حتى لقد تحدث إلى السلطان يوما فقال : « يا جلالة السلطان .. ملئت من تعاطيها الشكاية ١٢ .. ومن غيرك صاحب الأمر ١٣ .. » حذ بحزم جدك محمود ، واقص الحائزين من خاصتك (الذين يعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات ، وهم صنائعهم وجباة جيوشهم الخاصة ١٤) .. خفف الحجاب عنك ، واظهر للملا ظهورا يقطع من الحائزين الظهور ، واعتقد أن نعم الحارس الأجل ! (فإذا جاء أحدهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ١٥ ..

● أما فيما يتعلق بفك « المركزية المستبدة » التي كانت تحكم الدولة بها قبضة الأستانة على الأقاليم والولايات ، فنقد تحدث الأفغان إلى السلطان عنها ، وقدم إليه « مشروع اللامركزية » ، الذي يجعل الولايات الإسلامية المرتبطة بالدولة أشبه ما تكون « بالكومولت الإسلامي » ، الذي يحفظ رباط الوحدة - وحدة الانتماء الإسلامي ، ومواجهة التحديات الواحدة - داخلية كانت أو خارجية - والذي يتيح - في ذات الوقت - كل الفرص ويفتح كل الأبواب لتنمية السمات القومية والامكانيات المادية هذه الولايات ، التي يتاح لها - في ظل هذه « اللامركزية » - استقلال حقيقي يعتمدها من سلبيات « المركزية » التي كانت سائدة في أغلب تلك الولايات ..

إن هذه « اللامركزية » ، التي أسس العرب العثمانيون - عرب الولايات العثمانية - حزباً يدعو إليها أواخر سنة ١٩١٢ م قد دعا إليها الأفغان قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، كطريق يجمع بين « الوحدة - والاستقلال » لشعوب هذه البلاد وطاقاتها .. فتحدث إلى السلطان

(١٢) النحل ٦١ .

(١٣) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني [ص ٢٤٧ .

عبد الحميد عن تصوره لها في حوار طويل دار بينه وبين السلطان . مسجده
الأفغانى .. يقول فيه :

« .. قلت للسلطان عبد الحميد : أأذن في تقديم لائحة في تصوراتى
لتحسين حالة المملكة ؟ والتعويض بصونها من مطامع الأعداء ؟
قال : بل قل لى ماتشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة . فأنا لك من
السامعين .. »

قلت : أعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية ، ترسل إليها
الولاية من الآستانة - مثل باكير باشا . ومحمد باشا البديكى . وأمثالها -
لجميع الأموال من غير وجه . وتوزعها على رجال الدولة هنا -
الآستانة - فقط . على ما هو مشهور وغير خاف على جلالتهكم . هل
هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة ؟ أم جعلها خديوية . كما هي قبل
الانجليز ؟ ١٩ ..

- فتمكر السلطان مليا . وحول وجهه نحو النافذة على ، حتى ظننت
أن الحديث قد ساء . وأنه لا يحب الخوض فيه ، ولا العودة إليه . وإذا
هو بغتة قد التفت . وتوجه بكلية إلى . وكأنه قد انتهى من ذكرى ما
جرى من محمد على باشا وابنه ابراهيم باشا . وكيف أنه كاد أن يستخلص
السلطنة العثمانية فتحا بالقوة 1 -

وقال : لو قلنا إن وجودها خديوية أحسن من بقائها ولاية . ثم
ماذا ؟ ١٩ ..

قلت : يا مولاي . إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية .
فتبدأ فتجعلها عشر خديويات

فرأيت السلطان - وهو على تمام الإصغاء لما أقول - قد تقطب وجهه
وعلته كتابة امتعاض وحزن -

قلت : يا مولاي ، وعزة الحق ، وبولائي لأمر المؤمنين ، ونصحي
للمسلمين ، إن ما ساقني إلى ما قلته إلا الإخلاص والحرص على منكك ،
والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية ، التي ليس لجمع شتاتها
وتوحيدها كلستها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة ، وجلالتك ترى
أن أجزاء السلطنة أخذت تنفكك الجزء بعد الآخر ، فصار من الواجب
نظم الممالك وأجزائها بسلك من النظام أوثق وأشد وأحكم ، وما وجدت
ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذي قدمته .

- ولما انتهيت - هز السلطان رأسه ، وتناول لفافة من التبغ ، وأسرع
في تدخينها -

وقال : ماذا تركت ، يا حضرة السيد ، للسلطان ؟ وما أبقيت
لنحت - [عرش وعاصمة] - آل عثمان ؟ ! .

قلت : يبقى مولاي جلالة السلطان ، ملك أولئك الملوك ، وينضم إلى
العرش العثماني عشرة عروش ، غير عرش مصر ، ثم مني نهضت هذه
المقاطعات والحدوديات ، وأخذت نصيبها من الرقي والنعمران ، لاشك
أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى ، للاتحاد معها ، إذ هي في أمس
الحاجة لشد الأزر ، ولصون كيائها من مطامع الغرب ، الموجهة نحو عموم
دول الشرق ، ثم ما أسرع الأفغان للانتظام في ذلك السلك ، سلك
اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة
الكبرى ، ثم ، ومنى ثم ذلك ، هل تقعد أهل الهند عن نصرة الخليفة
الأعظم واللاحق لشد ساعد إخوانهم ليدفعوا غارة الغرب عن الدول

الإسلامية في الشرق . وعن هندهم أيضا ؟ ! أو يهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربة الاستعمار والمستعمرين . ويرجع الشرق للشرقيين ؟ ! ... » (١٩)

ذلك هو «مشروع اللامركزية» الذي سعى إليه الأفغان ، والذي عرصه على السلطان عبد الحميد ... وهو الذي يزكى ما كتبه في [العروة الوثقى] عن أن «الدولة الإسلامية هي اتحاد» بشبه «الكومنولث» . وليست رابطة مركزية تفهر ما في إطارها من تمايزات .. لقد كتب في [العروة] عن هذا التصور «اللامركزي - التضامني» يقول : «لا أتمنى بقول هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصا واحدا . فإن هذا ربما كان عسيرا . ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على مذهبه . يسعى بجهدده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه .. » (٢٠)

ذلك هو تصور الأفغان «لمشروع اللامركزية» . كسبيل للإصلاح الإداري في الدولة العثمانية . وكسبيل «لكومنولث إسلامي» وشرقي تواجه به الأمم والشعوب الخطر الأعظم . وهو الاستعمار .. وتسلكه سبيلا يعيها على تنمية خصائصها وإمكاناتها الأدبية والمادية ..

ولقد أبصر الأفغان للأمة العربية - بالمعنى القومي - دورا متميزا ، بل ورائدا . في محيط «الكومنولث الإسلامي» . الذي دعا شعوب الشرق إلى الارتباط «بجامعته الإسلامية» . فهو القائل : «إنه لاسبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلفتها .. وإن الأمة العربية هي «عرب» قبل كل دين

(١٩) المصدر السابق . ص ٢٣٧ - ٢٤٠

(٢٠) المصدر السابق . ص ٣٤٥

ومذهب . وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان ! ... فالمسلم أو المسيحي أو اليهودي . في مصر والشام والعراق ، يحافظ كل منهم ، قبل كل شيء ، على نسبه العربية ، فيقول : «عربي» ، ثم يذكر جامعته الدينية ؟ ! ...» (٢١١)

وكما دعا الأتراك - في «مشروع الإصلاح» - إلى «اللامركزية» ، التي تبرر وتسمى السمات الخاصة للأمم الداخلة في إطار الدولة العثمانية ، فلقد دعاهم إلى أن «يتعربوا» . كسبيل لتحضرهم التحضر الحقيقي بحضارة الإسلام ! .. وكسبيل لنق النعرة القومية التي كانت قد شرعت تطل برأسها لتفتت وحدة الدولة في مواجهة الاستعمار .. ولأفغاني في هذا الموضوع كتابات . منها ذلك النص الذي يقول فيه : «لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما . وهو اتخاذ اللسان العربي لسانا للدولة . ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربي لسانا رسميا . وسعت لتعريب الأتراك . لكانت في أمنع قوة ، ولانفتحت من بين الأمتين النعرة القومية . وزال داعي النفور والانقسام . وصاروا أمة عربية .. ولكنها فعلت العكس . إذ فكرت بتترك العرب . وما أسفها سياسة وأسقمه من رأى .. لقد كاشفت السلطان عبد الحميد بهذا الموضوع .. ولكنه كان قليل الاحتفاء عما قلته له ! ..» (٢٢٢)

ولم يكن إيصار الأفغاني للدور المتميز للأمة العربية في الخطب الإسلامي يحمل أي انتقاص لحق أي من شعوب الشرق وقومياته في التمسك والاعتزاز والتنمية لسماته وخصائصه القومية ومميزاته الوطنية في الإطار الإسلامي العام .. فهو الذي شن الحملة تلو الحملة على «المتفرجين» -

(٢١١) المصدر السابق . ص ٢٣٧ - ٢٢٣

(٢٢١) المصدر السابق . ص ٢٢٤ - ٢٣٦ - ٢٣٧

المتغربين» . الذي خدعوا فوقعوا بشراك الاستعمار الفكري ، فأعانوا الغزاة على أن يدروا في تربتنا الفكرية «عوامل غريبة مهلكة» . تبدو في أول مظهرها . خفيفة الوطأة . سهلة المأخذ . لا خسر من التسامح بها . وهي أسلوب عجيب لإضعاف لغة القوم . والتدرج بقتل التعليم القومي . وتسيط القائلين من الشرقيين بأن ليس في تسامح العرف أو الفارسي أو الأوردي والهندي .. الخ .. آداما تؤثر ولا في تاريخهم محدا يذكر . وأن الخد كل الخد لذلك الشرق الخامل أن ينفر من مدح لغته . وأن يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها . وأن ما تعلسه من الرطانة الأعجبية هي متبى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشرية ؟ ! ..

أدان الأفغانى هذا «السقوط» الذى ابتلى به «المتفرغة» المتغربون . ودعا إلى حفاظ أعم الشرق على خصائصها القومية . عربية . وفارسية . وأوردية وهندية .. الخ .. وأعلن أنه «لا جامعة لقوم لا لسان هم . ولا لسان لقوم لا آداب هم . ولا عز لقوم لا تاريخ هم . ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى ونحى آثار رجال تاريخها . فتعمل عملهم . وتنسج على منوالهم . وهذا كله يتوقف على تعليم وطني . تكون بدايته «الوطن» . ووسطه «الوطن» . وغايته «الوطن» ! .. فيجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حساية . اثنان فائتان يعملان أربعة . فلا نستطيع المذاهب أو الطوائف أن تدعيها خاصة . ولا أن نحاول نقضها ؟ ! ..» (٢٣)

ففي تصور الأفغانى . تأخمت وتأزرت وتولت الدوائر والروابط : «الوطنية» و«القومية» و«الإسلامية» . دواما تعارض أو تضاد ! ..

● وكما أبصر الأفغانى «للأمة العربية» دورا متميزا فى المحيط الإسلامى .. كذلك أبصر «لمصر» دورا متميزا وظيفيا وفائدا فى مشروع النهضة الذى ناضل فى سبيله .

لقد كانت مصر - قبل احتلال الانجليز لها - هى «النموذج» الذى سعى الأفغانى إلى تنمية نهضته . ليكون مركز الجاذب والاحتذاء لشعوب الشرق جمعاء .. إنها هى التى عناها الإمام محمد عبده . عندما تحدث عن أن «مقصد» [الأفغانى] - السياسى كان هو : إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها . حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية ..» (٢٤).

وفى مصر كان الانجاز الحقيقى والأعظم لدعوة الأفغانى وحركته . فترتبها كانت الأكثر قبولا لما بذر من بذور .. وتلك هى دلالة عبارة رشيد رضا - التى تقول : «سمعت الأستاذ الإمام يقول : «إن السيد (جمال الدين) لم يعمل عملا حقيقيا إلا فى مصر» ..» (٢٥).

ونقوم الأفغانى لدور مصر القائد فى محيطها العربى والإسلامى يؤكد هذا الذى نقول .. فهو القائل عن دورها هذا : «إن المتأمل فى سير مصر . يحكم حكما ربما لا يكون بعيدا عن الواقع . أن عاصمتها لا بد أن تصير . فى وقت قريب أو بعيد . كبرى مدينة لأعظم الممالك الشرقية . بل ربما كان ذلك أمرا مقروا فى أنفس جيوانها من سكان البلاد المتاخمة لها . وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر ..» (٢٦).

(٢٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣٥٢

(٢٥) [تاريخ الأستاذ الإمام] ج ١ ص ٧٩

(٢٦) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٦٧

بل إن [جمعية العروة الوثقى السرية] ومجلتها - التي حملت ذات الاسم - والتي يقول الدكتور لويس عوض : إن مهمتها كانت « لسف الشعور القومي ، وتدعيم الشعور الديني ، لحساب الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد .. بل والاستعمار وأنصار الحكم المطلق » (٢٧) .. إن هذه الجمعية ما قامت ، ولا صدرت مجلتها إلا لتعمل على تحرير مصر من قبضة الاستعمار الإنجليزي ، ولتعود مصر إلى مكانها الرائد والقائد في إطار « الجامعة الإسلامية » .. وعن تلك الحقيقة الهامة يقول الأفغانى ، في الحديث عن سبب تكوين تنظيم [العروة الوثقى] : « إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتياها على نفوس المسلمين عموما ، إن مصر تعتبر عندهم من الأراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها . نظرا لموقعها من البلاد الإسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين ، فإن كان هذا الباب آمينا ، كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع . وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية .. إن الرزايا التي حلت بأهم مواقع الشرق (مصر) جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأبقيت أفكار العقلاء .. فتألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار .. وطفقوا بتحسون أسباب النجاح من كل وجه ، وبوحدون كلمة الحق في كل صقع . لا ينون في السعى ولا يقصرون في الجهد . ولو أفضى ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حتى على حياته » (٢٨) ..

فإذا كان الأفغانى قد خاض ، في حياته ، تجربة « التنظيم » مرتين :

(٢٧) أصل « دراسة » الدكتور لويس عوض ١٨٦

(٢٨) الأعيان الكملة لجانب الدين الأفغانى | ج ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢

أولاهما في [الحزب الوطني الحر] والثانية في [العروة الوثقى] . فلقد كان الغرض والمهدف منها معا هو استخلاص مصر من أعدائها . وتثبيتها لتكون النموذج لمشروعه الحضاري الذي يجذب محيطها العربي والإسلامي إلى هذا الطريق .

وفي [العروة الوثقى] - المجلة - يربط الأفغانى بالدولة العثمانية أن تنهض . وتضغط بكل ما بيدها من «أوراق إسلامية» ومصادر قوة إسلامية - بما في ذلك الثورة الكامنة لدى مسلمي الهند وما يتأخمها - في محاولة استخلاص مصر من الإنجليز . ويتعدى العثمانيون من إضاعة الفرصة كي لا تثبت إنجلترا أقدام استعمارها على ضفاف النيل ! ... (٢٩)

فأين هي إذن دعوى الدكتور لويس التي تقول : «إن سياسة الأفغانى لمصر والسودان كانت تقوم على إعادة مصر والسودان إلى حظيرة الدولة العثمانية ، والقضاء على كل حركة استقلالية فيها» ! ... (٣٠)

لقد رأينا أن حقيقة سياسة الرجل هي تعريف عالم الإسلام . بما فيه الدولة العثمانية . لتحرير مصر من الاستعمار . وكذلك كانت سياسته تجاه السودان . فهو الذي - بنص ما ينقله الدكتور لويس نفسه عن «تت» - قد اشترط في مفاوضاته مع الإنجليز حول السودان . «اشترط : «إن أية تسوية لا بد أن تعيد مصر للمصريين !» و«إخلاء السودان» من الجيش الذي كان يقوده غوردون الإنجليزي .» بل و«إعادة عراقي من المنفى» إلى مصر من جديد ؟ ! ... (٣١)

(٢٩) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٥٧

(٣٠) أصل «دراسة» الدكتور لويس . ص ٢٢٧ - ٢٢٨

(٣١) أصل «دراسة» الدكتور لويس . ص ١٩٤ . و«التضامن» العدد ٢١ ص ٦٤

ثم إن «إخلاء السودان» الذى اشترطه الأفغانى ، لم يكن هو ذلك «الإخلاء» الذى نقده الانجليز بعد ذلك ليعيدوا فتحه واستنصاره .. وإنما كان الأفغانى يستنكر قتال الجند المصريين للثورة المهدية تحت قيادة غوردون ، ويبيصرهم بأن عدوهم الحقيقى هو الانجليز ، فكذب - متعجبا - فى [العروة الوثقى] - يقول : «لعمرك الله إننا لى عجب من الذين يحفظون قلاع السودان . ومن المصريين الذين يزحفون لمقاتلة السودانيين ؟ ! هل يعلمون أى أمة بخدمون ؟ !»^{٣٢١} .. لقد كان الأفغانى واضحا وصريحا فى نضاله من أجل تحرير مصر والسودان .. وهو الفاتل للانجليز ، فى مفاوضاتهم حول السودان ، كتاباته الحاسمة : «مصر للمصريين - والسودان جزء منهم»^{٣٢٢} .. ولقد كانت «العلاقة القانونية» التى تربط هذه البلاد بالدولة العثمانية «ورقة قانونية» بيد الحركة الوصية ، للضغط على الامتياز الانجليزى من أجل استخلاص هذه البلاد من براثن احتلاله . ولم تكن قيادا على استقلال هذه البلاد !

إننا نسأل الدكتور لويس : أى «استقلال» ذلك الذى وقف الأفغانى ضده ؟ .. واستقلالاً عن من . كان ذلك «الاستقلال» ؟ ..

إن «مأساة» الدولة العثمانية - كما هو معروف وشهير - فى ذلك التاريخ . لم تكن نابعة من «قوتها المستبدة» التى تحرم ولاياتها حقيقة الاستقلال .. وإنما كانت مأساتها فى «ضعفها» الذى أعجزها عن حفظ استقلال هذه الولايات . والذى أخذت تفتاله أوروبا الاستعمارية .. معركة الاستقلال الحقيقية كانت ضد الغرب . والاستقلال كان استقلالاً عن استعمارهم . وهو ما كان المعركة الكبرى والأولى والدائمة لجمال الدين ! ..

(٣٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ج ٢ ص ١٧١ .

(٣٣) المصدر السابق . ص ٥٠٥ . (طبعة القاهرة)

لقد كان تضال مصر في سبعينات القرن الماضي . زمن الحديوي
اسماعيل - وهو الذي أسهم فيه الأفغان إسهاما رائدا وبارزا - موجهها في
الأساس ضد الزحف الاستعماري الغربي . . وهذا التضال هو الذي عبر عنه
شعار « مصر للمصريين » ! . . فلم تكن القضية يومئذ متخذة شكل
« السيطرة العثمانية » بحال من الأحوال . . وكذلك كان الحال في الثورة
العربية . التي قامت لاستخلاص مصر من النفوذ الاستعماري الغربي . إلى
حد الحرب المسلحة ضد جيش الاحتلال الإنجليزي . . ولم يكن تناقض
الحركة الوطنية - في مصر أو السودان - مع العثمانيين إلا بتقدير عجز
العثمانيين عن الوقوف في وجه الغرب الاستعماري . ونجاح الغرب في اتخاذ
الضعف العثماني سبيلا يتسلل منه إلى السيطرة والاحتلال ! . . تلك كانت
حقيقة المعركة . وذلك هو جوهر الصراع الوطني في ذلك التاريخ !

لقد كان الأفغان ماضلا ضللا من أجل استقلال كل شعوب الشرق
عن الاستعمار . وكانت « الجامعة الإسلامية » . المرتكزة إلى « وحدة
الانتماء الإسلامي » . واحدة من الأسلحة « الطبيعية » والضرورية . التي
رأى الأفغان لزومها في مواجهة العاصفة الاستعمارية التي هبت من الغرب
على بلادنا في ذلك التاريخ ! . . فالتناقض الرئيسي كان بين كل شعوب
الشرق وبين الاستعمار الغربي . . وحتى التناقض غير الرئيسي . وغير العدائي
الذي كان قائما بين هذه الشعوب وبين « التحالف والضعف العثمانيين » .
فإن الأفغان لم يهملوه ولم يغفل عنه . فبقدر كان مضسبون « الجامعة
الإسلامية » عنده متميزا . كان دعوة للبهمة وللتقدم . بالتجديد والثورة
الثقافية واتحاد المسلمين . و « صراعا » ضد الرجعية . وفي ذات الوقت
« وحدة » لكل الذين تتناقض مصالحهم وهويتهم الحضارية مع الغرب
الاستعماري . . وفي هذا المضمون . تأخت وتزاملت وتضافرت المشاعر

والقسمات والدوائر « الوطنية » و « القومية » و « الإسلامية » . دوننا تناقض أو تعارض أو تضاد !

* * *

لكن هل كان الأفغانى « حالما » عندما غنق بعضا من آماله على الدولة العثمانية . وعلى السلطان عبد الحميد ! ؟ ..

وهن حقا ما يقوله الدكتور لويس عنه : إنه كان حالما يخلق فى السحاب ! ؟ ..

نحن لا نعتقد بذلك .

لقد كان الأفغانى مدركا أن هناك ظروفًا موضوعية معاكسة لمشروعه الساعى لتجديد حياة الأمة وإيقادها من عاصفة الاستعمار الغربى . منها ما هو داخلى . بأتى التخلف العثمانى والرجعية والحمود والضعف الموروث فى مقدمتها . ومنها ما هو خارجى . على رأسها تسلح الهجمة الاستعمارية بأسلحة القوة والجيوش التى هبأتها لها النهضة الأوربية الحديثة والثورة الصناعية العملاقة .. لكن الأفغانى حاول :

(أ) تقليل خسائر هذا « السقوط » . الذى بدا قدرا مقدورا .. !
(ب) وتقصير المدى الذى نرج فيه الأمة تحت عوامل هذا « السقوط » ! ..

(ج) وأن يحدد بمشروعه فى النهضة معالم الطريق لتقوى الإسلامية التى سنحبل على عاتقها . فى المستقبل . الخروج بالشرق من حفة هذا « السقوط » ! ..

إن الأفغانى عندما تأكد أن ملبيات الواقع العثمانى قد شددت السلطان عند الحميد بعيدا عن الطريق الذى حاول جهال الدين أن يجذبه إليه . لم

يتردد في مهاجمة «جين» هذا السلطان . الذي كان يسمى الظن
بالتاصحين اخلصين .. فقال الأفغاني عن «جين» عبد الحميد : «يا
للأسف ! .. إن عيب الكبير كبير ! والجين من أكبر عيوب
الملوك ؟ ! ..» (٣٤)

وكما سبق وبيع الأفغاني السلطان بالخلافة . عندما غلق على دهاك
وحنكته بعض الآمال . فإنه لم يتردد . عندما تبددت هذه الآمال . في
مصارحة السلطان برغبته أن «يقيله» من هذه البيعة ؟ ! فقال
للسلطان : «مواجهة : أثبت لأستريح جلالتك أن تقبلي من بيعتي لك .
لأنى رجعت عنها . نعم .. بايعتك بالخلافة . والخليفة لا يصلح أن يكون
غير صادق الوعد .. بيد جلالتك الحل والعقد . وإذا وعدت وحب
عليك الوفاء ؟ ! ..» (٣٥)

كذلك . كان الرجل واضحا ومحددا . أمام الظروف الموضوعية
المعاكسة لمشروعه «النهضوي» - في أن السعي لا بد وأن يستمر لتفليل
خسائر هذا «السقوط» القادم . ولتقصير أمد التارخى . ولانقضاء ما يمكن
إنقاذه من عموم بلواه ! .. وهو في ذلك يقول : «إني ما فرغت أذن
المسلمين . والشرقيين عموما . بالحجج القاطعة . وهتك أستار الظالمين
بالبراهمين الساطعة . وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوسا . إلا
لأقرب البعيد من زمن الاستعباد . وأقصر طيات المسافة في الذل والمهانة
لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية . وله من الزمن ما يؤجل معه

(٣٤) المصدر السابق . ص ٢٤٥

(٣٥) المصدر السابق . ص ٢٤٨

سقوطه . ويلم شعته . ويمد بعضهم لبعض يدا . عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم ! ... (٣٦)

وعندما لاح « السقوط » قدرا مقدورا ، لعوامل التخلف والضعف الداخلية . ولطفيان الحجمة الاستعمارية . لم يئأس الأفغانى . وإنما - مع اعترافه باستحالة تفادى هذا المصير - ناضل - كما قلنا - لتقصير أمدده . وتقليل خسائره . ورسم الطريق للخلاص من بلواه وغبرت عن هذه القضية كتاباته التي يقول فيها : « إن مبدأ تدهور تلك المسلمين في الشرق كان من شاطئ عظيم . لا يمكن للحكيم الوقوف في سبيل سقوطه وهو في وسط الانحدار . أو بقربه من نقطة المركز . ذلك الشاطئ العظيم . شاطئ حكمة الدين ! » . وإذا كان الخطاط الأمم مرضا . وله سير معلوم . فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير ، بل غاية ما يمكنه الإتيان بالملطفات والمسكنات . حتى ينتهى السير . ويبل العليل . ويدخل في دور النقاهة نعم . لو استقلت قدرة البشر بالتأثير . ما انحط رفيع . ولا ضعف قوى . ولا انهدم مجد . ولا تقوض سلطان ! ... (٣٧)

إن غلبة « التخلف الموروث » و« الوافد التغريبي » . اللذين حرصهما حركات الاستعمار . إل تغلبهما على دعوة الأفغانى وحركته . لم تكن بالغلظة التامة ولا النهائية لقد ظلت دعوة الجدوة التي تومض بالتجديد الرافض « للتخلف الموروث » . والمشير إلى « البديل » . البديل الحضارى الخاص بالأمم . والكفيل بإتقادها من مسخ « التغريب » والتشويه الذى تحمله للشخصية القومية سيادة حضارة الغزاة !

(٣٦) المصدر السابق - ص ٢٤١ .

(٣٧) المصدر السابق - ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

كذلك ظلت دعوة الأفغانى وحركته المثل والنموذج الذى استلهمته فصائل تيار [الصحوة الإسلامية] . منذ عصر الأفغانى وحتى الآن . هذه «الصحوة» التى علق الأفغانى عليها آمال إنقاذ الأمة من آثار «السقوط» الذى رآه قدرا مقدورا إبان سيادة الجمود وعنفوان هجمة الاستعمار . فلقد تحدث عنها . وعن دورها المرتقب هذا . وهو يتطلع إلى المستقبل . فقال : «... إننا نحتاج إلى عمل جديد . نرى به جيلا جديدا . بعلم صحيح . وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان الأول على الأجساد والأرواح . وهو «الدين» . وجمع ما نشأت من الكلمة من أهل الأديان . وتوطيد العزم على قبول الموت فى سبيل حياة الوطن . يقوم بذلك جمعيات يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم الأمانة عهدا «ألا يقرعوا بابا لسلطان ، ولا يضعضعهم الحدثان ، ولا يثنى عزمهم الوعيد . ولا يعزهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب . بل قوم يرون فى المتاعب والمكاره ، بنجاة الوطن من الاستعباد . غاية المغرم . وفى عكسه المغرم !...»

ثم استطرد الأفغانى . وهو يستشرف آفاق المستقبل . ويرسم ملامح تيار [الصحوة الإسلامية] . الشعبى .. المسلح بسلطان الدين ، بعد فهم حقيقته . وبسلطان العلم .. والسالك إلى غايته طريق الشهداء !... يستطرد ليشرح بختمية انتصار هذا التيار على «السقوط» الذى ساد عالم الإسلام .. فلقد قال القدماء : «الحاجة أم الاختراع» . وقال المصطفى . صلى الله عليه وسلم : «اشتد أزمه تنفرجى» ! . فالأزمة تلد الهمة . ولا رجاء من المستضعف إلا إذا يش ١٤ ولا ينزع الأمر إلا إذا ضاق . ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الخالك . وعلى ما أرى . قد أوشك فجر الشرق أن ينبثق . فقد ادهمت فيه ظلمات الخطوب . وليس بعد هذا

الضيق إلا الفرج .. سنة الله في خلقه :

ومهما ادلهم الخطب لابد ينجلي

وأظلمت الدنيا فلا بد من فجر .. (٣٨)

هكذا تنبأ جمال الدين ..

والآن نسأل : ألم تصدق نبوءته هذه ؟ ! .. وألا تتعلق الآمال
الصادقة . اليوم ، بنبار [الصحوة الإسلامية] . الذي يواصل المسيرة على
الدرب الذي ارتاده الأفغانى . لينقذ الأمة . بالنهضة الإسلامية . من
آثار « السقوط » الذى حال بين مشروع الأفغانى وبين الانتصار فى النصف
الثانى من القرن التاسع عشر ؟ ! .. إن ضراوة الحملة على جمال الدين .
من أعداء [الصحوة الإسلامية] . تؤكد هذا الذى نقول ؟ ! ..



لقد سار على درب الأفغانى - درب « الجامعة الإسلامية » - كل الذين
أبصروا أن نجاة الأمة من « السقوط » فى شرك الاستعمار . إنما تكمن فى
نهضتها المؤسسة على التمدن الإسلامى . تلك النهضة التى تجلو الوجه
الإسلامى والقومى للأمة . ولا تقطع روابط ارتباطها القومى والإسلامى
« بالإقليمية » و « العلمانية » و « التغريب » ..

● فأحمد عرابى [١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ - ١٨٤١ - ١٩١١ م] قائد الثورة
التي ذهب شعار « مصر للمصريين » علما عليها ..

هو الذى امتنكر - فى رسالته إلى جورجى زيدانى - أن يكون هدف
الثورة العرابية إسقاط الدائرة الإسلامية من « محيط الانتماء » . وقال :

(٣٨) المصدر السابق . ص ٤٥٦ . ٤٥٧

« إن هذا الادعاء هو من إرجاف المرجفين .. لأنى أرى فى ذلك ضياعا للإسلام عن بكرة أبيه ! .. » (٣٩)

● ومصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] الذى اتهمه أعداء « الجامعة الإسلامية » - زورا وبهتانا - بأنه « لم يرفع شعار استقلال مصر التام .. بل ناضل لإعادة البلاد إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية .. بتبشيره بفكرة الجامعة الإسلامية ! » (٤٠) .. وهو الاتهام الذى يوجهه الدكتور لويس عوض إلى الأفغانى ! - مصطفى كامل هذا هو الذى جمع فى فكره وحركته بين كونه « شاعر الوطنية المصرية .. وشهيد الاستقلال المصرى » وبين دعوته إلى « الجامعة الإسلامية » - باعتبارها إطار الانتماء الفكرى والسياسى والحضارى - الاوسع - لمصر ! .. فهو يقول : « إننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا .. ولا يمنعنا هذا من النظر إلى الوجهة الدولية للمسألة المصرية .. فمصر للمصريين .. ومحال أن نطلب مالكا أجنبيا عنا .. لكننا نود أن نكون قوة محالفة للدولة العلية (العثمانية) .. فمن ناموس الطبيعة أن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون .. ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته .. وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها .. بلغنا أقصى ما برام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع .. قبل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعى وشرعى .. يزيه أن لتأخر الشعوب الإسلامية أسبابا واحدة .. وهذا هو معنى حركة الجامعة الإسلامية ! .. » (٤١)

(٣٩) نظر كتاب : العروة فى العصر الحديث | ص ٢٤٦ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م

| الرسالة مشورة بترجمة جورجى زيدان لعزائى فى كتابه [تاجم مشاهير الشرق]

(٤٠) لويسكى | تاريخ الأقطار العربية الحديث | ص ٢٩٠ - طبعة موسكو سنة ١٩٧١ م

(٤١) عبد الرحمن الرافعى [مصطفى كامل] ص ٣٦٧ - ٢٢٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٤٨٢

• [اللواء] عدد ٢ مايو سنة ١٩٠٦ م

● وحسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] الذي مثل
أحد رموز [الصحوة الإسلامية] التي ارتاد الأفغانى طريقها .. هو الذى
يؤكد «العروة الوثقى» بين دوائر «الوطنية» و«القومية» و«الإسلامية» ..
بل و«العالمية» .. بالنسبة لمصر وشعبها ، فينبى التناقض بين هذه الدوائر ..
ويبدد شبهات «الأقليميين» و«العلمانيين» و«المتغربين» حول دعوة «الجامعة
الإسلامية» وحركتها .. وذلك عندما يقول : «إن مصر هى قطعة من
أرض الإسلام .. وزعيمة أمه .. وفى المقدمة من دول الإسلام وشعوبه ..
والمصرية لها فى دعوتنا مكانها ومزلتها وحققها فى الكفاح والنضال .. إننا
نعتر بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له .. مجاهدون فى سبيل
خيريه .. وسنظل كذلك ما حيينا ، معتقدين أن هذه هى الحلقة الأولى فى
سلسلة النهضة المنشودة .. وإنها - [أى مصر] - جزء من الوطن العربى
العام .. وإننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام ..
والعروبة - [وهى الحلقة والدائرة الثانية والثالثة] - لها فى دعوتنا -
كذلك - مكانها البارز وحظها الوافر .. فالعرب هم أمة الإسلام الأولى
وشعبه المتخير .. وبحق ما قاله صلى الله عليه وسلم : «إذا ذل العرب ذل
الإسلام» ! ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية
ونهبستها .. إن هذه الشعوب الممتدة من الخليج إلى المحيط كلها عربية ..
تجمعها العقيدة .. ويوحد بينها اللسان .. وتؤلفها الوضعية المتناسقة فى رقعة
من الأرض متصلة متشابهة .. لا يحول بين أجزائها حائل .. ولا يفرق بين
حدودها فارق .. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ..
ولخير العالم كله .. ودعوتنا ذات مراحل .. وارجوا أن تتحقق تباعا .. نرجو
أن تقوم فى مصر دولة مسلمة .. تحتضن الإسلام .. وتجمع كلمة العرب ..
ونعمل لخيرهم .. ونحمى المسلمين فى أكناف الأرض من عدوان كل ذى
عدوان .. فواجب أن يعمل الإنسان لوطنه ، وأن يقدمه فى العمل على

سواء .. وواجب أن نعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها .. باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض .. وواجب أن نعمل للجامعة الإسلامية . باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام .. ولا تعارض بين هذه الوحدات . بهذا الاعتبار . فكل منها يشد أزر الأخرى . وتحقيق الغاية منها ! .. (٢٦)

* * *

تلك هي حقيقة دعوة [الجامعة الإسلامية] وحركتها .. عند رائدها جمال الدين الأفغاني .. وعند الذين ساروا على الدرب . من الوطنيين .. القوميين .. الإسلاميين ! ..

إن « وطنية » الإسلاميين . دعاة « الجامعة الإسلامية » . هي الأتقى والأرقى والأعمق من مثلتها عند « الاقليميين .. العلمانيين .. المتغربين » بما لا يقاس ! .. ناهيك أن ولاء الإسلاميين - بعد دائرة « الوطن » - إنما هو لقوميتهم وحضارتهم .. أما « الاقليميون .. العلمانيون .. المتغربون » . فإن ولاءهم - بعد دائرة « الوطن » - منصرف ومتوجه إلى حضارة الأعداء الغزاة ! ..

(٤٢) جـ ١ [مجموعة الرسائل] ص ٨٨ . ٩٩ . ١١٢ . ١١٥ . ١٧٦ - ١٧٨

سعة دار الشهاب القاهرة

خرافة المستبد العادل !

إن أبوة جمال الدين الأفغانى لنزعة «الحرية» ، وريادته فى الدعوة إلى أن تكون الأمة هى مصدر السلطات . وأن يكون الحكم للإرادة الشعبية . فى السياسة وتنظيم المجتمع وقيادة الدولة . إن أبوة جمال الدين وريادته للدعوات والحركات التى نزع هذا النزاع فى عصرنا الحديث هى مما شهدت عليها وقائع هذا العصر . وضيق عليها الذين أرحوا له فى فكرنا الحديث .

ومع ذلك ، يشذ الدكتور لويس : فبصادم حقائق الواقع التاريخى . ويضرب عرض الحائط - دونما دليل أو قرينة - بل ولا شبهة ؟ ! - بما كتبه المفكرون والعلماء والمؤرخون عن عشق الأفغانى للحرية ، ونصالة فى سبيل تحرير الأمة من الاستبداد ! -

إن الشيخ مصطفى عبدالرازق [١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ - ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م] - وهو من هو إمامة وعظما واستنارة وأمانة - يحدثنا عن أن أساس النهوض للممالك الشرقية عند جمال الدين الأفغانى قد تبلور فى أسس ثلاثة :

١ - خلاص هذه الأمم من سلطان الأجنبي

٢ - وخلصها من الحكم الاستبدادي ..

٣ - ثم تلازمها بنوع من الوحدة بقوى التناصر بينها ويكمل لها القلب ..

وينتظره الشيخ مصطفى عبدالرازق ليقول : « وحسب جمال الدين من عظمة ومجد ، أنه ، في تاريخ الشرق الحديث : أول داع إلى الحرية ، وأول شهيد في سبيل الحرية » (١) ؟ !

هذا ما قاله الإمام مصطفى عبدالرازق .. وسيفه إليه . وتبعه فيه العلماء والأعلام الذين كتبوا عن موقف الأفغانى من « الحرية » ومن « الاستبداد » .

فإذا يقول الدكتور لويس في هذا المقام ؟ ! ..

إنه يذهب - في بساطة لا تعرف المسئولية الفكرية - ليفترى على الأفغانى عندما يتهمه بمناصرة الاستبداد ؟ ! .. وبأنه قد عاش يبشر بحكم « المستبد العادل » (٢) ! .. وبأنه لم يكن أبدا داعية للحكم الدستوري والديمقراطي ؟ ! .. « لما كان يدعو إليه الأفغانى - [ينظر الدكتور لويس] - هو حكم « المستبد العادل » . فليس في كلامه أثناء مرحلته المصرية أى برنامج للحكم الدستوري بالمعنى المتعارف عليه ! .. »

وعندما يواجه الدكتور لويس تراث الأفغانى - مقالات ومحاضرات -

الذى هاجم فيه الاستبداد والمستبدين .. يسعى لتفريغ هذا التراث من مضمونه الواضح الحاسم الناصع . حتى ولو كلفه ذلك تجريع مبدأ « الشورى » ومضمونها كفسلفة للحكم في الإسلام .. فيقول الدكتور لويس ، عن تراث الأفغانى في هذه القضية : « أما حله لمشكلة الاستبداد . التى كان يكثر من الكلام فيها . فيقف عند نظام

(١) مقدمة مجموعة [العروة الوثقى] ص ١٤

«الشورى» . أى «حكومة الحكماء» . أهل الرأى والعلم والخبرة . كغرفة مشورة للحاكم أيا كان هذا الحاكم ! ..»^(٢)

ولئن لن نقف - فى هذا المقام - لتناقض افتراء الدكتور لويس على «الشورى» الإسلامية . فى هذا الفن أبحاث ودراسات كنا نتمنى أن يقرأ بعضها منها قبل أن يكتب هذا الكلام . . فقط نريد أن ننبه إلى أن :

● «الشورى» الإسلامية . كما جاءت فى القرآن والسنة . هى «فلسفة حكم» . وليست «نظاما» مفصلا وجاهزا لكل زمان ومكان . . فأى سبيل يسلكه المسلمون لتحقيق الخد الأقصى من سيادة إرادة الأمة . هو أقرب السبل إلى روح فلسفة «الشورى» التى دعا إليها الإسلام . .

● وهذا التصور الذى رأى به الدكتور لويس «الشورى» الإسلامية مجرد «غرفة مشورة للحاكم» . أيا كان هذا الحاكم» . هو ذات التصور الذى يقدمه لنا غلاة أهل الجمود والرجعية والتخلف من الإسلاميين ! . . فهبنا له هذا الاختيار ، وذلك المعسكر الذى وضع نفسه فيه ١٢ ! . . أما ما هى حقيقة موقف الأفغانى من «الحرية» ومن «الاستبداد» ؟ . . فإننا لو وقفنا عند حدود «الوقائع» و«التصور» التى أوردها الدكتور لويس فى «دراسته» . لكان ذلك كافيا فى نقض دعوى الدكتور لويس ١٢ ! . .

● فهو فى حديثه عن خطبة الأفغانى بقاعة «ريرينيا» - الاسكندرية - يذكر . ضمن نقاط البرنامج الذى طرحه ودعا إليه :

(أ) «إداته استبداد الحكماء» . .

(٢) [التصانيف] العدد ٨ ص ٦١ . العدد ٩ ص ٦٠

(ب) «ودعوته لإنشاء تنظيم سياسي . هو الحزب الوطني . ليحمي النظام
النيابي . . .»

(ج) «ودعوته لحرية الاجتماع وحرية الصحافة»

وهنا تسأل : أليست هذه الأهداف داخلة ، بشكل مباشر ، في نصرة
الحرية ومعاداة الاستبداد ؟ . . . وأين هي الدعوة إلى حكم «المستبد
العادل» عند من يدعو إلى «إنشاء تنظيم حزبي سياسي» ، هو الحزب
الوطني ، ليحمي النظام النيابي ؟ . . . هل النضال لحماية «النظام النيابي»
هو - في رأي الدكتور لويس - من مقومات حكم «المستبد العادل» ؟ . . .
فإذا أضفنا إلى أهداف الأفغانى هذه ، دعوته - كما جاء في «دراسة»
الدكتور لويس عن ذات الخطبة - خطبة مسرح «ريزينا» - دعوته إلى
إبراز دور القوميات . . . و«إدانتها للتعصب الديني» و«دعوته لتعليم
المرأة»^(٣) . . . الخ . . . زاد التساؤل : أليست جميع هذه الأهداف لبنات في
صرح الحرية ، ومعاول في صرح الاستبداد ؟ . . .

● وغير محاضرة «ريزينا» . فإن الدكتور لويس يقتبس لنا من مقال
الأفغانى [البيان في الانكيز والأفغان] - الذي نشرته جريدة [مصر] في
خريف سنة ١٨٧٨ م - فقرات منها كلمات الأفغانى التي تقول :
«فالشرق الآن قد قسمه الأجنبي بسبب تخلفه . ولهذا التخلف سببان :

الأول : التعصب . . .

والثاني : الاستبداد . . .

أما التعصب فهو : إساءة استعمال الدين . والخروج عن سنة الأنبياء .

(٣) [التضامن] العدد ٩ ص ٥٩

مؤسسى الأديان .. أما الاستبداد فهو تقييد الأمة بإرادة رجل واحد . وقد انتهت هذه الحقبة منذ أن حقق المصريون الحكم البرلماني الذي لا مناص من تأييده إذا أردنا الاستمرار .. »

لكن الدكتور لويس . بعد أن أورد هذه الكلمات . التي ينبغي فيها الأفغانى الاستبداد . ويؤيد «الحكم البرلماني» ويدعو إلى تأييده لضمان استمرار على طريق الحرية .. بعد أن يورد هذه الكلمات . يسعى ليحرم الأفغانى من هذا الشرف ! .. فيقول : إن الأفغانى كان مضطراً إلى هذا القول . حتى لا يظهر «في صورة الخائن» فيفقد كل قواعده بين المصريين «إن هو لم يؤيد وزارة «شريف باشا» الدستورية التي تشكلت في ٧ إبريل سنة ١٨٧٩ م ١٩١٤ .. ولم يسأل الدكتور لويس نفسه هذا السؤال البسيط : كيف «يضطر» الأفغانى إلى كتابة كلام في خريف سنة ١٨٧٨ م تفاقا لحكومة تألفت في ٧ إبريل سنة ١٩٧٩ م ١٩١٤ .. هل هو «تفاق متنبئ» يا عزيزنا الدكتور لويس ١٩ ..

● ومقالة أخرى من مقالات الأفغانى في «الحرية» و«الاستبداد» . يورد لنا الدكتور لويس بعضاً من نصوصها .. فنجد في مقاله عن [الحكومة الاستبدادية] - الذي نشرته جريدة [مصر] في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٩ م - أى قبل تأليف وزارة شريف ١٤ - نجد قول الأفغانى : «إن من يأسون بالحكومة الدستورية تستيقظ فيهم الفطرة الإنسانية السليمة التي تحفزهم للخروج من حياتهم البهيمية الوضيعة لبلوغ أقصى درجات الكمال والتخلص من نير الحكومة الاستبدادية التي تثقل

كواهلهم...»^(٥) .. فالحديث هنا صراحة ، عن الشخص من « ليس
الحكومة الاستبدادية » .

وعن « الحكومة الدستورية » .. وليس عن « حكومة الحكماء » .
و« غرفة مشورة الحاكم أيا كان هذا الحاكم » .. فمن أين جاء الدكتور
لويس بهذه الأحكام ؟ ! وما حيثيات قوله إن الأفغانى لم يكن له « أى
برنامج للحكم الدستورى » فى سنوات إقامته بمصر ؟ ! !

● أما النص الثالث الذى أورد الدكتور لويس فقرات منه ، فهو مقال
الأفغانى المعنون : [العلة الحقيقية لسعادة الإنسان] - وهو الذى نشرته
جريدة [مصر] فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٨ م - وهو الآخر مكتوب ومنشور
قبل تأليف وزارة شريف باشا سنة ١٨٧٩ م - وفى هذا المقال يقول جمال
الدين : « إنه لا طاعة للحكام إلا إذا قاموا بحماية شعوبهم وحكموا بالقوانين
العادلة . أما الحكام الجشعون أو الظالمون فلا تجب لهم طاعة .. ولا نجاة
للناس من شقائهم إلا بالاحتكام إلى العقل فى كل شىء . وتحرير
أعناقهم من استعباد السلاطين الأتانيين والخروج عن طاعتهم .. »^(٦) .
هذا ما كتبه الأفغانى ، منذ أكثر من قرن من الزمان .. والدكتور
لويس يعترف بما فى هذه الأفكار من « حض على الثورة ودعوة إليها .. »
لكنه . لا ينسى أن يقول عنها : « إنها لا تأتى بجديد .. فالأفغانى لا يقدم
للناس الحلول الديمقراطية المألوفة . بل يجد الحل فى نظرية « المستبد
العادل » ! ! »^(٧)

أى . والله ، هذا هو تفكير الدكتور لويس لأراء الأفغانى المعادية

(٥) [التضمن] العدد ١٤ ص ٧٨ .

(٦) [التضمن] العدد ٩ ص ٦٠ .

للاستبداد . والداعية إلى الثورة عليه ! .. وينص كلمات الدكتور
لويس ؟ ! ..



ونحن إذا تجاوزنا ما اقتضيه الدكتور لويس من كتابات الأفغانى عن
« الحرية » وعن « الاستبداد » - وهو كاف ليضع الأفغانى فى مكانته ، كأول
داع للحرية . وأول شهيد للحرية . فى تاريخ الشرق الحديث - كما قال
الشيخ مصطفى عبدالرازق - .. إذا تجاوزنا ذلك إلى أعمال الأفغانى
الفكرية . فسجد بها الكثير من الشواهد على صدق ما كتبه العلماء
المتصفون عن هذا الجانب من فكره ونضاله وعلى سبيل المثال :

● فإن الأفغانى لا يدع مجالاً للشك - عند المتصف الأمين - فى اختياره
إلى مبدأ : « أن الأمة هى مصدر السلطات » فى سياسة المجتمع . مما يعنيه
ذلك من ضرورة « استمداد السلطة الزمنية قوتها من الأمة » ، والتزامها
بتحقيق مصالح الأمة وحقوقها . وخاصة « فى الأمن .. والعدل » ..
وذلك بالمبدأ القائل - وفق ألفاظ الأفغانى - : « إن الإرادة الحرة للشعب
الحرة هى القانون » ! .. وفى هذه المعانى المحددة والواضحة يقول جمال
الدين : « إن السلطة الزمنية - بملكها أو سلطانها - إنما استمدت قوتها من
الأمة لأجل قمع أهل الشر ، وصيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحة
للمجموع بالسهر على الأمن . وتوزيع العدالة المطلقة ، إلى آخر ما فى
الوازع والسلطان من المنافع العامة .

أما إذا أودعت هذه السلطة رجل غر حاهل غات ، اكتنفه قوم من
فاسدى الأخلاق ، مجهولى الأعراق ، يملعون بالسلط كيف يشاءون - ثم
يخسحون على الشعب بقولهم : « مشيئة الملك قانون المملكة ! » - هذا
القول ، على تلك الحالة ، مما يجب على الأمة وقوفها تجاهه ، وأن تقاومه

يكل ما لديها من قوة . لأن الحق في هذا : إن إرادة الشعب . غير المكره
وغير المسلوب حريته . قولاً وعملاً . هي قانون ذلك الشعب المتبع .
والقانون الذى يجب على كل حاكم أن يكون خادماً له . أميناً على
تنفيذه » (٧)

● واختيار الأفغانى إلى مبدأ : « الأمة هي مصدر السلطات » .
و« إرادة الشعب الحر هي القانون » . لم يخل من التصورات المحددة التى
نضع هذا المبدأ فى التطبيق . فلقد أجاز الرجل إلى صف « الحكيم
النبأى » . ودعا إلى أن يكون « النواب » ممثلين حقيقيين للشعب الذى
يتحدثون باسمه . وأدان « الأشكال النيابية » التى يصنعها المستعمرون
والمستبدون . وفى ذلك كتب يقول : « إن القوة النيابية لأى أمة كانت .
لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى . إلا إذا كانت من نفس الأمة . وأى
مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أمير أو قوة أجنبية محررة لها . فاعلموا أن
حياة تلك القوة النيابية الموهومة موقوفة على إرادة من أحدثها ! » (٨)

● ولقد سعى الأفغانى - أثناء مقامه بمصر - وعندما تولى الحكم
الخديوى توفيق سنة ١٨٧٩ م - سعى إلى هذا الخديوى لبطل ترده إزاء
الحكم الدستورى والنيابى - وكانت « حجة » الخديوى أن الشعب لم ينضج
إلى الحد الذى يحسن فيه اختيار النواب الأكفاء ! . فتحدث الأفغانى
إليه قائلاً : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن
الشعب المصرى . كسائر الشعوب . لا يخلو من وجود الحامل والجاهل بين
أفراده . ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل . فبالنظر الذى تنظرون
به إلى الشعب المصرى وأفراده ينظرون به إلى سموكم . وإن قبلتم نصيح هذا

(٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٣٢٣

(٨) المصدر السابق ص ٤٧٣

المخلص وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى .
فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذ باسمكم
وبإرادتكم . فيكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم .. » (٩) .

فالشورى هنا - برأى الأفغانى - هي الحكم النبائى . النابع من
الشعب . والذى يتولى فيه ممثلو الأمة سلطات التشريع والتقنين والتنفيذ .
وليست « حكومة الحكماء » و« غرفة المنشورة للحاكم » . أيا كان هذا
الحاكم .. كما ادعى الدكتور لويس (١٠) .

● بل إن الأفغانى ليذهب في إيمانه « بالحكم الدستورى - النبائى » .
والخياره إليه . إلى الحد الذى يرى فيه « حياة مصر والشرق » . وفي فئده
« الموت » ؟ ! .. فيقول : « لانحيا مصر ولا نحيا الشرق . بدوله
 وإماراته . إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلا قويا عادلا . يحكمه بأهله .
على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان . لأن بالقوة المطلقة : الاستبداد .
ولا عدل إلا مع القوة المقيدة . وحكم مصر بأهلها إنما أعى به : الاشتراك
الأهل بالحكم الدستورى الصحيح . وإذا صح أن من الأشياء ما ليس
بوهب . فأهم هذه الأشياء : (الحرية) و(الاستقلال) . لأن الحرية
الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر . والاستقلال
كذلك . بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهما الأمم أخذا بقوة
واقترار . يحيل - أى يخلط ويطبع - التراب منها بدماء أبناء الأمة
الأمعاء . أو النفوس الأبية والهمم العالية . أما تغيير شكل الحكم المطلق
بالشكل النبائى الشورى فهو أيسر مطلبا وأقرب مثالا .. » (١١) .

(٩) المصدر السابق . ص ٤٧٣

(١٠) المصدر السابق . ص ٤٧٧ - ٤٧٨

فالمطلوب هو تجاوز « الشكل » الخادع . إلى « المضمون » الحقيقي .
الذى يحقق « الاشتراك الأهل » - [أى اشتراك الشعب فى حكم نفسه] -
« بالحكم الدستورى الصحيح » ! .. وتلك غاية لا بد من أن يدفع الشعب
لها « الثمن الغالى » . حتى من دماء أبنائه الأملاء !

● وكما أن الحصول على (الحرية) والحكم النيابى الدستورى . قد
يتطلب القوة والثورة وإراقة الدماء الزكية .. فإن الحفاظ عليه وصيانته .
قد يتطلب هذا الثمن « الغالى » والطبيعى « أيضا ! .. إذ لا يسلم . على
الغالب . الشكل الدستورى الصحيح مع ملك ذاق لذة الثورة
بالسلطان . ويعظم الأمر عليه كلما صادمه مجلس الأمة بإرادته وعلمه على
هواه . ولذلك قلت - [والقائل هو جمال الدين !] - : « إذا أتاح الله
رجلا قويا عادلا لمصر وللشرق بحكمه بأمله » . ذلك الرجل . إما أن يكون
موجودا . أو تأتى به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها
الأساسى - [أى الدستور] - وتتوجه على هذا القسم . وتعلنه له : يبقى
التاج على رأسه مابقى محافظا أميناً على صون الدستور . وأنه إذا خنت
بقسمه . وخان دستور الأمة . إما أن يبقى رأسه بلا تاج . أو تاجه بلا
رأس ١١٢٢ .

هذا ما يحسن بالأمة فعله إذا هى خشيت من أمرائها وملوكها عدم
الاخلاص لقانونها الأساسى . أو عدم قابليتهم لقبول الشكل الدستورى
قلبا وقالبا ! ، ، ، (١١) .

تلك هى أفكار الأفغانى . التى صاغها فى هذه التبادج التى اخترناها
من فكره السياسى والدستورى .. والتى ناضل كى يضعها فى التطبيق أيضا

(١١) المصدر السابق . ص ٤٧٨ . ٤٧٩

حل أو ارتحل . وبعد أن انخرط في موكب نضال الشرق في سبيل (الحرية)
(التجديد) و (الاستقلال) إلى أن عادت نفسه الزكية إلى بارئها .

فأين هي . إذن . « الأفكار » أو « الممارسات » .. بل أين « الشبهات »
التي تبيح لقلم يستشعر حامله الأمانة أن يكتب إلى قرائه فيقول : إن
الأفغانى كان داعية لحكم « المستبد العادل » ؟ !

أين مبررات هذا الادعاء الظالم والشاذ والغريب ؟ ! ..

وأين الأمانة في تناول إمام أضحى - بذكره ونضاله - جزءاً من ضمير
الامة ، على هذا النحو الظالم والشاذ والغريب ؟ ! ..

* * *

وبعد ...

فلقد أشرت في بعض صفحات هذه الدراسة إلى أنى قد ترددت .
لبعض الوقت . في أن أتناول « بالنقد » و « التفنيد » ما كتبه الدكتور لويس
عوض عن جمال الدين الأفغانى .. لما تميز به هذا الذى كتبه من مستوى في
الغربة والشذوذ لم يسبق له - فيما قرأت - مثيل . اللهم إلا تلك الكتابات
التي خطتها جهلاء المبشرين وغلاتهم عن الإسلام ونبيه . صلى الله عليه
وسلم . قبل أن تشيع المدنية والحضارة في محتمعات هؤلاء المبشرين ؟ !

لكنى قد عدلت عن التردد . واخترت أن أكتب هذه الصفحات .
نقداً وتفنيداً . لما كتبه الدكتور لويس . لا سعياً وراء إقناعه بخطأ هذا
الذى افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ! .. وإنما لأقيم حواراً مع القارئ
العربي والمسلم حول القضايا التي عرض لها فيما كتب عن جمال الدين ..
ذلك أنى أعلم أن القراء ، جمال الدكتور لويس ، فريقان :

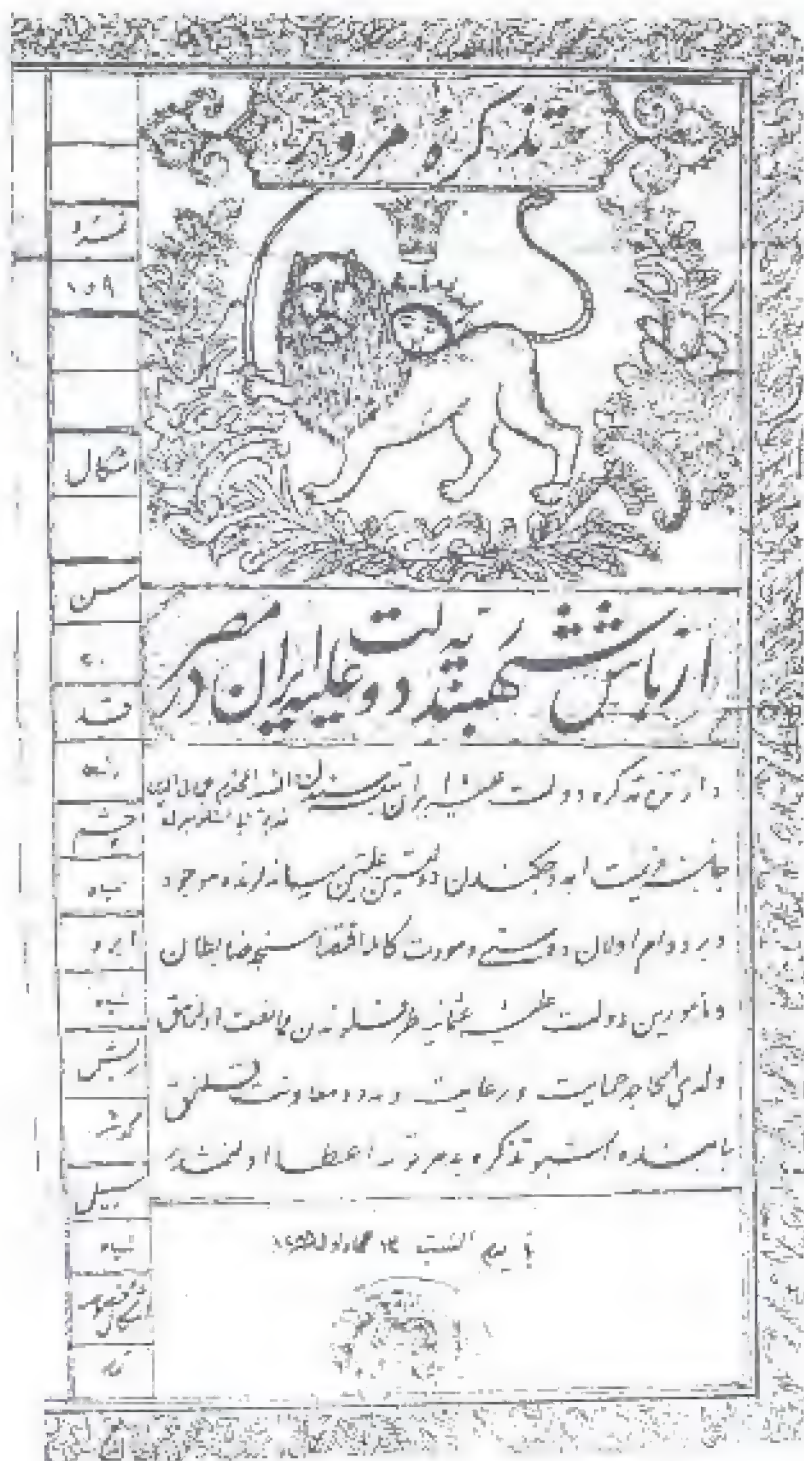
أولهما : أولئك الذين لا يحسنون الظن به - أو يسيئون به الظن -

وهؤلاء لا يقيمون وزنا لما يكتب .. وإن استقرهم هذا المستوى الذي بلغه
فما كتب عن الأفغانى ! ..

وثانيهما : أولئك الذين كانوا يحسنون الظن بالدكتور لويس - ولقد
كثرت ممن يحسنون الظن بما يكتب الرجل في نطاق تخصصه عن الآداب
والفنون الغربية - .. ولقد « صدم » هذا الذي كتبه عن الأفغانى ثقة هذا
الفريق فيه . وزلزل حسن ظنهم به زلزلا شديدا . كما بلبسهم بلبلة
كبيرة ! .. وإلى هذا الفريق - بالدرجة الأولى - قصدت عندما كتبت
هذه الصفحات ! ..

ولست أشك في أن « طلاب الحقيقة » - من قراء الدكتور لويس -
الذين كانوا يحسنون به الظن - سيرددون معنا - وهم آسفون - [عليه
العوض - في الدكتور لويس عوض] ١١ ٩٩ .

أقول قولى هذا : وأستغفر الله لى وللقراء .. ولقد هممت أن أستغفر الله
للدكتور لويس على ما افتراه على جمال الدين الأفغانى . ولكنى تذكرت
قول ربى : سبحانه وتعالى : [الذين يلتمزون المطوعين من المؤمنين في
الصناديق والذين لا يحدون إلا جهدهم فيسحرون منهم سحر الله منهم
ولهم عذاب أليم . استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة
فلن بغفر الله لهم . ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله . والله لا يهدي القوم
الضالين] (١٢) ! .. صدق الله العظيم .



صورة تذكرة المور الصادرة من نقسبة إيران بالقاهرة .. والمزعوم
 أنها لجمال الدين الأفغانى .. والتي حققنا انعدام صحتها بالأفغانى

المراجع

- أحمد بن بلا : [المتقى] مجلة فصلية - العدد الأول . باريس سنة ١٩٨٣ م
- أحمد عظمة الله : [القاموس الإسلامى] . طبعة القاهرة .
- الأفغانى (جمال الدين) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة
طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م
- [البابية] في [دائرة المعارف] تحرير : بطرس البستاني . طبعة بيروت
- الحجرفى (عبد الرحمن) : [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م
- [مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين] طبعة القاهرة .
- جرجى زيدان : [تراجم مشاهير الشرق] طبعة القاهرة
- جولد سيهر : [جمال الدين الأفغانى] في [دائرة المعارف الإسلامية] الطبعة العربية . الثانية دار الشعب القاهرة .
- حاجى خليفة : [كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون] طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م

- حسن الأمين [دائرة المعارف الإسلامية الشيعية] طبعة بيروت
- حسن البيا [مجموعة الرسائل] طبعة دار الشهاب . القاهرة
- الرافعي (عبد الرحمن) : [مصطفى كامل] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢
- رشيد رضا [تاريخ الأستاذ الإمام] طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م
- سركيس (يوسف إيلان) [معجم المطبوعات العربية والمعربة] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .
- سليم نقاش [مضر للمصريين] طبعة الاسكندرية سنة ١٨٨٤ م .
- صابر طعيمة [الماسونية ذلك العالم المجهول] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- الطهطاوي (بهاغة رافع) . [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .
- الطوسي (أبو جعفر) : [تلخيص الشافعي] طبعة التجف سنة ١٣٨٣ - سنة ١٣٨٤ هـ
- فيليب حني [تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين] طبعة بيروت سنة ١٩٥٨ م .
- الكواكبي (عبد الرحمن) [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م
- لوتسكي [تاريخ الأقطار العربية الحديثة] طبعة موسكو سنة ١٩٧١ م .
- لوثرول ستودارد [حاضِر العالم الإسلامي] طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م .
- لويس عوض (دكتور) [الأيراني القامض في مصر] مجلة [التضامن] لندن - الأعداد ١ - ٢٢ سنة ١٩٨٣ م [وأصل هذه الدراسة قبل نشرها]
- [تاريخ الفكر المصري الحديث] ج ١ ، ٢ . طبعة

- كتاب الهلال - القاهرة سنة ١٩٦٩ م
- [مقدمة في ققه اللغة العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م
- محسن الأمين : [جمال الدين الأفغاني] طبعة بدون تاريخ ولا مكان الطبع
- محمد عبده : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م
- محمد عمارة (دكتور) : [العروة في العصر الحديث] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م
- : [العرب والتحدى] طبعة الكويت . سنة ١٩٨١ م .
- : [المادية والثالية في فلسفة ابن رشد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م
- محمد الفاضل بن عاشور : [التفسير ورجاله] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م
- محمد فؤاد عبد الباقي : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب . القاهرة .
- محمد مختار باشا المصري : [كتاب التوفيقات الالهامية] دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م
- مصطفى عبد الرازق : [جمال الدين الأفغاني] مقدمة مجموعة [العروة الوثقى] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .
- ميرزا لطف الله : [جمال الدين الأسد آبادي - المعروف بالأفغاني] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٧ م
- وينستك (أ. ي) : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م

دوريات

[الأهرام]

[السياسة الدولية]

[اللواء]

[ملف المستقبلات العربية البديلة]

الفهرس

الصفحة

٥	تمهيد : قصة المخطط .. وأبعاده .. ومراميه
٢٢	الدوافع والمنطلقات
٣٨	طريق الجواميس .. لا طريق العلماء ؟ !
٦٣	تشكيك .. واقتراء
٩٨	هل كان الأفغانى ملحدًا .. زنديقا ؟ !
	هل كان الأفغانى « إيرانيًا » ؟ .. و « شيعيًا » ؟ ..
١٢٧	بل و « بابيًا » ؟ !
١٦١	الجامعة الإسلامية
٢٠١	خرافة المستبد العادل
٢١٤	المراجع

رقم الإيداع ٢٠٩٤ / ١٩٨٤ الترخيم الدولي ٦ - ٠١٤ - ١٤٨ - ٩٧٧



مطابع الشروق

93091 SHROK UN
SHOROK 20175 LE

القاهرة : ١٦ شارع جمال الدين - هاتف : ٧٧١٨١٤ - ٩٥٩٢٩٩ - برقية : شروق - فلكس
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقية : دارشروق - فلكس

